العدد ٦٦
آذار/مارس ٢٠٢١

نشرة الهِجْرة القسرية

دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة

ومقالاتٌ خاصَّة في:

المُعطَيات والتَّهجير والمُهاجِرين المَفقودِين

UNIVERSITY OF OXFORD
مركز دراسات اللاجئين

نشرة الهجرة القسرية

نشرة الهجرة القسرية

نشرة الهجرة القسرية هي منبرٌ للأخذ والعطاء في الخبرة العمليّة والمعلومات والأفكار بينَ الباحثين واللاجئين والنّازحين داخلياً ومَن يَعْملُ معهم. وتَصْدُرُ باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية عن مركز دراسات اللاجئين، في قسم الإيماء الدوليّ بجامعة أكسفورد.

أسرة النَّشرة

ماريون كولديري وأليس فيليب
(المُحرِّرتان)
مورين شونفيلد
(مساعدة الشؤون المالية والترويج)
شارون إليس (مساعدة)

نشرة الهجرة القسرية

Refugee Studies Centre
Oxford Department of International Development, University of Oxford
3 Mansfield Road,
Oxford OX1 3TB, UK

fmr@qeh.ox.ac.uk
سكايب: fmreview
هاتف: 281700 1865 (0) 44+

www.fmreview.org/ar

إخلاء المسؤولية

ليس بالضرورة أنْ تستوي الآراء الواردة في أعداد نشرة الهجرة القسرية هي وآراء أسرة تحرير النشرة أو آراء مركز دراسات اللاجئين أو آراء جامعة أكسفورد.

حقوق الطبع:

نشرة الهجرة القسرية مفتوحة المصدر. ولمزيدٍ من المعلومات في حقوق الطبع، انقر هذه الوصلة:
www.fmreview.org/ar/copyright

ISSN 1460-9819

التصميم:
Art24
www.art24.co.uk

طباعة:
Oxuniprint
www.oxuniprint.co.uk

كلمة أسرة التحرير

ما كان في الحسبَان أن ننشر عدداً آخر من نشرة الهجرة القسرية وقُيُود داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) ما تزال مضروبةً، ولا أن نُرحِّبَ بمحرِّرتنا المشاركة الجديدة أليس فيليب من دون أن نلقاها بأنفسنا! إلا أنَّ من فضل مُعاوَنةِ مؤلِّفينا ومانحينا لنا أنْ سُرِرْنا بإصدار أحدثِ عددٍ بمحاوره الثلاثة.

أمَّا المحور الرَّئيس **فدَعْم الصِّحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة**، والظاهر أنَّه جاءَ لميقات الحاجة إليه في أثناء هذه الجَّائحة، إذ تتفاقم آثار التَّهجير في الصِّحَّة العقليَّة تفاقماً مُغْمِّاً بفِعْل داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩). ويدور حول هذا المحور ١٣ مقالة، تُسبَرُ فيها أَهميَّةُ دَعْم الصِّحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وما يلازم هذا الميدان من مُتحدِّيات، وتُناقَشُ مبادرات دَعْم الصِّحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وتطبيق هذه المبادرات في سياقات مختلفة، وتُناصَرُ تَقويةُ التعاون والالتزام وفَتْحُ طُرُق للتفكير جديدة.

ثمَّ تكلَّمَ المؤلِّفون حولَ محور **المعطيات والتَّهجير** في آخر ما تُوُصِّلَ إليه من وجوه المناصرة لجَمْع المعطيات واستعمالها، وفي المُتحدِّيات التي تعترض ذلك، وفي طُرُق جديدة للمقاربة، ومنها ما يُتصدَّى به للقُيُود المضروبة بسبب الجَّائحة.

ولمَّا كان من المهاجرين الذين يموتون أو يختفون وهم في رحلات محفوفة بالأخطار عددٌ غير معلوم، وكان يَكثرُ أنْ تُدخَلُ أُسَرُهم في مأزقٍ لا يَبِينُ لها مدخله ولا مخرجه، أدرجنا في هذا العدد محور **المهاجرين المفقودين** وفيه يَسْبرُ المؤلِّفونَ ما بودر إليه لتَحسين جَمْع المعطيات والتشارك فيها، وتَعرُّف هُوِيَّة الجثامين، وإعانَة الأُسَر المُهمَلة.

يطيب لنا أن نَشْكُرَ ألَسْتا أَيْجَا وجوليا بلاك وكَيْت ديردَن وجِمْس إيتُنلي ومَتَّى جِبْني وراشيل هَيْستي ومُورِس هِرسِن وماريان لُكْري ودومينيكو تاباسُّو- على معونتهم في هذا العدد، ونَشكُرُ لكلِّ مَن دعمَ بالمالِ هذا العددَ خصوصاً ونشرة الهجرة القسرية عموماً. ونورد أسماءَ مُموِّلينا في الصفحة التالية.

ومجلَّتُنا هذه ورفيقُها موجز أسرة التحرير حاضران بإصدارٍ شابكيّ وإصدارٍ مطبوعٍ هنا **www.fmreview.org/ar/issue66**. وهما بثلاث لغات: الإنجليزية والعربية والإسبانية. ومن أسفٍ أنَّ نَقْصَ التمويل حال دون أن ننشر هذا العدد باللغة الفرنسية.

المُقبل: سنقدِّم بين يدي العدد المُقبل موضوعاً عريضاً في الصِّحَّة العامَّة وسُبُل حِفْظها من نظافة وماء عذب وصَرْفٍ صحيّ، وموضوعاً أقصَرَ في الدول غير الموقِّعة ونظام اللاجئين الدولي. فإن شئت التفصيل فانظر **www.fmreview.org/ar/forthcoming**.

على الخَيْر والبَرَكَة

ماريون كولدري وأليس فيليب
مُحرِّرَتا نشرة الهجرة القسرية

صورة الغلاف الأماميّ:

روز ساكوما وهي آخذةٌ بيَدِ امرأة أخرى من أعضاء جمعيَّة مكانة النِّساء (Women Standing) في بِغْوا بجمهورية إفريقيا الوسطى. هربَت مع بناتها وأحفادها يومَ ابتدأت الهَجَمات على منطقتها، قالت: «رُضِخْتُ (أُصِبتُ بصدمة نفسانية) إذ رأَيتُ القَتْل والرصاص والسواطير، وشَهِدْتُ الرُّؤوسَ تُقطَع والناس تُشنَق. وقد قُتِلَ زوجي ونحن نهرب. ولولا جمعيَّة مكانة النِّساء لما بقيت حيَّة. فحين نلتقي نُطَمْئِنُ بعضنا بعضاً».

مفوضيَّة اللاجئين/أدريَيْن سُرْبرونُو

دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة

٤ **تَقْديم: لا صحَّة بلا صحَّة عقليَّة**
سَرْد كاڤ

٥ **توتُّر مُبتدَع عند عَمَل إطارٍ لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة**
أَلْسْتا أَيْجَا

٨ **دخول الفاعلين الحمائيّين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: الحاجة إلى تعاون تشترك فيه عدّة قطاعات**
سارة هَرسُن وِوِلْيَم شمالي وفهمي حنّا ونَنْسي پُلْوْتان تُلْير وبيتر قُنْتفُوغل

١٢ **دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة في حَضَر مصر**
نَنْسي بارون

١٥ **التحيُّز الثقافيّ ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة**
جُوَان ميشيل فَرْنَنْدز أَكَمْبو ومحمود نور عوده ومَيْك وِسلْز

١٧ **أهميَّة حُسْن حال المعلِّمين في الصحَّة العقلية عند الطلاب وفي النُّظُم التربوية التكيُّفيَّة**
دَانيل فْلك وپول فريسُولي وإميلي ڤارني

٢١ **دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة المُراعي للإيمان عند مزاولي المعونة الإنسانيَّة**
لِيْوني هَرْش وكوري قان درڤن وأوليڤيَا وِلْكنْسْن

٢٤ **الإيمانُ ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند النساء المُسلمات المُهجَّرات**
كاثلين رُتلج وسَندرا إيمان بِرْتك ومحمد أبوهلال وعطا الله فَتْسغيبُون

٢٧ **شَأْنُ الوُسَطاء الثقافيِّين ووجوه مسؤوليَّتهم**
إميلي فَنبلس وكاثرين وَيْتهوس وكَتْرينا سيهْسُو وِلِليان بِتْزي وأحمد الروسان وإستيفانو دكارلو

٢٩ **العُنْف على المرأة والصحَّة العقليَّة عند اللاجئات ونساء المجتمعات المُضيفة**
أليناً بُتْس وراسيل بَرَدَا وأنجلا بوراسا

٣١ **مقاربة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بُطُرق مجتمعيَّة**
دمتْرُو نرسيسيَان ومارين راغونو وهَيْدَا رِيدَه وغوليَالمو سكينينَا

٣٤ **النَّشاطُ البَدَنيُّ ودَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة**
سيمون روزنْبَوْم وأَلْسْتا أَيْجَا وِلَسْلي سنايدر وأجوَنْغ وارِيَا وهُوْلي كوليسن وصابرينا إرَمْهيسَا ودَيْڤي ڤانكمبفُرت

٣٨ **من موضع إلى مكان: نظرات ميدانيّة في تكيُّف الأمكنة الصالحة للأطفال في زمن داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)**
جَهْنا متزْلر وإيميلين غابريل وفريدا ميوبي وكِڤن سَاڤج

المُعطَيات والتَّهجير

٤٢ **معطيات وأدلة في الهجرة القسرية: نظرات في التقدُّم والمُتحدِّيات**
إيْون مَكْليُود

٤٦ **نَظْمُ استطلاعات المعونة الإنسانية على معايير الإحصاء العالميَّة**
فِيلكس شمدنك

٤٨ **إدخال اللاجئين والنَّازحين الداخليِّين في نُظُم المعطيات الوطنية**
نتاليَا كِرِنسكي بَال

٥١ **عَوَاثِرُ الاستطلاع الهاتفيِّ المتعدِّد الأشواط وكُمُونُه في زمن داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)**
جِفْري تَانر

المُهاجرين المَفقودين

٥٤ **قياس وَفَيَات المهاجرين وحالات اختفائهم**
أندريا غارتيَا بورخا وجوليا بلاك

٥٧ **التصدِّي لمُتحدِّيات التَّشارك في معطيات الدَّنَا**
سارة كَتسانس وديانا مادن وكُورتني سِكرْت وإدوَردو كانالس وكَيْت سبَرْدلي

٦٠ **والمَتروكُون خَلْفاً؟**
مَرْتا سَنْشز دِيُونيز وكَيْت دِيردَن

٦٢ **البحثُ عن الحقيقة والعدل والالتئام النفسانيّ في زمن الجائحة**
دَانَاي أنجَلي

٦٥ **المهاجرون المفقودون وأسرهم: دعوة إلى زيادة التنسيق الدولي**
سلڤي ڤن لامرَيْه وفلوريان ڤن كونش

٦٨ **الفقدان والأمل والعمل**
عماد سلطاني وأوديسَا غُنْزَالس بِنْسُن وڤَديم بسپروزڤَني

شُكْرَان!

نشرة الهجرة القسرية مُعوِّلةٌ على التمويل الخارجيِّ في كل وجه من وجوه عملها. وبعض مصادر التمويل تموِّلنا تمويلاً سنويّاً قِوَاميّاً لتشُدَّ من أزر عملنا، وغيرها تموِّل مواضيع مخصوصة، ومن مصادر التمويل أيضاً أفراد: قرّاء ومؤلِّفون يرغبون في أن يكونوا لعملِ نشرة الهجرة القسرية داعمينَ.

إنّا لمعترفون بجميل المذكورين تحت لدَعْمهم العدد ٦٦ من نشرة الهجرة القسرية: ACT Alliance/Kerk in Actie • GxJ Lab at Lurie Children's • IFRC Psychosocial Centre • IOM's Global Migration Data Analysis Centre • Scientia A/Prof Simon Rosenbaum, UNSW Sydney • Swiss Federal Department of Foreign Affairs • Tufts University School of Medicine • World Vision UK

ونَشْكُرُ أيضاً: ADRA International • Australian Research Council • Catholic Relief Services - USCCB Danish Refugee Council • European Research Council (Horizon 2020 award, grant number 716968) • Government of the Principality of Liechtenstein • International Committee of the Red Cross • International Organization for Migration • Jesuit Refugee Service • Luxembourg Ministry of Foreign and European Affairs • Oxfam • Rosa Luxemburg Stiftung • UNHCR • Women's Refugee Commission • World Bank–UNHCR Joint Data Center on Forced Displacement

تَقْديم: لا صحَّة بلا صحَّة عقليَّة

سِگْرِد كَاگ

فدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أمرٌ رئيسٌ في حُسْن حالنا، أفراداً وجماعات، ولا سيَّما اليوم.

«لا صحَّة بلا صحَّة عقليَّة». قالها مؤكِّداً أنطونيو غُتيرش الأمين العام في الأمم المتحدة في أيار/مايو ٢٠٢٠، وهي رسالة يسيرة ولكن قويّة.[١] وقد حذَّرَ، مُنذراً إنذاراً جاء في وقته، من أنَّ الارتفاع العالميّ المفاجئ في الانتشار والشِّدَّة لمشكلات الصحة العقلية بسبب داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) أمرٌ غير مستبعد البتَّة، وأن بالأمر حاجةً مُلحَّة إلى اتِّخاذ إجراءات وإلى تمويل للتَصدِّي للوَقْع المُدمِّر الذي جلبته جائحة على بُلُوغ خدمات الصحَّة العقليَّة.

وقد أشار استطلاع أجرته منظمة الصحة العالمية[٢] في تشرين الأول/أكتوبر من سنة ٢٠٢٠ إلى أنَّ داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) قد عَرقَلَ بعض خدمات الصحَّة العقليَّة في ٩٣٪ من البلدان في جميع العالم وطَلبُ دَعْم الصحَّة العقليَّة لا ينفكُّ يزيد. فدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أمرٌ رئيسٌ في حُسْن حالنا، أفراداً وجماعات، ولا سيَّما اليوم. حتَّى إنَّ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة تزداد أهميَّته عند أكثر الناس استضعافاً العائشينَ أصلاً في هامش المجتمع، المتضرِّرين بالنِّزاع أو بالكوارث، المُهاجِرينْ قَسراً أو الذين ما يزالون ينتقلون. وقد فقد كثيرٌ منهم قبلَ الجائحة منازلهم ومجتمعاتهم المحليَّة وأعزَّاءهم وسُبُل معاشهم. فوقعت الجائحة وزادت شدَّةَ ضائقتهم وأحوال معيشتهم المتقلقلة.

وتَنْصُر هولندا بشدَّة الإقرار بأهمية دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند المتضرِّرين بالأزمات من ناس ومجتمعات محليَّة، وتَلتزمُ ضمانَ تحقيق طريقة للمقاربة شاملة في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في كلِّ وسائل المعونة الإنسانيَّة، وفي كلِّ برامج مَنْع النِّزاع وبناء السلام أيضاً.[٣] وإنّا وما يماثلنا في الفكْر من بلدان وهيئات نتقدَّمُ. ففي السنين القليلة الماضية، صُنِّفَ أخيراً دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في أولويَّة جدول الأعمال الدولي. نعم، تُوُصِّل سنة ٢٠١٩ إلى اتفاقيات مهمة في إدخال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في كلِّ استجابة إنسانية، مع مؤتمر انتبه إلى العقل الآن (Mind the Mind Now Conference) وإعلان مؤتمر أمستردام[٤] إذ أخذ تحالفٌ من ٢٨ بلداً و١٠ منظَّمات على نفسه أن يعالج حاجات الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند المتضرِّرين بالطوارئ.

وفيما يلي حاجةٌ لا تنفصل ممَّا تقدَّم:

- إلى تعزيز إدماج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في كلِّ استجابة للأزمات من أوَّلها،
- وإلى إدماج المهارات الأساسية لدَعْم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في تدريب كلِّ عامل في ميدان المعونة الإنسانية،
- وإلى الاهتمام بحُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند العاملين في ميدان المعونة الإنسانية وأوَائِل المستجيبين والمتطوِّعين.

هذه مبادئ لها منزلة عالية في جدول الأعمال عند الفرقة المرجعيّة لشؤون دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة التابعة للجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات،[٥] وهي أيضاً مبادئ بُيِّنَت في قرار كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٩[٦] الصادر عن لجركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، الذي يدعو إلى إدماج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في كلِّ جوانب استجابتها للطوارئ.

ومع أنَّ خطوات مُهمةً قد اتُّخِذَت، فبسبب التَّزَايُد في سوء الصحَّة العقليَّة، صار بِنَا حاجةٌ ماسَّة إلى زيادة استثماراتنا في التمويل، وكذلك في الجهود السياسية والنَّهج السياسيّ وفي تنمية الموارد البشرية. وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٠، عُقِدَ اجتماع رفيع[٧] في أسبوع المعونة الإنسانية، أصدر فيه كثير من الهيئات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة دعوةً مشتركة إلى العمل، وحثَّت الأطراف على الوفاء بما التزمته قَبْلاً في إيصال الخدمات في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بين القطاعات حتَّى تُقضَى حاجات المتضرِّرين بالطوارئ.[٨] وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٢١، اعتمد المجلس التنفيذي لمنظمة الصحة العالمية قراراً في الاستعداد والاستجابة للصَّحة العقليَّة في الطوارئ الصحيَّة العامَّة.[٩] ويدعو القرار جمعية الصحَّة العالميَّة في ٢٠٢١ إلى اعتماد خطة العمل المُحدَّثة في الصحَّة العقليَّة، ويدعو الدول الأعضاء إلى تخصيص التمويل الكافي، ويدعو

منظَّمة الصحَّة العالميَّة إلى تقوية قدرتها في ميدان الصحَّة العقليَّة.

إنَّ الصحَّة العقليَّة ليست ضرباً من الإتراف ولا فكرةً دابرةً ولا عبئاً زائداً. إنها أداةٌ فعَّالة إذ تُعين الأفراد والأسر والمجتمعات على إطلاق قوّتهم الكامنة على إنعاش صمودهم وزوايا نظرهم أو على حفْظها أو على استرجاعها، وتُعينهم على إعادة بناء التَّماسُك الاجتماعي، واستئناف الأخذ في سُبُل معاشهم، وتعزيز المُصالَحة. فإنَّ إطلاقَ العنان لِما يكمن فيهم من قوّة بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ضرورةٌ في تخفيف آثار النِّزاع والكوارث الطبيعية والتَّهجير والجوائح. وهذا إنما فعلُهُ ممكنٌ بشرط أن نعمل بمُشاركة قويّة مع المُتضرِّرين، والمنظَّمات الشعبية، وجماعات المجتمعِ المدني، والاستفادة مما بين يدينا اليومَ من التجربة والخبرة والأدوات، والبناء عليها.

وإنِّي لأستَحسُن وافرَ استحسان هذا العدد من نشرة الهجرة القسرية إذ اختُصَّ بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وجاء مناسباً للمزاولين وراسمي السِّياسات والباحثين بالسَّواء. وهو نعْمَ العبَّارةُ إلى جملة من المعارف والخبرة مُكتَنزَة يلزم نشرها. وإنِّي أدعو كلَّ الحكومات والفاعلين إلى أن يتعاونوا على العمل، وأن يلتزموا التزاماً قويّاً بمعالجة حاجات الصحَّة العقليَّة عند المُهجَّرين في جميع العَالَم، وأن يستفيدوا حقّ الاستفادة مما في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة من قوَّة كامنة. ذلك أنَّ دَعْمَ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة يُعِينُ على حِفْظ سلامة عُقُولنا ومجتمعاتنا جميعاً.

سِگْرد كَاگ
وَزيرَة التجارة الخارجية والتعاون الإنمائيّ في مملكة هولندا
MHPSS@minbuza.nl

١. bit.ly/Guterres-mental-health-covid-video
٢. WHO (2020) *The impact of COVID-19 on mental, neurological and substance use services: results of a rapid assessment*
(وَقْعُ داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) في الخدمات العقليَّة والعصبيَّة وتعاطي المواد: نتائج من تقدير سريع)
www.who.int/publications/i/item/978924012455
٣. See 'Enhanced Integration of MHPSS & Peacebuilding', October 2020
(تعزيز التكامل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وبناء السلام)
bit.ly/MHPSS-peacebuilding-video-Oct2020
٤. المؤتمر الدوليّ في دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الأزمات – انعقد في أمستردام، في ٧-٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٩.
bit.ly/Netherlands-MHPSSconference-Oct2019;
إعلان أمستردام
bit.ly/Amsterdam-Declaration-Oct2019
٥. bit.ly/IASC-MHPSS
٦. bit.ly/RCRC-MHPSS-Resolution-Dec2020
٧. انظر: bit.ly/high-level-MHPSS-crises-Dec2020-video
٨. bit.ly/IASC-MHPSS-CallForAction-Dec2020
٩. WHO (2021) *Promoting mental health preparedness and response for public health emergencies:*
(تعزيز الاستعداد والاستجابة للصحَّة العقليَّة في الطوارئ الصحيَّة العامَّة)
https://apps.who.int/gb/ebwha/pdf_files/EB148/B148(3)-en.pdf

توتُّر مُبتدَع عند عَمَلِ إطارٍ لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة

أَلَسْتا أَيْجَا

نشأ في العقود الأخيرة حقلٌ من حقول الممارسة وتطوَّر، يُعرَف اليومَ بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ولا تزالُ في تطوُّره مُوَتِّراتٌ ومُتحدِّياتٌ تَصوغُ أسئلةً عن التَّنفيذ والأولويَّة والوَقْع.

أول مَن استعمل مصطلح «نفسانيّ اجتماعيّ» في سياق الهجرة القسرية –فيما وجدتُ– (هرْتا كرَوْس = Hertha Kraus) في عددٍ خاصّ صدر سنة ١٩٣٩ من حوليَّات المجمع الأمريكي للعلوم السِّياسية والاجتماعية.[١] فهناك تناولت هرْتا في بحثها مَجالبَ الكَرْب إلى المُعَاد توطينهم في «بلد غربة»، وذكرت ما هم عليه من حالٍ نفسانية واجتماعية، فجاوَزَت بذلك غيرَها من المؤلفين ممَّن نظروا في الكوارب القانونية والسياسية والاقتصادية.

إلا أن استعمال المصطلح ما شاعَ في هذا الحقل حتى كانت تسعينيَّات القرن العشرين. وكان صدر لربرا هَارِل بُنْد في سنة ١٩٨٦ أثرٌ أدبيٌّ جليلٌ، وهو كتاب (فرض المعونة)، كتبت فيه فصلاً في «فَرْط العَزْو إلى العوامل الاجتماعية في مفهوم الإنسان»، عابت فيه ميدانَ المعونة الإنسانية على إهماله التَّأثيراتِ النفسانية في التهجير. ولما كانت سنة ١٩٩٣ طلبت إليّ أن أُنشئ نقداً على مسألة صحة اللاجئين العقلية، ليُنشَر في تقرير (الصحة العقلية العالمية) الذي يصدر عن جامعة هَرْفَرد.[٢] غير أنه لم يرد فيه من مفهوم الحال النفسانية الاجتماعية إلا إشارة عجلى، وهي في الأكثر للتلميح إلى السياق الاجتماعي والثقافي الأوسع الذي يصوغ الصحَّة العقلية للاجئين.

كان التلميح الرقيق غير كاف لمعالجة وجوه الانقسام التي نشأت وتطوَّرت في هذا الميدانِ الحديث العهد في وقت لاحق من ذلك العقد. وجلبت الإبادة الجماعية في رواندا ، ولا سيَّما الحروب التي أعقبت تفكك يوغوسلافيا السابقة، الجانب الإنساني من النِّزاع والتهجير إلى الإدراك العامّ واستجابة المعونة الإنسانية. ومع ذلك، أدّت معالجة مسائل الصحَّة العقليَّة أيضاً في السكان المعرَّضين للاضطهاد العرقي السياسي إلى ظهور وجوه توتّر شديد بين الاستجابات النفسية المعيارية وطرق المقاربة المجتمعية الأوسع.[٣] وكان درك سَمرفلد وبَات بَرَاكِن ناقدين شديدَين بخاصة لفرض إطارات المَرض الغَربية على ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان والقمع. وكانت جمعيّة الصليب الأحمر الأمريكية عقدت في أواخر التسعينيَّات اجتماعاً للنظر في وسائل الاستجابة المناسبة فكشف عن وجود فصائل متخالفة ذات مواقف مذهبيّة (أيديولوجية) ومنهجية شديدة. وذَكَرَ عددٌ من الجماعات التي حضرت «انتفاءَ توافق الآراء في الأهداف والإستراتيجيات ومبالغ الأثر».

إقامة الإجماع

ونتيجة لما تقدَّم ذكره، جمعت كارولين ماكْنُسن في سنة ٢٠٠٠ عدداً من المنظمات غير الحكومية الدولية الرائدة، تعمل في هذا الميدان مع جماعات أكاديمية من المؤسَّسات التي كان لها مشاركة في طرق المقاربة الناشئة، فألَّفت بعد جمعها فرقة العمل النفسانيّ الاجتماعيّ لإنشاء إطار مشترك يَأطُرُ الميدان.[٤] واقترحت الفرقة أنَّ التدخُّل النفسانيّ الاجتماعيّ ينبغي أن يُحدَّدَ من اهتمام في رأس المال البشري (ولا سيَّما فيما له تعلق بتأثير اعتلال الصحَّة العقليَّة في حُسْن حال الفرد)، وفي البيئة الاجتماعية (أي العلاقات والنسيج الاجتماعي الأوسع الذي عطّلته الهجرة القسرية)، وفي الثقافة والقيم (ولا سيَّما اضمحلال الحقوق والمعايير الثقافية). وأيضاً فقد أكّدت أهمية التفاعل بين هذه الميادين الثلاثة. وأمّا المُتحدِّي الأساسيّ المُتمثِّل بتخطيط التدخُّل المناسب فنشأ عن المفاوضة في تقديم الدعم في هذه الميادين للمجتمع المحليّ المتضرِّر بطريقة تبيِّن مشاركةً حقيقيةً، لا بفرض الاستعمار الجديد. وفي العروض التقديمية للفاعلين المحليِّين في البلد، لم تزل المسألة المذكورة آنفاً أكثر المسائل اهتماماً بها.

وبعقب ذلك، دُعيَ عضوان من فرقة العمل هذه، هما مارك فان أمـرن ومَيْكَ وِسلْز، إلى المشاركة في رئاسة عمل اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات لإنشاء ما أصبح يُعرَف بعدُ بالمبادئ التوجيهية للجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في التدخُّل في الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ. فقادت هذه المبادرة عملاً رَكَز همّه في التنفيذ العمليّ لا النظريّ، وفي المشاورة المحلية والوطنية الواسعة، حتَّى تُعالَج المخاوف من الفَرْض الذي كان للعَقْد السابق سِمَة. ونجحت المبادئ التوجيهية، التي نُشرَت سنة ٢٠٠٧[٥]، في إنشاء إطار عمل أدمجَ فيه وجهات نظر بينيّةً شتَّى وأمكن أن يبلغه مختلف الفاعلين، محليِّين ودوليِّين، من سبيلٍ واضحة صريحة. وبذلك، استوعبت وجوه التوتُّر الرئيسة في الميدان التي حلَّت عُرَى التماسك والتعاون منذ ابتُدئ العمل بها.

ميدانٌ ناضج مَبنيّ الأدلة

وقد استندت المبادئ التوجيهية في أكثرها إلى النَّاشئ من سُنَن العمل الفضلى، مع الإقرار بأن قاعدة الأدلة التي تدعمها كانت ضعيفة بالقياس إلى غيرها. وصحيحٌ أن الصياغة اللاحقة للمبادئ التوجيهية المُكمِّلة التي صيغت لحالات معيَّنة، مثل تفشِّي إيبولا، كانت مهمةً، ولكن كان أهم تطور في السنين اللاحقات جَمْعَ قاعدة للأدلة أقوى من التي قبلها. واشتمل ذلك على إعداد جدول أعمالٍ بحثية رئيسة، وقام بذلك وِتْس تُوْل وزُمَلاؤه[٦] فحدَّدوا عدداً من الأسئلة ذات الأوَّلِيَّة ولها بأساليب التدخُّل صلة، وكانت تلك الأساليب طُرُق مقاربة أسريّة ومدرسيّة، وطُرُق تقدير، ومشيرات للرَّصد والتَّقويم. ومن الأسئلة أيضاً ما له تعلُّق بتحديد المُرهِقات والمشكلات وعوامل الحماية من زاوية نظر المُتضرِّرين، ووجوه التدخُّل الاجتماعي الثقافي، كعالجة التدخُّل للحاجات المتصوَّرة محليّاً. وقد لاحظت الفرقة التي تُيسِّر هذا الإجماعَ أن جدول الأعمال أبرَزَ «توليد المعرفة العملية التي يمكن أن تُحوَّلَ إلى فوائد ملموسة فورية في إعداد البرامج في الأحوال المقتضية للمعونة الإنسانية، بدلاً من معالجة المناقشات الرئيسة التي غلبت على الدراسات الأكاديمية السابقة». ولقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن تُظهر هاتان المجموعتان من الأسئلة البحثية بعض الوَقْع بالتوتُّر الأساسي داخل إطار دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: فالمجموعة الأولى تؤكد تحديدَ البرنامج الفعّالة والقابل للتعميم في التدخُّل والمقاييس والمشيرات، وأما المجموعة الأخرى فتؤكّد الحاجةَ إلى اعتبار الأمور بسياقها.

ومع استمرار دَعْم الدراسات البحثية في الميدان ببرامج مثل برنامج منظمة إلرْهَا (Elrha) المُسَمَّى ببحث الصحَّة في الأزمات الإنسانية (R2HC)[٧]، تحوَّل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة من كونه أحد أفقر ميادين المعونة الإنسانية المدعومة بالأدلَّة إلى كونه أحد أحسن الميادين. ورُكِزَ أكثرُ العمل في توثيق تأثير المقاربة وطرقها في التدخُّل التي يأخَذ بها اليومَ واسعاً، مثل الأنشطة المُنظَّمة داخل الأمكنة الصالحة للأطفال، أو التي يحتمل أن تكون قابلة للتوسُّع، مثل برنامج المعالجة المطورة للمشكلات (Program Management Plus). وقد أسهم هذا العمل كثيراً في الهدف المتمثل بتحديد طرق المقاربة البرنامجيّة المؤثّرة، ولكنه يشير أيضاً، في كثير من الأحيان، إلى أهمية الهدف المتمثل باستيعاب تنوُّع السياقات التي تحتاج وُجُوهُ التدخُّل هذه إلى التكيُّف بحسبها. وهكذا نضج الميدان وبلغ إلى حدٍّ ينصب فيه

التركيز على الصَّقْل والتعزيز في وجوه التدخُّل التي أثبتت جدواها، أو على إيجاد طُرُق أكثر فاعليَّة أو كفاءة لتحقيق التدخُّل.

وجوه التوتُّر الإبداعية

فإذا كان الميدان، من أيام الاضطراب في تسعينيات القرن العشرين، قد نشأ في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ثمَّ نضج في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، فما المأمول له في العقد المُقبل؟ من جهة البحوث، هناك عمل جديد جارٍ لوضع جدول أعمال، بدعم من عدد من الهيئات المانحة والمنظَّمات الحكومية الدولية،وهو ما يبيِّن المنزلة التي نالها دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في إستراتيجية المعونة الإنسانية. وهذا العمل هو بناء إجماع يشارك فيه مختلف أصحاب المصلحة الوطنيِّين والدوليِّين، ولن تُعرَف نتيجته حتَّى سنة ٢٠٢١. على أنَّ هناك ما لا يقل عن ثلاث مسائل غير مستبعد أن تنشأ عن هذا العمل، ويظهر أنها ستستمر في إشراك المزاولين والباحثين بالسَّواء في العقد المُقبل.

القياس والأمانة والتكيُّف بالسيَّاق: سيظل المُتحدِّي المتمثل باتِّزان تطوير التدخُّل الفعَّال والقابل للتعميم مع الحاجة إلى التكيُّف الثقافي والحساسية لجداول أعمال الفاعلين المحليِّين- سمةً رئيسة، هذا إن لم يكن رأسَ السمات الرئيسة، للعمل في بعض مستقبل الزمان. هذه مُهمَّة هامَّة، تُبيِّن المُتحدِّي المُتكرِّرَ تحدِّيه لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، المتمثلَ بالجَمْع بين التعميم التقني وفهم السياق والمشاركة، وهي مهمَّة توسِّع نطاق التدخُّل لوصول نسبة أكثر كثيراً من المجتمعات المُتضرِّرة، مع الحفاظ على الأمانة في المُكوِّنات النشطة للتدخُّلات المُثبَت نجوعها. ومع ذلك، هناك بعض الأمثلة الحديثة الواعدة جدّاً على التكيُّف بالسِّياق، يُنظَرُ إليها على أنها مهمَّة ينبغي القيام بها خطوةً خطوة، وليست طموحاً مُبهماً.

تخفيف المعاناة أو سَوْق تغيير طويل الأمد: كثيراً ما وُجِدَت التقويمات التي نظرت في الآثار الطويلة الأمد للتدخُّل في الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أن لا فوائد كثيرة تُرجَى لمن في البرامج بالقياس إلى مَن لم يُتدخَّل في أحوالهم.[٨] وليست هذه النتيجة في العادة ناشئةً عن «تراجع» في حُسْن حال الأطفال الذين حضروا البرامج، إنما هي نتيجة أنَّ الأطفال الذين لم يحضروا البرامج تمكَّنوا من «اللحاق بركب» التكيُّف. وعلى الرغم من الفوائد القصيرة الأمد التي يتم تُلاحَظ، يُقَال أحياناً إنَّ التدخُّل ليس له تأثير. وهذا إنما يُثير مسألة: فهل ينبغي أن تقصد البرامج النفسانيَّة الاجتماعيَّة في أساسها إلى تخفيف المعاناة أو إلى صَوْغ مسارات طويلة الأمد للتكيُّف؟ قد تُبيِّن الوعود بالفوائد الطويلة الأمد انجذاباً لا داعي له لذِكْر سرديَّة الصُّمود الطويل الأمد، بدلاً من ذكر سرديَّة تخفيف المعاناة. وإنِّي أرى أنَّ وَضْعَ التدخُّل في الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مَوضعَ دَعْم السكَّان الذين يعانون من ضائقة، بدلاً من إظهار فوائد طويلة الأمد، قد يكون مُفيداً إذ يكون خطّاً قاعديّاً للتوقُّع في الميدان. وهذا لا يعني أنه لا يمكن ضمان تحقيق الفوائد الطويلة الأمد، ولكن قد يكون من اللائق أن يُحكَّمَ التدخُّل في الأحوال النفسانيَّة الاجتماعيَّة كما تُحكَّم أوّلاً مسائل الغذاء والمأوى ومعظم وجوه التدخُّل في الصحَّة؛ أي بناءً على تخفيف المعاناة والخطر المحتمل عند السكَّان المتضرِّرين في أثناء الطوارئ، لا على المسارات الطويلة الأمد للأمن الغذائي أو الاستقرار أو حُسْن الحال البدنيّة.

التدخُّل المُركَّز أم إستراتيجية المشاركة؟ أخيراً، أتوقع استمرار المناقشات حول الأولوية النسبية لبرامج التدخُّل المُركَّزة في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة –مثل معالجة الضائقة العقليَّة الشَّديدة وعواقب العُنْف الجنسانيّ- وحول إستراتيجيات مشاركة المجتمع المحليّ ذات التركيز الأوسع التي تُعزِّز الفاعليَّة والملكيَّة وبناء السلام. على أنَّا يمكن أن نتوقَّع نُشُوءَ أُطُر أوضَح ونظريات تغيير أبيَن تربط هذه الضروب المختلفة من العمل بعضها ببعض. وقد أقرَّ باتِّساع التأثيرات في حُسْن الحال التي بُيِّنَت في طُرُق المقاربة المجتمعية أوّل ما استعملت هرْتا كرَوْس المصطلحَ لوصف القوى التي تَصوغُ تَجربةَ إعادة توطين اللاجئين وأكثرَ الدراسات السابقة مُذّاك؛ فقيمة التدخُّل المُركَّز والمُوجَّه نحو معالجة الضائقة النفسانيَّة والانفعاليَّة يُؤيِّدُها اليومَ كمٌّ من الدراسات السابقة وافِر.

أَلَسْتا أَيْجَا ***aager@qmu.ac.uk @AlastairAger***
معهد الصحّة والتنمية العالميَّيْن، في جامعة الملكة مارغريت، وكلية مَيلمَان للصحَّة العامة، في جامعة كولُمبيا

١. Kraus H (1939) ‘Starting Life Anew in a Strange Country’, *The Annals of the American Academy of Political and Social Science*, Vol 203
(استئناف العيش في بلد غربة)
www.jstor.org/stable/1021890

٢. Ager A (1993) ‘Mental health in refugee populations: A review’, Refugee Studies Programme, University of Oxford, for Project on International Mental and Behavioral Health, Harvard.
(الصّحة العقليَّة عند السكَّان اللاجئين: نقد)
http://fmo.bodleian.ox.ac.uk:8080/fedora/get/fmo:1082/PDF

٣. Ager A (1997) ‘Tensions in the psychosocial discourse: implications for the planning of interventions with war-affected populations’, *Development in Practice* 7 (4)
(وجوع التوتّر في الخطاب النفسانيّ الاجتماعيّ: تبعات تخطيط التدخُّل في أحوال المتضرِّرين بالحرب)
www.jstor.org/stable/4029006?seq=1

٤. Psychosocial Working Group (2002) *Psychosocial Intervention in Complex Emergencies: a Conceptual Framework*
(التدخُّل في الأحوال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ المعقّدة: إطار مفاهيمي)
bit.ly/PWG-conceptual-framework-2002

٥. IASC (2007) *IASC Guidelines on Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings*
(المبادئ التوجيهية في اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّة العقليّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
اقرأه باللغة العربية: bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar
٦. Tol W et al (2011) 'Research Priorities for Mental Health and Psychosocial Support in Humanitarian Settings' *PLoS Med* 8(9): e1001096
(أولويّات البحث في دَعْم الصحَّة العقليّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الأحوال المقتضية للمعونة الإنسانية)
https://doi.org/10.1371/journal.pmed.1001096
٧. Tol W et al (2020) 'Improving mental health and psychosocial wellbeing in humanitarian settings: reflections on research funded through R2HC', *Conflict and Health* 14
(تعزيز حُسْن حال الصحّة العقليّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الأحوال المقتضية للمعونة الإنسانية: تأمُّل في البحث المُموَّل تحت اسم بحث الصحَّة في الأزمات الإنسانية)
https://doi.org/10.1186/s13031-020-00317-6
٨. Panter-Brick C, Dajani R, Eggerman M, Hermosilla S, Sancilio A and Ager A (2017) 'Insecurity, distress and mental health: experimental and randomized controlled trials of a psychosocial intervention for youth affected by the Syrian crisis *Journal of Child Psychology and Psychiatry* 59
(انتفاءُ الأمن والضَّائقةُ والصحَّةُ العقليَّة: تجارب اختباريَّة وعشوائيَّة مع شواهدها في التدخُّل في الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند الشباب المتضرِّرين بالأزمة السورية)
https://doi.org/10.1111/jcpp.12832

دخول الفاعلين الحمائيّين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: الحاجة إلى تعاون تشترك فيه عدّة قطاعات

سارة هَرسُن ووِلْيَم شمالي وفهمي حنّا ونَنْسي پُلُوْتان تُلْير وبيتر قُنْتفُوغل

تقتضي إعانة المتضرِّرين بالطوارئ الإنسانية على ترقية ما هم فيه من حال الصحة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عملاً وتنسيقاً بين عدّة من القطاعات يدخلان تحت استجابة حمائية شاملة.

ذاقَ كثير من الناس العائشين في المناطق المتضررة بالعنف والنزاع سوءَ وَقْع ذلك في صحَّتهم العقلية، ويصيب اضطراب الصحّة العقلية شخصاً من كلّ خمسة أشخاص، وهذا أكثر كثيراً ممّا يصيب مَن لم يتضرَّر بالنزاع من السكان.١ وقد يحتاج المتضرِّرون إلى دعم حالهم النفسانية الاجتماعية دعماً مُكثّفاً أو إلى خدمات سريرية في الصحة العقلية والنفسانية. لكن قبلَ كلّ شيء، يحتاج المتضررون إلى شباك اجتماعية داعمة وإلى قضاء حاجاتهم الأساسية وإلى تأمينهم بحيث تُحفَظُ لهم كرامتهم وفاعليَّتهم وحقوقهم.

في العقد الماضي، أُقِرَّ في الاستجابة الإنسانية بضروريَّة دعم الصحة العقلية وحسن الحال النفسانية الاجتماعية للمتضرِّرين بالنزاعات والكوارث وطوارئ الصحية العامّة.٢ وكانت المبادئ التوجيهيَّة التي بدأتها اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات لسنة ٢٠٠٧ في شأن دعم الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية في الطوارئ قد عدَّت دعمَ الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية ميداناً بينيّاً تستدعي مقاربته تعاونَ فروع إنسانية شتّى.٣ وفي سنة ٢٠١٩، أعادت القيادة العالمية للاستجابةِ الإنسانية (أي رؤوس اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات) تأكيدَ قرار «أن يُعامَلَ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة معاملةَ المسألة الشاملة التي لها شأن في قطاعات شتَّى: الصحة والحمايةِ والتغذية والتعليم والتنسيق في المخيّمات وتدبيرها، وذلك في كلّ الطوارئ».٤

وتميل البرامج الإنسانية إلى التركيز على قطاع مُعيَّن في حين أن الأفراد والأسر والمجتمعات المحلية في أحوال الطوارئ يكثر أن تعترضهم عدّة من مشكلات وحاجات تتداخل تعريفاتها بين قطاعات شتَّى. ومنذ سنة ٢٠٠٧، أنشئت وطُوِّرت أدوات تقنية قوية لوجوه تدخُّل معيَّنة في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وذلكَ في ميادين منها الصحة والتغذية والتعليم والعنف الجنسانيّ وحماية الطفل. على أنّ الاستجابة الإنسانية كلّها تحتاج إلى اعتماد المقاربة بطريقة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وهذا يعني أن تُجعَل المعونة الإنسانية بحيث تدعم حُسْنَ حال الصحة العقليّة والحال النفسانية الاجتماعية عند المعني بهم ولو كان همّ التدخُّل مركوزاً في القطاعات. وبالجملة يجب أن يكون تَعزيزُ حُسْن الحال النفسانية وحمايتها (أي حسن الصحة العقلية) إيصالُ خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة راسخاً في القطاعات عاملاً فيها.

الأهداف والموارد والبنية

تتطلب معالجة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة موضعاً محدّداً واضحاً للموضوع داخل بنيات تنسيق العمل الإنساني. وقد اتفق رؤساء اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في اجتماعهم الذي عقد سنة ٢٠١٩ على «إبانة مشيرات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في وَثائق التخطيط ذات الصلة بها، وإنشاء بنود مخصصة للميزانية، إضافةً إلى إنشاء مدوَّنات مُحدَّدَة لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة تُدرَجُ في أنظمة التتبع المالي، وذلك لدعم تأليف وعمل فرق عملٍ في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، على صعيد الدولة، في كلّ سياقات الهجرة وسياقات اللاجئين وقد

السياقات الإنسانية، فتكون تلك الفرق فرَقاً يشمل عملها عدّةً من القطاعات». وأعادت وهيئات الأمم المتحدة أخيراً تأكيد هذه القرارات في دعوةٍ إلى العمل مشتركةٍ بين الهيئات.[٥]

هذا، ويوجد اليومَ ٥٠ فرقةَ عملٍ متعدِّدة القطاعات تعمل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، تنشط في أحوال العمل الإنساني، وتتنزّل مزلةَ مُنتديات يمكن أن تناقشَ فيه مسائلَ البرامج الهَيئاتُ المشاركة في وضع البرامج لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. فهذه منتديات تقنية تعمل بين الفِرَق والقطاعات –ومع جهات التنسيق في هذه الميادين بحسب مقتضى الحال– ولكنَّ شأنَها لا يحلّ محلّ شأن الفِرَق والقطاعات، التي تحتفظ بالمحاسبة على الأعمال وإعداد التقارير. وينبغي أن تُوحِّد البنية والقيادة المشتركة على صعيد الدولة من قِبَل الفاعلين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ولكن في أحسن الأحوال تشترك في رئاسة فِرَق العمل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة هيئةٌ صحيَّة وهيئةٌ حمائية، لتحقيق التوازن بين طرائق المقاربة المتنوعة والمتمِّمة.

ثمَّ إنَّ إدماجَ الطرائق المجتمعيَّة لمقاربة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في القطاعات الأخرى كثيراً ما يكون فيه عمل مختلف بدلاً من الأخذ في مهمات جديدة؛ أي إيصال الخدمات الراهنة بطريقة فعّالة (يُركَزُ الهمّ فيها في الكرامة والفاعليَّة ومشاركة المُتضرِّرين) بدلاً من طلب وَضْعِ «برامج نفسانيَّة اجتماعيّة» مستقلّة.[٦]

محيط حمائيّ

بين يدي دليل إسفير أربعة مبادئ حمائية، أحدها هو «إعانة الناس على التعافي بإزالة الآثار الجسمانية والنفسانية التي يخلّفها العنف المُهدَّد به والواقع، أو الإكراه، أو الحرمان العَمْد».[٧] فمن الضرورة أن ينتبه جميع الفاعلين الإنسانيين إلى العواقب النفسانية التي تجلبها وجوه انتهاك حقوق الإنسان وإلى أنّ التَّهجير يُخلِّف في الناس آثاراً تختلف باختلاف السنّ والجنس والتنوُّع. فبلا محيطٍ وقائيٍّ يستحيل قضاء حاجات الأفراد والأسر والمجتمعات المُتضرِّرة في دَعْم صحَّتهم العقليَّة وحالهم النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وقدرة الأفراد والأسر على اتِّخاذ إجراءات المطالبة بحقوقهم يؤثّر فيها أثر سوء الإحباطُ السَّائد، ومشاعر الاكتئاب والقلق، وذكريات أحداث الماضي من عُنْفٍ وفقدان، والمخاوف من أحوالِ الحياة راهِنُها ومُستقبَلها.

وكما أنَّ مخاوف الحماية يمكن أن تكون سبباً في اضطراب الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أو تفاقمه، دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة يمكن أن يكون سبباً في مخاوف الحماية أو تفاقمها. وفي الطوارئ، كثيراً ما تُنتهَكُ حقوق الناس الذين يعانون أحوال اضطراب في الصحة العقلية شديدةٍ،

نازحون داخليُّون من جنوب السودان، في موضع حماية المدنيِّين قربَ مَلَكالَ من ولاية أعالي النيل، وهم يديرون عملاً مسرحيّاً يتناول مسألة الانتحار ومسألة اليأس.

حتّى إنّ ذلك الانتهاك أوسع انتشاراً ممّا هو عليه في الأحوال المستقرة. وتتأثر قدرة الأفراد والأسر على اتخاذ إجراءات للمطالبة بحقوقهم بأثر سوء بما يجلبه النِّزاع والعنف والكوارث من عواقب الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية. وإن عُولجَت هذه العواقب أسهم ذلك في إنشاء الحماية بتقوية فاعليَّة الناس بحيث يعالجون مسائلهم الحمائية معالجةً فعَّالة.

ولا بدَّ من أن يعي الفاعلون في ميدان الحماية تأثيرَ خصائص المُتضرِّرين المتداخلة، ومن أن يولوا اهتماماً خاصّاً بالمسائل الشاملة وباستمرار الرعاية طوال العمر. ويمكن أن يُقوُّوا دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في عملهم من طريق:

- تحسين وجوه التدخُّل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة حتّى يصل إلى كلّ الفئات المتضرِّرة.
- وإدخال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في كلّ برامج الحماية على اختلافها.
- وإنشاء آليّات إحالة مع الفاعلين دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في القطاعات الأخرى.
- ونُصْرَة إنشاء فِرَق عمل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة تعمل بين القطاعات.
- والحثّ على استعمال المشيرات إلى مخرجات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في برامج الحماية.[٨]
- واستنجاح العمل والحضّ على توسيع نطاق مجالات المسؤولية (داخلَ مجموعة العالمية للحماية) التي أدمجت منهجيّاً دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في برامجها، ولا سيَّما في حماية الطفل، والعنف الجنسانيّ، والأعمال المتعلقة بالألغام.
- واستنجاح إدراج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في إدارة حالات الحماية للأفراد والأسر المعرَّضين للخطر، ومثال ذلك أن يُدرَّب تدريب مديرو الحالات على الأساسيّ من المهارات النفسانية الاجتماعية.
- وجَعلُ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بنداً قائماً في جدول الأعمال الذي يبحث في اجتماعات فرقة الحماية واجتماعات التنسيق بين القطاعات.
- ونُصْرَة الفكرة القائلة بأن دَعْمَ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مسألة شاملة في الاستجابة الإنسانية وفي دورة عمل البرامج الإنسانية، مثل خطط الاستجابة للشؤون الإنسانية وشؤون اللاجئين، والعروض الموجزة في الحاجات الإنسانية.

الاستثمَارُ في الإنماء والاستجَاباتُ المحليَّة

لا يقتَصر الاستثمار في خدمَات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة على الإسهام في تقليل معاناة الناس في الأحوال التي يحتاجون فيها إلى المعونة الإنسانية (وهو وحده سبب يكفي للأخذ في هذا الاستثمار) ولكنّه أيضاً يُعزِّز ويعين على التماسك الاجتماعي والسلام وإعادة بناء المجتمعات على أمد بعيد.[٩] وهذا إنما يقتضي، منذ تبتدئ الطوارئ، رؤية بعيدة الأمدِ تعين على البُنَى المستدامة. ويبغي للفاعلين في ميدان الحماية لأصحاب المصلحة أن يحثّوا على إدخال الفاعلين الإنمائيِّين في الاستجابة، وذلك ليتحقق التكامل بين العمل الإنساني والإنمائي. هذا يعني في الغالب المناصرة مع وزارات المالية أو وزارات التخطيط لتخصيص ميزانية بعيدة الأمد لدعم مخرجات حسن صحَّة الناس العائشين في أراضي بلادها وحالهم النفسانية والاجتماعية. وتُعينُ معالجة عواقب التَّهجير في الصحَّة العقلية على وجدان حلول دائمة، ويَزيدُ إدراج اعتبارات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في أعمال الحلول الدائمة فعّاليتها في مساندة المُتضرِّرين والمجتمعات المُضيفَة والسلطات الحكومية على تدبير عواقب التَّهجير والكوارث والتغلُّب عليها.

وكثيراً ما يكون شأن المنظمات غير الحكومية المحلية في التَّنسيق هامشيّاً. وتشترك المنظمات غير الحكومية المحلية في رئاسة عدد قليل من فرق العمل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ولم يحدث هذا، فيما نعلم، إلا في بنغلادش (بمنظمة بَـرَاك=BRAC) واليونان (بمنظمة بـابـل=Babel) ونيبال (بمنظمة تيبيْوُّوه نيبال=TPO Nepal) وأوغندا (بمنظمة تيبيْوُّوه أوغندا). ومع ذلك، هناك وزارات حكومية تنفيذية لها شَأْنٌ قياديّ مشترك تدعم إدراج المُتضرِّرين في إيصال الخدمات الوطنية في أفغانستان ومصر ولبنان وشماليّ شرقيّ نيجيريا والنيجر وتركيا وأوكرانيا واليمن (عدن).

مثال ذلك: أنّ في أفغانستان يشترك في رئاسة فرقة العمل على دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مُديرُ شؤون الصحة العقليَّة وإساءة استعمال الموادّ في وزارة الصحَة العامة، ومعه مُوظَّفٌ وطني يعمل بدوام كامل من موظَّفي منظَّمة غير حكومية اسمها منظمة العمل لمكافحة الجُوع. وتُسهم برامج وأعمال الهيئات التي تتبع فرقة العمل في إنجاز استراتيجية وطنية في أفغانستان للصحة العقلية تمتدُّ خمس سنين، وتُسهم أيضاً في بناء أنظمة للصحة العقلية، مثل إدخال الصحة العقلية في الحزمة الأساسيَّة للخدمات الصحية وفي الحزمة الجوهرية لخدمات المستشفيات. وقد أُلِّفت هاتين الحزمتين وزارة الصحة العامة ودعمَ ذلك اتحادٌ من المانحين. وأيضاً ترتبط فرقة العمل بالبرنامج الوطني لمساعدة ضحايا الإجراءات المتعلقة بالألغام

وترتبط على نطاق أوسع بالفاعلين في ميدان الحماية، وذلك مع إدخال مشيرات مخصوصة بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في أقسام الحماية في خطة الاستجابة الإنسانية الأفغانية لسنة ٢٠٢١، وإدخالها العرض الموجز في الحاجات الإنسانية.

وبعد، فيجب أن يشارك الفاعلون المحليُّون مثل أهل المجتمع المحليّ والمتطوعين والقادة الدينيِّين وقادة الشباب والعاملين على صحّة أهل الأحياء ورعايتهم الاجتماعية والمعلِّمين والمستفيدين من الخدمات، كلّ هؤلاء يجب أن يشاركوا في كلِّ صَوغ وتنفيذ للاستجابات في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّةِ الاجتماعيَّة. وليس من إستراتيجية غير هذه لتحقيق التَّحول الثقافي والاستدامة والاستعداد واستمرار المعالجة والدَّعم حينَ يَصعُبُ إيصالُ المعونة الإنسانية والإمدادية ويقلُّ التمويل.

سارة هَرسُن ***sahar@rodekors.dk @IFRC_PS_Centre***
من مركز مراجع دعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة التابع للاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، ورئيسة مشاركة سابقاً لفرقة المراجع التابعة للجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات، والمعنية بشؤون دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ

ولْيَم شمالي ***chemaly@unhcr.org @WilliamChemaly***
منسِّقٌ في المجموعة العالمية للحماية

فهمي حنّا ***hannaf@who.int***
موظَّف تقنيٌّ، في قسم الصحة العقلية وإساءة استعمال المواد، من منظَّمة الصحَّة العالمية، ورئيس مشارك في فرقة المراجع التابعة للجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات، والمعنية بشؤون دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ

نَنْسي پُلُوْتان تُلْير ***polutan@unhcr.org***
موظَّفة حمايةٍ رئيسةٌ، في المجموعة العالمية للحماية

بيتر فُنْتفُوغ ***ventevog@unhcr.org @VentevogelPeter***
موظَّف رَئيسٌ في شؤون الصحَّة العقلية، في قسم الصحة العامة، من شعبة الصُّمود والحلول، في مفوضيَّة اللاجئين

كلُّ ما ورد من آراء في هذه المقالة هي آراء كاتبيها وقد لا تستوي هذه الآراءُ وآراء المنظَّمات التي يتبعونها ولا قراراتها ولا سياساتها.[10]

١. Charlson F et al (2019) 'New WHO prevalence estimates of mental disorders in conflict settings: a systematic review and meta-analysis', *The Lancet* 394 (10194)
(تَقديرٌ انتشار جديدٌ من منظَّمة الصحة العالميَّة في وجوه الاضطراب العقليّ في أحوال النِّزاع: عرض منهجي وتحليل مترفِّع)
bit.ly/Lancet-Charlson-et-al-2019
٢. Jones L and Ventevogel P (2021) 'From Exception to the Norm: How Mental Health Interventions Became Part and Parcel of the Humanitarian Response', *World Psychiatry* 20(1); 2-3
(من الاستثناء إلى القاعدة: كيف تدخُّل الصحة العقلية جزءاً لا ينفصل من الاستجابة الإنسانية؟)
https://onlinelibrary.wiley.com/doi/epdf/10.1002/wps.20808
٣. IASC (2007) *Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings: Guideline*, pp11–13
(المبادئ التوجيهية في اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّةِ العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar
٤. سجلٌّ ملخَّصٌ ونقط عمل من اجتماع رؤساء اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات، في جنيف، ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٩.
bit.ly/IASC-Principals-meeting-05122019
٥. دعوةٌ إلى العمل مشتركةٌ بين الهيئات في شأن دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في سنة ٢٠٢٠
bit.ly/MHPSS-joint-interagency-call-2020
٦. Horn R, Waade M and Kalisky M (2016) 'Not doing more, but doing differently: integrating a community based psychosocial approach into other sectors', *Intervention* 14(3)
(لا مزيدَ فعلٍ ولكن فعل بطريقة مختلفة: إدماج مقاربة نفسانية اجتماعية مجتمعية في قطاعات أُخَر)
bit.ly/Horn-Waade-Kalisky-2016
٧. spherestandards.org/handbook-2018
٨. IASC (2017) Common Monitoring and Evaluation Framework for Mental Health and Psychosocial Support Programmes in Emergency Settings
(إطار عمل الرَّصد والتَّقويم في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-CommonMandEFramework
اقرأه باللغة العربية: bit.ly/IASC-MHPSS-CommonMandEFramework-ar
٩. Tankink M and Bubenzer F (2017) 'Building sustainable peace through an integrated approach to peacebuilding and mental health and psychosocial support: a literature review', *Intervention* 15(3)
(بناء سلام مستدام بمقاربة إدماجيّة في بناء السلام ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: مراجعة دراسات سابقة)
bit.ly/Intervention-Tankink-Bubenzer-2017
١٠. بُنِيَت هذا المقالة البحثية على الورقة البحثية الآتية:
Harrison S, Hanna F, Ventevogel P, Polutan-Teulieres N and Chemaly WS (2020) *MHPSS and protection outcomes: Why joint action to improve mental health and psychosocial wellbeing of people affected by conflict, violence and disasters should be a priority for all protection actors*, Policy Discussion Paper, Global Protection Cluster and IASC Reference Group for Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings
(مخرجات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة والحماية: لم ينبغي أن يُبدِيَ الفاعلون الحمائيُّون العمل المشترك لتحسين حال الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند المتضرِّرين بالنِّزاع والعنف والكوارث؟)
bit.ly/MHPSS-protection-outcomes-2020

دَعْمُ الصحَّةِ العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة في حَضَرِ مصر

نَنْسي بارون

يجب على المنظمات في سياقات الحَضَر المعقدَّة أن تُعيدَ وضعَ النَّماذج المعمول بهَدْيها في تدخُّل دَعْمِ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، والقَصدُ أن تُجعَل الخدمات لأضعف فَئات الناس سهلة المتناول مُحدَّدةَ السِّياق. فلا يمكن أن يُجتَزأ بنقل التدخُّل المُعَدِّ للمخيمات إلى سياقِ الحَضَر.

يُجاهِدُ اللاجئون في مصر، كحالِ اللاجئين في جميع العالم، في سبيل العيشَة الكريمة. فيقدم طالبو اللُّجوء إلى مصر آملين أن تكون إقامتهم فيها مُوَقّتة، فتعتني بشأنهم مفوضيَّة اللاجئين، ثمَّ تُعيدُ توطينهم في دولة من الغرب. على أنَّ حبل هذا الأمل يَقصُر بسرعة؛ إذ إنّ موارد مفوضيَّة اللاجئين وشركائها قليلة ولا تستطيع أن تعين في المال إلا نسبة قليلة من المستضعفين. هذا ونسبة من المعاد توطينهم في السنة أقل من ٥٪.

ويركز معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة هَمَّهُ في إعانة الناس على أن يبلغوا اعتمادهم على أنفسهم لا أن يغتمُّوا بقلّة موارد النظام. ويقصد معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة إلى أضعف فئات المتسجِّلين في مفوضيَّة اللاجئين، ومنهم المُشرَّدون والجياع والمرضى والمُستطيعون بغيرهم، والمُعانُون العنف الجنساني أو المجتمعي أو الأسري، والمغلوبون في أمرهم بالضَّيق والقنوط والتجارب الرَّاضحة، والمهمَّشون والمنبوذون، والذين فيهم مرضٌ مزمن، والمعوَّقون، وذوو الصحَّة العقلية الضعيفة[1].

ويعين العاملون في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة الناسَ على حلّ مشكلاتهم، وهم مع ذلك يعينونهم على الاهتداء في ما يشعرون به من الاستحقاق والاعتماد وخيبة الأمل والغضب. وأيضاً فالمعهد يهتمّ ببناء قدرة الأَسَر على اعتمادها على نفسها، مثال ذلك أنّ الأنشطة غير مُعدَّة للأطفال فقط، بل هي إلى ذلك معدَّةٌ لتعزيز قدرة الأسر على معونة أطفالها. فإن لم يكن مع الأطفال أُسَر أو لم تستطع الأسر إعانتهم، يهيِّئ المعهد المجتمعات المحليّة لتصير مسؤولةً عن معونة مستضعفيها.

«من المجتمع المحليّ»

كثيراً ما تؤلِّف جماعات المهاجرين في سياقات الحضر مجتمعات محليّة وطنية وقبلية ودينية، لها مراكز وأعمال منتظمة وأعضاء مُعيَّنون في مناصبهم وقيادة مُنتَخَبَة. وفرق معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة هي «من المجتمع المحلي»؛ لذلك تستطيع بلوغها. فأكثر من ١٦٠ عاملاً من ١٨٠ عاملاً في المعهد هم لاجئون أو طالبو لجوء أو مهاجرون من أكثر الجنسيات وجوداً في مصر: إريتريا وإثيوبيا والصومال وجنوب السودان والسودان والعراق وسورية واليمن. فهؤلاء العمال يعيشون في مجتمعاتهم المحليّة ولهم سَبْق إدراك قضاياها، ويمكن أن يأخذوا في تدخُّلات عملية على حسب الثقافة والسياق واللُّغات التي يتكلم بها الناسُ في مجتمعاتهم المحليّة.

على أنّ معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة لا يحل محلّ قادة المجتمع المحليّ وإنما عمله يضاف إلى عملهم. فالمعهد يحترم سلطة القادة المنتخبين وتأثيرهم المألوف في حلّ المشكلات. ومع ذلك، فإن العاملين في المعهد مُدرَّبونَ على إدارة طائفة من مسائلَ تقع في الغالب خارجَ خبرة قادة المجتمع المحليّ. وملّاً مرّ زمنٌ على عمل العاملين في المعهد وقادة المجتمع المحليّ معاً، توسَّع فَهْمُ قادة المجتمع وصار لهم مهارات جديدة، في إدارة الأمراض العقلية ومخاطر الانتحار وتعاطي المخدرات وما يحتاج إليهِ في حماية الطفل وحماية المرأة. فالقادة يعيِّنون المحتاجين ويمكنهم إعانتهم إعانةً يُعتدُّ بها، أو يحيلونهم الحالات إلى معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة وإلى مُوصِلي الخدمات الآخرين.

هذا ويُنتَقَى العاملون في المعهد بمعاونة مجتمعاتهم الحَضَرية. وكان كثير منهم قادةً في مجتمعاتهم المحليّة قبل انضمامهم إلى معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة. هم فرقة من اللاجئين تعمل بأجرٍ، دُرِّبوا على دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ليس لهم مكاتب، ويعينون بزيارة المنازل والمجتمعات المحليّة، فيقاربون المسألة بطريقة «مكتبك حقيبة على ظهرك».

ولهؤلاء العاملين شيءٌ قليل من التدريب والخبرة في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة قبل دخوله. فمنهم قبل تعيينهم معلّمون وعاملون في ميدان تقانة المعلومات ومحامون ومتخصصون بالزِّراعة وأمهات مدبّرات منازلهنّ وعمّال نظافة. وهم يُختَارُون بشخصياتهم ودوافعهم ورِفْقهم وخبرتهم في إعانة مجتمعاتهم المحليّة، لا بدرجاتهم العلمية. ثمّ يُعلَّمون أساسَ معارف الدعم النفسانيّ الاجتماعيّ ومهاراته العملية، ويعانون على

توسيع مداركهم لتمكينهم من إعانة كلّ شخص محتاج بلا تمييز. يتعلّمون الأخلاقيات المهنية وتطبيق حقوق الإنسان الأساسية حتى يستطيعوا أن يعينوا بإنصاف النساءَ والأطفالَ والمعوّقين من ذوي الاحتياج، ومنهم ذوو الاختلاف في الجنسانيّة أو الهوية الجنسية.

ثمَّ إنَّ العاملين في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة، من حيث هم لاجئون، لم يكن لهم من الفرص في مصر إلا القليل، لذلك يَشكُرُ أكثرهم عملَهُ الذي لا يأتي لهم بدَخْلٍ فحسب، بل يعين إلى ذلك المحتاجين ويُكسِبُهم احترامَ أهل مجتمعاتهم المحليّة لهم. ومع ذلك، يمكن أن يجيء العمل في المعهد صعباً ومُستنزفاً للعاطفة. وصحيح أنّ أنموذجَ كَوْنِ العاملين «من المجتمع المحلي» مفيدٌ ولكنّه ينشئ المتحدِّيات. فيجب على العاملين في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة أن يختاروا أحياناً بين وجوه الولاء المجتمعية التنافسيّة والأخلاقيات المهنية. وللعاملين إشراف إفراديّ، واجتماعات للفرقة تُعقَد كلّ أسبوع، وجلسات جماعية داعمة تعقد كلّ شهر، يخبّرون فيها بما يعترضهم من المتحدِّات الشخصية والمهنية. ولضمان تمام الصراحة والوضوح، فُتِحَ سبيل للمجتمعات المحليّة أيضاً أن يشكوا العاملين والخدمات، وذلك بخطوطٍ هاتفية للمعونة واجتماعاتٍ مجتمعية.

هؤلاء عاملون جدد في معهد الخدمات النفسانيّة الاجتماعيّة والتّدريب عليها في القاهرة، وهم يُدرَّبون في أثناء جائحة الحُمّة التاجية (كوفيد ١٩) في القاهرة.

ومشكلات الناس لا تقف خارج ساعات العمل المألوفة، فيجب إيصال الخدمات متى ما احتيج إليها وأينما احتيج إليها. وهذا يقتضي تعاون العاملين وقبولهم أن الاستجابة في كلّ ساعة من ساعات الأسبوع ضرورة. فالاهتمام الشديد برعاية الموظّفين في هذا الأنموذج أمرٌ بالغ في الأهمية. وأهمّ من ذلك أنهم يجب يشعروا بالأمان إذا اضطروا إلى الاستجابة ليلاً. ففي معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة، لا يستجيب العامل لحالة طارئة على حدته، ويُدعَمُ العاملون عاطفيّاً في أثناء استجابتهم وبعد انقضائها، مع الثناء على ما يحسنون فيه من العمل.

على أنّ داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) قيّدَ العمل الميداني مُوقّتاً لعاملي المعهد، وأرغمهم على قَصْرِ طُرُقِ الإعانة على الهاتف، وعلى أن لا يستجيبوا إلا للطوارئ التي تهدِّد حياة الشخص بالزوال. وفي ذروة الجائحة، كثيراً ما اتصل العاملون في المعهد بالناس كلّ يوم، مدركين قَدْرَ إجهادهم بسبب فقدان السيطرة في قدرتهم علىً الاعتماد على النفس، والحَيْرة مما يحدث، والحجر في المنزل، وفقدان العمل والدَّخْل. وتمكن مذاك العاملون في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة من العودة إلى الميدان، متّخذين الاحتياطات لجعل العدوى أقلّ ما تكون. فيضع العاملون كمامات، ويعلون على أن يكون من يزورونه واضعاً الكمامة في أثناء الجلسات المنزلية. وأما المنازل المكتظّة بالأسر المعيشية، فلإعانتها يُقدّم العاملون اليومَ بعض الدعم في مراكز اللاجئين المجتمعية.

مقاربة «المركز الجامع لكل الخدمات»

ولقضاء حاجات أكثر الفئات ضعفاً، تعلّمَ معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة أنه يجب أن يكون له تدخُّل في جميع الطبقات الأربع لهرم التدخُّلات في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات، وذلك في حالات الطوارئ. (انظر تحت).[٢] لذلك يجمع المعهد بعناية بين إيصال طبقاتٍ من التدخُّل إلى خطط عمل إفرادية وإلى الخدمات المُتمِّمة التي توصلها الحكومة وكيانات أخرى.

ويعد الدَّعم الاجتماعيّ بمعونة الأسرة أو الأصدقاء أو المجتمع المحلي ضرورةً، فهو ركْـن لكلّ خطة عمل إفـرادية. ويساعد العاملون في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة الناسَ على إيجاد نظام دعم آمن وعلى تعزيز القدرة والمسؤولية عن نظام الدعم هذا الَذي يَجدونه. وفي المعهد لا يُردّ طلب لمُستعين. فالعاملون في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة، يعينون ويحيلون، وإذا امتنعت

الخدمة، فهم يستمعون ويرفقون. ولمّا كان العاملون يدركون أنَّ من أكثر المستضعفين مَن لا يعرف كيف يطلب المعونة، قبضوا على زمام المبادرة فاتّصلوا بالمحتاج أو طرقوا بابه لإعانته، وذلك حين يُخبَّرون بالمشكلة.

مثال ذلك: أن امرأةً حاولت الانتحار. فهتفت مُساكنتها إلى لاجئة عاملة في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة، فذهبت إلى منزلها وقدَّرت الحالَ من فورها. فبكت المرأة وقالت إنها لا تريد الموت ولكنها تشعر بالوَحْشَة والخوف، إذ فقدت وظيفتها بسبب داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) وأنْ ليس في وسعها دفع ثمن إيجارها. فجلس إليها العاملة المعهد مع مُساكنَتها ووضعت خطةً لدَعْمها وحمايتها. هذا وطبيبٌ نفسانيٌ يشاور العامِلة في المعهد بالهاتف ويقدّر حال المرأة. فاتّفقا جميعاً على أنها آمنةٌ في المنزل مع حماية مُساكنَتها لها، وضربا لها موعداً لزيارة عيادة الطب النفسيّ في اليوم الثاني. وأعان معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة على تخفيف ضائقتها المستدعية الاستجابة الفورية، بأن أوصل إليها قسائمَ طعامٍ مؤقتة، ودَفَعَ ثمن إيجارها حتى تجد لها وظيفةً جديدة.

فأمّا التدخُّلات في الطبقة الأولى من الهرم فهي الإعانة على تخفيف الضائقة. ولذلك يُعلَن واسعاً عن خطوط هاتفية للمعونة عند معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة، وهذه الخطوط مفتوحة في كلّ ساعات الأسبوع.

ويقدِّم موظفو خطِّ الهاتف الإعانيّ المعلومات والإحالة، ويعدُّون العاملين ليذهبوا من فورهم إلى منزل المحتاج.

ويكثر أن تكون المعلومات التي لا تُدقَّق سبباً للضائقة. لذلك تُخبِّرُ فرقة نشر المعلومات بمعلومات مُدقَّقة في السياقات المجتمعية غير الرسمية. ولإدارة الضائقة التي وقعت بسبب الجائحة زادَ معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة نشرَ المعلومات من طريق صفحة في (فيسبوك) مختصّة بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، تنشر المعلوماتِ بستِّ لغات.[٣]

ثمَّ هناك فرقة مبادرة الإسكان، تستجيب للطوارئ لتجد مسكناً آمناً رخيص الكلفة، وتتوسط في النزاع بين المؤجر والمستأجر، وتعلِّم تدبير المال. ويضاف إلى تلك، فرقة طبية للمناصرة الصحيّة، وهذه تعين اللاجئين على بلوغ الرعاية الطبية في حالات الطوارئ، وفيها أيضاً ممرِّضين وممرِّضات للرعاية الصحية المنزلية لمن لا يستطيع أن يبرح فراشه.

وأما التدخُّلات في الطبقة الثانية والثالثة والرابعة من دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ففيها فرقة نفسانيَّة اجتماعيَّة مؤلَّفة من لاجئين مدرَّبين، يقدِّرون الحاجات ويُعدُّون الخطط للحالات الإفرادية، ويُشيرُون ويتوسَّطون في النزاع، ويعينون على الإدماج المجتمعي، ويُناصرون ويرافقون ويحيلون. وتقدِّم الفرقة إدارةً مكثفة لحماية الطفل والأسرة، وترسل متوسِّطين في حالات عنف العصابات، وتقيم ورشات في المدارس للصبيان لتنشر الأعمال لا عنف فيها، وتؤلِّف مجموعات للَّعب مختصّة بالأطفال المعوَّقين من ذوي الاحتياج وأسرهم. وتعمل هذه الفرقة أيضاً على التخفيف من الوَصْم في المجتمع المحليّ، وعلى تسهيل الاندماج المجتمعي، وتستنجح -بالزيارة المنزلية- التزامَ علاج الصحَّة العقليَّة. ثمَّ هناك فرقة استشاريّة من مستشارين لاجئين متعدِّدي اللغات، تسدي مشورةً قصيرة الأمد موجَّهةً نحو الغرض، للأفراد والأزواج والأسر، وهناك أيضاً فرقة الصحَّة العقليَّة المؤلّفة من أطباء نفسانيِّين مصريين، تعمل مع اللاجئين العاملين في الشؤون النفسانيَّة الاجتماعيَّة على المعالجة النفسانيّة والطبِّ النفسانيّ للأشخاص المصابين باضطراب نفسانيٍّ شديد، وذلك في عيادات لمعهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة.

إنَّ في الحَضَر كثيراً من المصاعب تعترض إيصالَ خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إلى السكّان المهجَّرين. فيجب في مثل هذه السياقات أن تكون تدخُّلات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مفتوحةَ السبيل لأضعف الفئات، معدَّةً لتراعي كلَّ سياقٍ على حدته. وقد كسب أنموذج معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة؛ أي الأنموذج الحَضَريِ المجتمعي العامل في كلِّ ساعة من ساعات الأسبوع، كسب اهتماماً دوليّاً وإقراراً، فاستقبل معهد التدريب الدولي التابع له، الذي اسمه معهد الحياة الحضريّة (Urban Life)[٤]، مُتدرِّبين من ١٥ بلداً، جاؤوا ليأخذوا في التدريب الميداني. ويمكن لسُنَن العمل التي سنَّها معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة للتصدِّي للمتحدِّيات الحضرية في القاهرة يمكن أن تقدِّم بين يديها دروساً لمن يعمل في المراكز الحَضَرية وأمكنة أخرى.

نَنْسي بارون *drnancybaron@pstic-egypt.org*
مديرةٌ، في معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة (وهو برنامجٌ من منظمة أرض النَّاس «Terre des hommes»)

١. يُعينُ معهد الخدمات النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتَّدريب عليها في القاهرة كلَّ شهرٍ نحواً من ألفي حالة (فيها ٨ آلاف فرد). http://pstic-egypt.org

٢. IASC (2007) *Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings: Guideline*, pp11–13 (دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في أحوال الطوارئ: مبدأ توجيهي) bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
اقرأه باللغة العربية: bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar

٣. www.facebook.com/RefugeesTogether/

٤. www.urbanlifemhpss.com

التحيُّز الثقافيّ ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة

جُوَان ميشيل فِرْنَنْدز أُكَمْبو ومحمود نور عوده ومَيْك وِسِلْز

يمكن أن يقلِّل التحيز الثقافي فعَّالية البرنامج ويحتمل أن يحصل بسببه ضرر جسيم بالمجتمعات المستضعفة أصلاً.

تعتمد فعَّالية برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في تخفيف أعباء الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة على عدَّة من العوامل، منها الصلة الاجتماعية الثقافية بالسكَّان المحليِّين.[١] والتحيز الثقافي –الذي يعني التَّفسير أو الحكم أو التصرف بناءً على المعايير الثقافية للفرد– يمكن أن يكون له أثر سوء في الصِّلة الاجتماعية الثقافية، ويمكن أن يؤثر في جميع مراحل إعداد البرامج لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ومنها التَّصميم والتنفيذ والتقويم.

وقد كان إيصال خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة للمتضرِّرين بالنِّزاع السوري محفوفاً بالمُتحدِّيات الثقافية، ومنها التطبيق المتعدد الثقافات لأدوات تَحرِّي الرَّضْح (الصدمة النفسانيَّة) من دون تحقُّق محليّ.[٢] إذ رأى مُوصِلُو خدمات الصحَّة العقليَّة في لبنان ثقافات اللاجئين «عقبة» تعترض كَشْفَ وجوه الاضطراب النفسانيّ الكامنة. وأيضاً فقد عَدَّ مزاولو خدمات الصحَّة العقليَّة أن إستراتيجيات اللاجئين للتكيُّف بالمُحيط التمييزي سلوكٌ مُخادِع وفيه لعب بالمشاعر، وقد أثَّر ذلك في القدرة على بناء الثقة بين مَزاولي خدمات الصحَّة العقليَّة واللاجئين.[٣]

على أنَّ التحيز الثقافي في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ليس بجديد. ففي أثناء الحرب في أنغولا، كادت عدّة من المنظمات غير الحكومية الغربية تحصر رَكْزَ همّها في واضْطِراب الكَرْب التَّالي للرَّضْح. وفي أثناء عمل ميدانيّ لأحد المؤلِّفين في منتصف تسعينيات القرن العشرين، ذكر الجنود الأطفال أن المتحدِّيَ الرَّئيس الذي يعترضهم هو التلوُّث الروحاني بسبب الأنفس التي قتلوها ولم يُنتَقَم لها. ومع أنَّ المعالجين التقليديين كان لهم طقوسهم التطهيريَّة لهذه المشكلة المُحدَّدة، لم يعمل علماء النفس والمنظمات غير الحكومية معهم لمعالجة هذه الضائقة الروحانيَّة، ولم يضعوا طرق مقاربتهم في سياق هذا الاهتمام المحلي، فقُيِّدَ من ثمَّ نَجاحُ برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وفي آخر المطاف، أُدخِلَت هذه الطقوس في برنامج إعادة الإدماج، فزاد كثيراً قَبُول المجتمع المحليّ للأطفال الذين كانوا جُنْداً من قبل.

فرص ضائعة وآثار ضارَّة

صحيحٌ أنه قد يكون أكثر مناسبةً أنْ تُنفَّذ طُرُق مقاربة عالمية لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، لكن في هذا احتمال خطر أنْ تُقيِّد فعَّالية عمل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بإهمال العناصر السياقية الأساسية عند معالجة المشكلات التي هي في الأولوية القصوى عند المُتضرِّرين. ونتيجة لذلك، قد تفقد برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة فرصاً مهمَّة لدعم صحّة المجتمعات المحليَّة وحُسْن حالها. ففي الفلبِّين، وهي إحدى أكثر البلدان عُرضةً للكوارث في العالم، كثيراً ما تكون الاستجابات الإنسانية لحاجات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مركزة تركيزاً ضيّقاً، مع قلّة الاهتمام أو انتفائه بالتعابير الاصطلاحيّة الفلبينية عن الضائقة أو عمّا يُتّبعُ من سُنَن عمل محليَّة وأصليَّة التي يمكن أن تكون مُتمِّمةً للدعم الخارجي.

ويمكن أن يؤدي التغاضي عن الحاجة إلى تأطير دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في السياقات المحلية إلى فهم غير كاف لحاجات الصحَّة العقليَّة، ولضروب الصُّمود بين الأفراد وأفراد الأسرة والمجتمع المحليّ. وأيضاً فقد تُشعر طرق المقاربة الخارجية السكانَ المحليين بالنفور، وهذا يؤدِّي إلى انخفاض درجات القَبُول والاستيعاب وجوه دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وخدماته.

وأكثر من ذلك إثارةً للقلق أن التدخُّل غير الملائم ثقافياً يمكن أن يضرّ بالناس من غير قصد. فالثقافة هي السمة المميزة للهوية الإنسانية التي تُشعِرُ بالمعنى وهي التي تُرسينا في أرض هذا العالم. وحين يفرض الغرباء التحيُّز الثقافية، قد يشعر الناس بفقدان كرامتهم وهويتهم أو تهميشهما، وهذا إنما يعبّر عن نمط استعماريٍّ ضارٍّ يعامل السكان المحليين وثقافاتهم معاملة من هم أدنى منزلة.

ومن المهم أن نُقرَّ بأنَّ النتائج السيِّئة للتحيز الثقافي ليست عن عَمْد بالضرورة. فلا بدَّ من أن يأتي الفاعلون الإنسانيون بوجوه التحيز الثقافي في المحادثات الفردية التي تدور بينهم وبين أفراد المجتمع المحلي، وفي اجتماعاتهم مع المنظمات الشعبية، وفي مؤتمراتهم مع المنظمات الدولية. وربّما تفاقم هذا الأمر بسبب القوة النسبية التي يحتفظ بها (ويُهمِلُها) العاملون في ميدان المعونة الإنسانية في بعض الأحيان. وإذ قد كانت عند المتضررين بالنِّزاع قليلٌ من القوة وخوفٌ من عجزٍ عن البقاء في قَيْد الحياة،

فقد يُغيِّرون معتقداتهم أو يعيدون صَوْغ هُويَّتهم بطرق قد تكون ضارةً، لا لشيء إلا لتليق بالعدسة الثقافية التي تنظر منها منظمة من المنظَّمات الإنسانية.

وفي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، يحصل التحيز الثقافي في الأكثر بفَرض فئات تصنيفيّة عالمية مفترضة، وبالبحوث وضروب المعالجة المعيارية (المأخوذة من الغرب) التي تظر بما يكفي في الثقافات والسياقات الأخرى. وكثيراً يُجرَى هذا الدعم باسم الممارسة المبنيَّة على الأدلة، وتفترض طريقة المقاربة هذه أنَّ حاجات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، مثل الاكتئاب اضطراب الكَرْب التّالي للرَّضْح، تشترك في التفسير والأصول والأعراض والتأثيرات في جميع الثقافات، وأنه يمكن علاجها بالتدخُّل نفسه. وفي هذا الافتراض نظر، وكذلك في الافتراض الذي يوازيه، الذي يكون ضمنيّاً في الأغلب، القائل بأن ما هو ثقافيٌّ من الأمراض ووجوه الكَرْب لا يستدعي اهتماماً كثيراً. وطريقة المقاربة السائدة هذه التي هي «طريقةٌ واحدةٌ تُناسِبُ الجميعَ» إنما هي مُعمَّمة تعميماً غير مناسب للسكان في مجال المعونة الإنسانية.

معالجة التحيُّز الثقافي

قد يكون اهتمامنا منهجيّاً بمعتقداتنا وسُنَنا الثقافية وسُنَنُ الآخرين وإدراكنا ذلك أمراً مُهمّاً في تفعيل مبدأ الامتناع عن الإضرار. ويُعين وَضْعُ تدخُّلات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة موضعاً أشملَ على إقرار كرامة الناس وهويتهم ودعمها في أوقات الحاجة الماسَّة. ومع أنّه لا حلَّ سريعاً لتقليل التحيز الثقافي في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، هناك بعض الإستراتيجيات المفيدة لذلك.

أمَّا المنظَّمة: فابني أولاً دليلاً على تأثير التحيز الثقافي في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وقدِّري كيف أثَّر التحيز الثقافي في تنفيذ ما انقضى وما هو جارٍ من برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في السكان المقصودين. واستفيدي من مصادر المعرفة المختلفة، ومنها استبانات تقدير العاملين في ميدان الصحة العقليَّة، وفرَق التركيز مع المشاركين في البرنامج، والفرَق المشورة المجتمعية. وقدِّري ثانياً وابني باستمرار التواضعَ الثقافي والمهارات ذات الصلة بذلك للعاملين في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وضعي في الأولوية أهميةَ معالجة التحيز الثقافي –في أثناء التوظيف وفي خلال نشر العاملين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة– ولعلَّك تعقدين جلسات التفكُّر في هذا الموضوع عند تقويم البرامجَ، وأشركي في ذلك العمال الدوليين والوطنيين، وكوني على دراية بالفروق ووجوه التفاوت في السلطة المحلية.

وأمَّا البرنامج: فمكِّنْ لعمل مُكرَّر للتكيُّف الثقافي في المُستمرِّ من برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وادعم الملكية المحلية لوجوه التدخُّل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وذلك في جميع مراحل البرنامج، وادعم إشراك المعالجين المحليين والمنظمات الشعبية والعاملين المحليين في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

وأمَّا العاملون في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: فاطلبوا اكتساب القدرة على التأمُّل في المشكلات الناجمة عن انتفاء الاحترام الثقافي وعن التَّهميش. ولا يغيبنَّ عنكم كيفية تحسين برامجكم تحسيناً منهجيّاً، وذلك بالاشتمال على الأبعاد الثقافية التي لا تضرّ والتي قد تُسهم في حُسْن الحال والصُّمود، وإنْ لم تتناسب هي والخطط السائدة في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وبالجملة فاعملوا بتواضع ثقافيٍّ. ولا يغيبنَّ عن تفكيركم أن تقدروا حق القدر المعارف والموارد والفهم الذي لدى الناس في ثقافتهم الخاصّة، والسياق الراهن، والمشكلات التي تعترضهم، وتأمَّلوا في حدود معارف الغرباء.

أسئلةٌ حَرِجة

مع التقدير العميق للاختلافات الثقافية، ينبغي أن ننظر كيف نُحقِّق توازناً أكثر فعَّالية بين وجهات النظر الثقافية المحلية وبين طرق المقاربة الخارجية أو العالمية في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة؟ وأيضاً فمن المحتمل أن يعتمد سعينا إلى إقامة توازن على موارد متاحة، وتفويض من هيئة، ومناخ سياسي، وجملة من اعتبارات أُخَر. ومع ذلك، يمكن أن تكون وجوه التَّعقيد هذه بمنزلة مُنطَلَق مفيدٍ لاستمرار التأمُّل والتعلُّم والتكيُّف.

وسؤال مهم آخر لمزاولي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: كيف تتجنَّبون التسبُّب في ضرر غير مقصود؟ من المفيد أن نفترض أن لكلِّ ثقافة مزيج من الجوانب الحَسَنة والسيِّئة، إذ تُعزِّز أو تُقوِّض صحَّة النَّاس وحُسْنَ حالهم. وسيُعين هذا الفهم العاملينَ في ميدان المعونة الإنسانية على تجنُّب دعم سُنَن العمل المُضِرَّة، وعلى أن يأخذوا بموارد وسُنَن ثقافية حَسَنة ويُقوُّوها. ومُمَاثِلُ ذلك أنّه ينبغي أن يحذروا من الأعمال الثقافية الصُّورية، بأن يكونوا على سبيل المثال حساسين لمسائل اللغة والترجمة مع تفضيل طرق المقاربة الغربية، وأن يُقلِّلوا التعابير الاصطلاحية الثقافية عن الضائقة ويستعملون ما في الفئات الغربية من غير مُسوِّغ كاف.

وسؤالٌ ثالث ينبغي مراعاته: كيف تُؤثِّر بنيات القوة المحلية في المناقشات الدائرة حول معرفة طرق المقاربة المحلية ذات القيمة، وحتَّى المناسبة من حيث الثقافة؟ فقد يؤدي الانخراط على العمياء مع المحاورين الثقافيين بلا تقدير لحركيَّات (ديناميَّات) القوة المحلية إلى إظهار صورة منحرفة عن المُعتقدَات والسُّنَن المحلية. وأهم من ذلك أن يُستبقَى في الذهن أنَّ الفاعلين في المعونة الإنسانية الدولية قد يتفاعلون بطريقة تُؤثِّر بنفسها في حركيَّات القوة المحلية والتأثير أو تعكسها أو تصوغها. ثم إنّه من الضروري للعاملين الخارجيين في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وهيئاتهم أن يحاولوا فَهْمَ الفروق الدقيقة في بنيات القوة المحلية وأن يتعلّموا من الناس، ومنهم الذين يعيشون في هامش المجتمع، والذين يندر أن يكون لهم صوت أو تأثير في القرارات أو الأعمال الرَّئيسَة. ويمكن أن يُؤدِّي الفعْل الذي يدعم الاستعمال التمييزي المحلي للقوة إلى زيادة الحَاجة إلى دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

إنَّ معالجة التحيز الثقافي لها آثار قويّة في كرامة الناس وهويتهم وحُسْن حالهم، وتُؤثِّر في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، جودةً وتنفيذاً، في الأمكنة التي تقضي المعونة الإنسانيّة. وفي زمن توجد فيه ضغوط لإنهاء الاستعمار وتوجد معها أيضاً ضغوط قوية من الجهات المانحة والمُؤسَّسات تَحثُّ على الامتثال لطرق مقاربة معيارية (غربية)، ما تزال هناك حاجة شديدة إلى أن يُحسَّن إدماجُ برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ووَضعُها في سياق طُرُق المقاربة الثقافية المحلية بحيث تُحقِّق نتائج أفضل وتُعزِّز التزامنا الجماعي بالعمل لحُسْن حال الإنسان والمحاسبة الإنسانية.

جُوَان ميشيل فرْنَنْدز أُكَمْبو
joannemichelle.ocampo@columbia.edu
طالبةٌ لدرجة الدكتوراه، في قسم صحَّة السكَّان والأسرة، بجامعة كولُمبيا

محمود نور عوده
nour.audi@columbia.edu @Nour_Audi
طالبٌ لدرجة الدكتوراه، في قسم صحَّة السكَّان والأسرة، بجامعة كولُمبيا

مَيْك وسلْز *mgw2106@columbia.edu*
بروفيسَوْرٌ، في قسم صحَّة السكَّان والأسرة، بجامعة كولُمبيا

١. Mukdarut B, Chiumento A, Dickson K and Felix L (2017) *The Impact of Mental Health and Psychosocial Support Interventions on People Affected by Humanitarian Emergencies: A systematic review*
(التدخُّل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وأثره في المتضرِّرين بالطوارئ الإنسانية: مراجعة منهجية)
https://oxfamilibrary.openrepository.com/handle/10546/620214
٢. Gadeberg A K and Norredam M (2016) 'Urgent need for validated trauma and mental health screening tools for refugee children and youth', *European Child and Adolescent Psychiatry* 25(8)
(الحاجة الملحَّة إلى أدوات محقَّقة لتحرِّي الرَّضْح والصحَّة العقليَّة عند اللاجئين من أطفالٍ وشباب)
http://europepmc.org/article/MED/27043846
٣. Kerbage H et al (2020) 'Mental Health Services for Syrian Refugees in Lebanon: Perceptions and Experiences of Professionals and Refugees', *Qualitative Health Research* 30(6)
(خدمات الصحَّة العقليَّة للاجئين السوريِّين في لبنان: تصورات المتخصِّصين واللاجئين وتجاربهم)
https://doi.org/10.1177/1049732319895241

أهميَّة حُسْنِ حالِ المعلِّمين في الصحَّة العقلية عند الطلاب وفي النُّظُم التربوية التكيُّفيَّة

دَانِيل فُلْك وبول فريسُولي وإِمِلي ڤارني

للمعلِّمين شأنٌ عظيمٌ في إيصال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إلى طلابهم، وفي حفظ النظم التربوية التكيُّفية، فإن أريد أن يؤدِّي المعلِّمون ذلك كانَ دَعْمُ حُسْنِ حالهم ضرورة.

يقدِّم التعليم بين يديه مهارات في سياقات الهجرة القسرية والسياقات المتضرِّرة بالصِّراع مهارات منقذة للحياة ومفيدة في الاستدامة. فالمدارس الرسمية وغير الرسمية أمكنة مهمةٌ لإيصال خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إلى المتضرِّرين من الأطفال والشَّباب، والمعلمون بؤرةُ هذا العمل. على أنّ المعلِّمين في حالات الطوارئ والأزمات المزمنة وسياقات التعافي المبكر يتلقون أقلَّ شيءٍ من دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، هذا إن وُجِد، ولا يُزوَّدون بوسائل تنمية القدرة الأولية والمستمرة لتنشئة طلابهم في أمان. ولقد يكون السبب في ذلك أنَّ فكرة حُسْن حال المعلِّم ما تزال بعيدة، وأن التدخُّل الذي يدعم حُسْن حال المُعلِّم ما زال في حداثة أمره، وهذا أسهم في انتفاء الكفاية

في إيصال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إلى المعلِّمين.

وهناك الإطار المفاهيمي لمبادرة أبحاث المساواة في التَّعليم لحُسْن حال المُعلِّم في سياقات الموارد القليلة والأزمات والنزاعات[1] (ونشير إليه في هذه المقالة باسم الإطار المفاهيمي)، وهو بنيةٌ لتقدير ما عند المعلّمين من حاجات إلى دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ولوضع السياسات العامة والبرامج التي تقضي هذه الحاجات ولتقويم فعاليّة هذه السياسات والبرامج في تحسين حال المُعلِّم. والتوصيات التي المصاحبة للإطار المفاهيمي هي خطوات قابلة لأن ينفّذها راسمو السياسات والمزاولين في تعزيز حُسْن حال المعلِّم، وفي ضمان تحقيق تكيُّفيَّة النُّظم التربوية، بحيث يفاد من حاجات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة لكلٍّ من المُعلِّمين والطلاب.

هذا وحسن حال المعلِّم يختلف باختلاف السياق، ويشتمل على كيفية عملهم وما يشعرون به في وظائفهم. ولقياس حسن حال المعلِّمين أربعةُ مفاهيم تقوم على النتائج يجب مراعاتها: النُّجوع الذاتيّ (أي اعتقادهم أنهم قادرون على أن يأتوا للطلاب بالنتائج المرغوب فيها)، وضغط الوظيفة ونفاد الوسع، والرِّضا بالوظيفة، والأهليَّة الاجتماعية الانفعالية.[2] وفي إطارنا المفاهيمي هذا، نقارب المسألة بمنهج اجتماعيّ بيئيّ لتحديد أربعة مستويات من دعم حسن حال المعلِّم: الفَرد، والمدرسة، والمجتمع المحلّي، والصعيد الوطني والإقليمي والعالمي. وهذه المقاربة تناسب بخاصّة المعلِّمين الذين يعملون وحولَهم النزاع والتَّهجير، وذلك لما لهم من أدوار مختلفة في المدرسة وخارجَها. مثال ذلك: أنَّ المعلمين يكثر أن يكونوا أشباه عمّال اجتماعيين في شؤون الأطفال والشباب، أو أن يكونوا قادةً في مجتمعهم المحلّي؛ ذلك أنّهم معلّمون وشأنهم مُحترَم. ويُقرِّ الإطار الاجتماعيّ البيئيّ الواسع بما يتّصل بعضه ببعض من الأحياز والتفاعلات والعلاقات التي تُسهِم في حسن حال المعلِّم، ويقدِّم بين يديه الإرشاد في عدَّة من مواضع التدخُّل للمزاولين وراسمي السياسات حتّى يراعوا الغرض حين يضعون وينفّذون البرامج والسياسات المستدامة والمناسبة للسياق في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، فيدعمون بذلك حُسْنَ حالِ المعلِّم.

ودونك توصياتٌ تتوافق هي والنتائجُ التي يقوم عليها الإطار المفاهيمي، والمعاييرُ الدنيا عند الشبكة المشتركة بين الهيئات للتَّعليم في الطوارئ.[3]

الدَّعم الإفراديّ: تعرُّف سمات المُعلِّمين المتنوعة وتقديرها حقّ قدرهَا

العوامل التي ينبغي مراعاتها في خصائص المعلِّمين الإفرادية هي الجنسانية، وحالة التَّهجير، ودرجة التعليم، وآليات التصدِّي لصعوبة المعيشة، والحالة الوظيفية، والخبرة في التَّعليم، والدراية بمعارف المحتوى (content knowledge)، والكفاية الثقافية. فيمكن أن تُرشِد هذه العوامل تقديرَ الحاجات المُلحَّة لفهم سمات المعلِّمين والمجتمعات المحليّة التي يعملون فيها كذلك، وينبغي أيضًا أن تُزوِّد البرامج والسياسات بالمعلومات في التنمية المهنية للمعلِّم حتّى تراعي ما يكمن في المعلِّمين من المهارات ووجوه القوة. ويمكن بمقاربة المسألة بمنهج «البناء على الأصول» هذا أن تعين على ما يُعزِّزُ للمعلِّمين النُّجوع الذاتيّ والرِّضا بالوظيفة، ممّا يُسهِم في أن يعُمَّ الحُسْن حالهم. وأيضاً فهذه المقاربة لا يستغنى عنها حين يُدرَّب على تدخُّل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة الذي يوصله المعلِّمون إلى الطلاب، فنُجُوع مثل هذا التدخُّل وجَوْدته يعتمدان بعضَ الاعتماد في الأقلّ على حسن حال المعلِّمين. ويمكن أن يكون في التنمية المهنية للمعلِّم أدواتٌ مخصوصة بالبالغين، مثل تنبُّه الفؤاد وتدبير الكرب وإستراتيجيات رعاية النفس بالنفس، يأخذ فيها المعلِّمون ليدعموا أنفسهم، مع تكييف المقاربات لطلّابهم. فهذه المقاربة تفتح للمعلِّمين سبيلَ الإفادة من كفايتهم الاجتماعية الانفعالية لتخفيف كربهم، وسبيلَ نَمْذَجَة وجوهِ السلوك الاجتماعيّ الانفعاليّ الفعّالة وإستراتيجياتها للطلاب.

دعم المدرسة: الاستثمار في علاقات الأقران والأحياز الواقيَة

wتؤثر ثقافة المدرسة وأَمنها وموارِدها في حسن حال المعلمين وقدرتهم على إيصال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إلى الطلاب. والعوامل الأربعة في المدرسة التي ينبغي مراعاتها هي العلاقة بين المعلِّم والطالب، والعلاقات بين الأقران، وقيادة المدرسة، والموارد المدرسية. ويمكن أن يضع راسمو السياسات معايير وطنية للنسب المتساوية بين المعلِّمين والطلاب، والتوزيع العادل للصفوف بين المعلِّمين، وإعداد مواد تعليمية وتعلّمية مناسبة للمدارس. ويمكن أن يضمن راسمو السياسات والمزاولون الذين يعملون معاً تطبيقَ هذه المعايير، ولا سيما في سياقات الهجرة القسرية، فقد يكون فيها تدفُّقٌ للطلاب مع قلّة المعلِّمين ونقص البنية التحتية والموارد المدرسية.

وفي العوامل التي على مستوى المدرسة أيضا إرشادٌ لسياسات التنمية المهنية للمعلِّم وبرامجها، ولا سيما المختصّة بقادة المدارس الذين لهم شأن عظيم في تعزيز الثقافة الحَسَنة والتعاون بين الأقران في المدرسة. ويمكن أن يُعدَّ المزاولون التنمية

المهنية لمديري المدارس ومفتشي الوزارة والمشرفين بحيث يكون فيها إستراتيجيات ملموسة الأثر في إنشاء مدارس آمنة ومُنشِّئة، وفرص لإظهار القيادة الحسنة ودعم قادة المدارس لإنشاء أنظمة إدارة مدرسية تشاركية، تُظهر أصواتَ المعلِّمين في اتِّخاذ القرارات في المدرسة. وأما المديرون، فيمكن أن تركّز التنمية المهنية للمعلِّم على إستراتيجيات تنمية العلاقات بين الأقران وجماعات المزاولة بين المُعلِّمين. فتعاون المعلِّمين يُعينُ على تحسين النتائج التي تُسهِم في حسن الحال مع تخفيف الكرب ونفاد الوسع.

ويُعدُّ دَعمُ هذه النتائج، مع تخفيف الكرب ونفاد الوسع، أمراً بالغاً في الأهمية، ذلك على الخصوص من كثرة الشؤون الإضافية للمعلِّمين التي يؤثّرون بها في الطلاب في سياقات التَّهجير، مثلَ كونهم مستشارين وأشباهاً للعمّال الاجتماعيين. ويجب على المزاولين وراسمي السياسات تعرُّف هذه الشؤون المتعدِّدة والأخذ في مقاربات متكاملة في المدارس تُزوِّد المعلِّمين بالمعارف والمهارات، ليستطيعوا أن يعيِّنوا أمارات الضيق بين الطلاب ويستجيبوا لها. وأيضاً فيمكن أن يعمل المزاولون بين قطاع التربية وقطاع حماية الطفل، ليُقوُّوا آليات الإحالة ويتابعوا شؤون حماية الطفل ومُقلقات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في المدرسة والمجتمع المحلي. ويجب على راسمي السياسات والمزاولين أن يضمنوا أن قادة المدارس ومكاتب التعليم في المنطقة، مزوَّدون بأدوات التنمية المهنية، وذلك لإنشاء سُبُل الإحالة واستعمالها للمعلِّمين وغيرهم من موظفيّ سلك التعليم، وللأطفال الذين يقتضي أمرهم خدماتٍ مخصوصةً بهم.

دعم المجتمع المحليّ: تقوية إقامة المشاركات

السِّياقُ حاسمٌ في فهم ما لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة من حاجات وفي الاستجابة لها. وعلى مستوى المجتمع المحليّ ثلاثة عوامل – هي الوصول إلى الحاجات الأساسية، والاحـترام والتقدير، والمسؤولية والواجب– تُرشِد المزاولين وراسمي السياسات حتّى يفهموا سياق المجتمع المحليّ وما بين المعلِّمين وأهل المجتمع المحليّ من علاقات. ويمكن أن يُعين رسم خريطة المخاطر والموارد في المجتمع المحليّ المجتمعية على تحديد البنى الرسمية وغير الرسمية، والموارد، والأفراد الذين قد يكونون في منزلة الأصول أو العقبات في طريق دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ومن الأهمية بمكان أن تُدرَكَ قدرةُ المعلِّمين على قضاء حاجاتهم الأساسية من غذاء وماء ومأوىً ونقل وأمن. وفي السياقات المتضرِّرة بالنزاع، يُعدُّ تقديرُ مخاطر الأمن الجسمانيّ أمراً بالغاً في الأهمية؛ فالمعلِّمون والمدارس يكثر أن يجعلوا أهدافاً في الهجمات. ويمكن أن تزيد تهديدات العنف الواقعية والمتصورة من كربِ المعلِّمين ونفاد وسعهم، لذا يجب بذل الجهد لضمان وجود آليات ذات صلة بالسياق ومستجيبة للإبلاغ عمّا يهدِّد للمعلِّمين والطلاب بزوال حسن حالهم الجسمانيّة والاجتماعية والانفعالية.

هذا والعلاقات بين المعلِّمين وأهل المجتمع المحليّ، وبخاصة الذي يرعون طُلّابَهم، أمرٌ لا يستغنى عنه وينبغي النظر فيه. فبناء علاقات طيّبة مقاربةٌ للمسألة مهمّةٌ، وهي في الأكثر غير مستعملة الاستعمالَ الذي تستحقّ، فهي تقضي حاجات المعلِّمين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وذلك أنها تحسّن رضاهم بوظائفهم، وكفايتهم الاجتماعية والانفعالية، وتقلِّل ضغط العمل عليهم. ولتعزيز هذه العلاقات يمكن أن يشرع المزاولون في تدريب رابطات الآباء والمعلِّمين ولجان إدارة المدارس على حول أهميّة التَّعليم وشأن المعلِّمين، وحَشْد الأعضاء لدعم المهمات غير التعليمية في المدرسة.

الدَّعم الوطنيّ والإقليميّ والعالميّ: تَبديةُ حسنِ حالِ المعلِّم في السِّياسة العامة وسُنَن العمل

يمكن أن يُقوَّى إمكان تحسُّن حال المعلِّمين وزيادة الاحتفاظ بهم، وتعزيز التكافؤ بين الجنسين، وتعزيز الإدماج بين الفئات الممثلة تمثيلا ناقصاً في المهنة، وذلك بالتدخلات في خمسة عوامل موجَّهة نحو السياسة: تدبير المعلِّم، والحق في العمل، والتعويض، والتنمية المهنية للمعلِّم، والإشهاد.

وعلى المستوى الوطني، يمكن أن يُدخِلَ راسمو السياسات سياساتِ تدبير المعلِّمين في خطط قطاع التعليم ويجعلونها إجراءاتِ استعداد للاستجابة للأزمات والتَّهجير، مثال ذلك: نَشْر المعلِّمين سريعاً أو تعيين معلمين بالعُقُود في المناطق التي تشتدُّ فيها الحاجة. وينبغي أن تعزِّزَ هذه السياسات المساواة بين الجنسين وإدماج المعلِّمين المهجَّرين وغيرهم ممّن في المجتمعات المحليّة المُمثَّلة تمثيلاً ناقصاً.

وقد أدَّت جائحة داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) إلى توسيع شأن المعلِّمين الذي لا غنى عنه، وزادت الأخطارَ المحتملة التي تعترض قيامَهم بعملهم. وأدخلَ كثيرٌ من الحكومات الوطنية، ولا سيما التي تُضيِّفُ أعـداداً كثيراً من اللاجئين أو النازحين الداخليِّين أو كلّهم معاً، أدخل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في خططه الوطنيّة للاستجابة لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) (ومن هذه الحكومات أوغندا وكولُمبيا ونيجيريا). ومن أجل تفعيل هذه الخطط، يمكن أن يستعمل راسمو السياسات والمزاولون الإطارَ المفاهيمي لإرشاد المناقشات في السياسات العامّة، وتحديد مواضع التدخُّل لتعزيز حسن حال المعلِّم، وانتقاء عواملَ تقوم على الأدلّة لقياس تأثير التدخُّل.

صفوفيّة اللاجئين/الزيت هاري إنتوت

معلّمٌ في مدرسةٍ ابتدائية وهو في حصّة يلقي درساً، في مخيّم مَكْبَنْدُو للاجئين، بولاية غربيّ الإقليم الاستوائي، في جنوب السودان، وهناك أعان أهل الطلّاب على بناء صفوف جديدة حتى يخفّفوا الازدحامَ في المدرسة.

وإضافةً إلى خطط الاستجابة لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، يجب على راسمي السياسات أن يجعلوا ما في السياسات التربوية الدائمة من دَعمَ حسن حال المعلِّمين ودَعْـم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في قالبٍ مؤسّسيّ، وذلك بالتَّعاون في الميزانيات والتمويل بين وزارة التربيّة والتعليم ووزارة الصحَّة ووزارة الماليَّة. مثال ذلك: أن تتعاون هذه الوزارات التنفيذية على الميزانية والتمويل لمُعدَّات الصَّون الشخصية وإجراءات الحماية في المدارس، مع نفقات التدريب على تقويم دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، أو برمجة دعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في المدارس. وأيضاً فينبغي في سياقات الهجرة القسرية إشراك وزارة الداخلية لضمان حصول المعلِّمين من اللاجئين والنازحين الداخليِّين على الخدمات نفسها التي يحصل عليها غير النازحين من أقرانهم. وأما على المستوى الإقليمي، ولا سيما في المناطق المتضرِّرة بالهجرة القسرية، فيمكن أن يُقوِّيَ راسمو السياسات أو ينشئوا الأُطر الإقليمية لتعزيز إدماج المعلِّمين المهجَّرين والعائدين في نُظُم التربية الوطنية؛ فذلك يعين على أن يَصِلَ إلى المعلِّمينَ المهجَّرين التعويضات والمزايا والحقوق الأساسية ووجوه حماية الموظَّفين، فكلّها تسهم في حُسْنِ الحال. وأحد الأمثلة على السياسة الإقليمية التي تُبدِّي دَعْمَ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وتبدِّي حاجات حُسْن الحال المعلِّمين المهجَّرين والمجتمعات المُضيِّفة هو إعلان جيبوتي، الذي اعتمدته الهيئة الدولية المشتركة بين الحكومات المعنية بالتنمية في القرن الأفريقي.[٤]

وأما على المستوى العالمي، فيجب على المزاولين وراسمي السياسات والمانحين والباحثين أن يقدّموا مزيداً من الأدلَّة في حُسْن المعلِّم، في الأمكنة المتضرِّرة بالنزاع والهجرة القسرية، وأن يشحذوا مزيداً من الاهتمام والدَّعم للمعلِّمين في هذه السياقات. وينبغي أن يتعاون أصحابُ المصلحة في ميدان التربية التَّعليم في العالم والمعلِّمُون العاملون في هذه البيئات على صوغ أدلّة على سنن العمل الحسنة في دَعْم حُسْن حال المعلِّم وقضاء حاجاتِ المعلِّمين في دَعْم الصحَّة العقليَّةَ والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وأخيراً، يجب على أصحاب المصلحة في ميدان التربية والتعليم رَفْعُ أصوات المعلِّمين بإشراكهم في المنتديات المحليَّة والإقليميَّة والدوليَّة حيث يُتناقَشُ في حُسْن حال المعلِّم وفي سياسة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وبرمجتها.

الخاتمة

إنَّ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة للمتضرِّرين بالنزاع والهجرة القسرية من معلِّمين وأطفال وشباب هي مسؤوليةٌ

جماعية يدخل فيها أهلُ ميدان التربية والتعليم في العالم كلّه. فالمعلِّمون هم المتولُّون تحديدَ حاجات طلَّابهم في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة والاستجابة لتلك الحاجات، ولا نتصوَّرُ أنْ يفعل المعلِّمون ذلك وحدَهم. فتبديةُ حُسْن حال المعلِّم في التربية والتعليم من سياسات وسنن عملٍ وبحوث ضرورةٌ، هذا إن أردنا بناءَ نُظُم تربوية تُعزِّزُ للمعلِّمين والطلَّاب صحَّتهم الاجتماعيَّة الانفعاليَّة، وتَحفظُ المعلِّمين في المهنة، وتمكِّنهم أن يُعلِّموا كلَّ الأطفال والشباب في أمانٍ وإنصاف، مع دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

دَانيل فُلْك *dlf2136@tc.columbia.edu*
طالِبة لدرجة الدكتوراه، في كليَّة المعلِّمين
(Teachers College)

پول فريسُولي *paul.frisoli@lego.com*
متخصِّص رئيسٌ بالبرنامج، في مؤسسة ليغو
(The LEGO Foundation)

إميلي ڤارني *evarni@savechildren.org*
مُتَخَصِّصة بالتربية والتعليم في الطوارئ، في منظمة إنقاذ الطفل بالولايات المتحدة

١. Education Equity Research Initiative (2019) *Landscape Review: Teacher Well-being in Low Resource, Crisis, and Conflict-Affected Contexts* (the visual representation of the Teacher Well-being Conceptual Framework is on p10)
(مراجعة المشهد: حسن حال المعلِّم في سياقات الموارد القليلة والأزمات والنزاعات)
bit.ly/EERI-landscape-review-2019
٢. من شاء مزيد معلومات في هذا وجدَه في القسم الرابع (ص /١١) من (مراجعة المشهد): انظره في الهامش الذي فوق.
٣. www.ineesite.org/en/minimum-standards/translations
٤. bit.ly/Djibouti-declaration-2017

دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة المُراعِي للإيمان عند مزاولي المعونة الإنسانيَّة

لِيُونِي هَرْش وكُورِي ڤان درِڤن وأوليڤيَا وِلْكِنْسُن

الإيمان والروحانية جزء من هوية كثير من الناس وعيشهم كل يوم، ومراعاة الإيمان جزء لا ينفصل من إيصال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة إيصالاً شاملاً يركز على الناس في الأحوال المقتضية للمعونة الإنسانية.

يرتبط دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة الفعَّال في الاستجابة للطوارئ الإنسانية بآراء العالم ووجوه مزاولة الاستشفاء ولغة الناس الذين يقصد الدَّعْم إلى إعانتهم. والإيمان عامل في قدرة كثير من الأفراد والمجتمعات على التصدِّي لصعوبة المُتحدِّيات النفسانيَّة الاجتماعيَّة، مثال ذلك أنَّ عند كثير من الناس أنَّ دَفْن الأعزَّاء وفقاً لطقوس إيمانهم أمرٌ مهم حتى يدخلوا في الحِدَاد. وهذا هو السبب في أن المبادئ التوجيهية للجنة الدَائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ تَدعُو الفاعلين في المعونة الإنسانيَّة إلى الدخول في ما هو دينيٌّ وروحانيٌّ محليٌّ من موارد وجماعات وزعماء في برامجهم المنتظمة.١ وهذا هو السبب أيضاً في أن إدماجَ الزعماء الدينيِّين والسُّنن الدينيَّة المتَّبعة في إجراءات التشغيل الموحَّدة في أثناء الاستجابة لإيبولا بين سنة ٢٠١٤ وسنة ٢٠١٥ في غربيّ إفريقيا مثلاً كان فعَّالاً جدّاً.٢

ويُبتَدَأُ في إنشاء استجابة إنسانية تراعي الإيمان بالإقرار بأنَّ السُّنن والشعائر الدينية، كإقامة الصلاة، يمكن أن تكون عنصراً من عناصر دعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة الذي ينبغي تكملته بضروب أخرى من دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، لا أن يُستبدَل به غيره. ويمكن أن يعتمدَ مزاولو المعونة الإنسانيَّة طريقة مقاربة تراعي الإيمان من غير نظرٍ إلى ما بينهم أو بين منظمتهم وبين ذلك الإيمان من عطف أو انتفاء العطف. فمراعاة الإيمان هي مراعاة الناس الذين تُعينهُم.٣

وعلى الرغم من وجوه الالتزام السياسي الرئيسة٤ تتردَّد كثير من المنظمات الإنسانية والتنموية في تناول الجوانب المتعلقة بالإيمان تناولاً تحصل معه كفاية عند وضع برامجها أو في أن ترى الفاعلين المحليِّين الدينيِّين شركاءَ محتملين لتتعاون هي وهم في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ويميل المزاولون إلى تجنُّب التعامل مع الأسئلة

المتعلقة بالدين خيفةَ أن يتعارض ذلك والمبادئ الإنسانية في الحِيَاد وعدم التحيُّز. والحقّ أنَّ مراعاة الإيمان في الواقع ليست أمراً دائمَ اليُسْر تَطبيقُه. فكيف إذاً ينبغي أن نُقَارب الجمعَ بين الإيمان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند تخطيط وتنفيذ استجابات نفسانيَّة اجتماعيَّة تراعي الإيمان ولا تعارض المبادئ الإنسانية؟

مراعاة الإيمان في الواقع

ولإعانة مزاولي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة على التغلُّب على بعض العوائق ووجوه الرَدُّد، أُنشئت أداةُ تدريب بالشَّابكَة (الإنترنت) في الاستجابة الإنسانية المراعية للإيمان مع تركيز على دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، لبيان الفُرَص والمُتحدِّيات والخطوات العملية التي يلزم اتِّخاذها.٥ ثمَّ إنَّ التدريب -الذي أُطلق في حزيران/يونيو سنة ٢٠٢٠- هو نتاج تعاون بين حِلْف أكت (ACT Alliance)، ومُنظَّمة الإغاثة الإسلامية عبر العالم، ومبادرة التعلُّم المشتركة في الإيمان والمجتمعات المحلية، والاتحاد اللُّوثَري العالمي ومختبر التعلُّم التابع بمنظمة دانتشرك أيْد. ويستغرق إتمام التدريب كلِّه نحو ساعتين فقط.

فالأخذ بطريقة تراعي الإيمان في مقاربة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة يعني تعلُّم سُبُل فَهْم الحاجات والموارد الروحانية والدينية للناس، وفَهْم شأن المجتمعات الدينية، وذلك استجابةً للطوارئ الإنسانيَّة. ويدخُلُ في ذلك أيضاً التأمُّل فيما عندَك وعند منظَّمتك من مواقف ووجوه فهم وتحيُّز من الإيمان. ودونك خمسَ توصيات رئيسةً للمزاولين (وبخاصة مَن يعمل في المنظَّمات الدولية) الراغبين في جَعْل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أكثر مراعاةً للإيمان:

أدخلْ الإيمان في التَّقدير: فكِّر أن تُدخل معلومات عمَّا هو في الدين من معتقدات وشعائر وعن أعمال الجماعات الدينية ودور العبادة، ممَّا له صلة بالصحَّة العقليَّة وحُسْن الحال النفسانيَّة والاجتماعيَّة في المجتمع المحليّ المُتضرِّر. فكيف يرَوْنَ الأزمة، وكيف يُفسِّرون الضائقة، وبأيِّ مصطلحات يتحدثون عن التصدِّي لصعوبة المعيشة؟ وما التأثيرات الروحانيَّة في حُسْن أحوالهم؟ وما المفاهيم الدينية التي تفيدهم في الاستجابة للمُتحدِّيات التي تعترضهم؟ وتُبيِّنُ الموارد التي أنشأتها مفوضيَّة اللاجئين في السياق الاجتماعي والثقافي والمفاهيم وسُنَن العمل العلاجيّة المتعلقة بالصحَّة العقليَّة وحُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة لجماعات مُعيَّنة من اللاجئين- كيف يمكن توثيق مثل هذه المعلومات.٦ فأجرِ التقديرَ بطرق تشاركية تشتمل أيضاً على وجهات نظر المجتمعات الدينيَّة المحليَّة. وناقش ممثلي مختلف العادات الدينية في مسائل الصحَّة العقليَّة لفهم كيفية تأثير المفاهيم اللاهوتية في فَهْم الأفراد للمُتحدِّيات المتَّصلة بالأمر والتصدِّي لها.

صِل البرامجَ بإيمان الناس وشعائرهم حين تُعدُّ برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ابنها على معتقدات الناس وشعائرهم والطقوس والأنشطة المحليَّة التي تكون جزءاً من استراتيجيات فعَّالة للتصدِّي لصعوبة المعيشة الموجودة أصلاً في المجتمع المحليّ الذي تُعنَى به. ويمكن أن يشمل ذلك الصلاة وقراءة الكتب القدسية وشعائر الحداد، ومن ذلك أيضاً الأنشطة الجماعيَّة. ففي غزة، يستعمل مستشارو منظمة الإغاثة الإسلامية في فلسطين إشارات إلى عقيدة الأشخاص المشاركين في جلسات المجموعة النفسانيَّة الاجتماعيَّة فيجعلونها مداخلَ إلى الموضوع الذي يراد مناقشته، هذا إذا كان ذلك مناسباً على حسب علاقة المشاركين بالإيمان. مثال ذلك: أنهم أشاروا إلى التأثيرات المماثلة للتأمُّل وإقامة الصلاة عند تقديم مسألة التأمُّل أسلوباً لتدبر الكَرْب. فربط موضوع من المواضيع بأفكار مألوفة يجعله أكثر قرباً من الفهم.

تَعاوَنْ أنت والفاعلين الدينيِّين المحليِّين: حين تَدْخُل في العمل مع الفاعلين الدينيِّين المحليِّين، أدخِلْ قادةً من النساء والشباب (الذين يكثر أن يكون لهم أدوار غير رسميَّة)، وأسِّس المشاركات على الإسهام المفيد والتشارك في اتِّخاذ القرارات والتعلُّم المتبادل ومشاركة القدرات. ويمكن أن يقدِّم المتخصِّصون بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة تدريبَ القادة الدينيِّين المحليِّين على المبادئ النفسانيَّة الاجتماعيَّة الرَّئيسة، أو أن يناقشوا الحالات التي قد تكون فيها الاستشارة مفيدةً إضافةً إلى الدعم الروحاني، أو أن يقدِّموا للمُحالين معلومات عن دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ويمكن أن يؤدِّي إنشاء آليات إحالة ذات اتِّجاهين إلى تيسير الوصول إلى الرعاية الروحانيَّة والدينية، بمعونة الأئمَّة والقساوسة والمعالجين الدينيِّين أو التقليديِّين، هذا مع الوصول إلى الرعاية النفسانيَّة والاجتماعيَّة. مثال ذلك أنَّ جمعيَّة الصليب الأحمر الأمريكية تُدير برنامج رعاية روحانيَّة في الكوارث، وتتعاون في ذلك على وقادة دينيُّون محلِّيون مُدرَّبون على الإسعاف النفسانيّ الأوليّ.٧

عَالِجْ ما يحتمل ضرره من سُنَنَ العمل المرتبطة بالإيمان: يمكن أن تكون بعض المفاهيم اللاهوتية أساساً لتعامل غير فعَّال وغير مناسب أو أن تُستعمَل لجعل سُنَن عملٍ ضارةٍ شرعيَّةً.

ومن أمثلة على ذلك الحَبْس علاجاً لمرض عقليّ ساعةَ يُرَى من هذا المرض أنه مشكلة روحانيَّة لا مشكلةً صحيَّة، أو حينَ يُسَاءُ الربط بين الكوارث والذَّنْب أو الكارما. والاستجابة للآليات السيئة في التصدِّي لصعوبة المعيشة لا تعني فَصْلَ الإيمان من الصحَّة العقليَّة أو محاولة إقناع الناس بتَرْكِ إيمانهم. إنما ينبغي للفاعلين إشراك القادة والأشخاص المستضعفين من مختلف الأجناس والأعمار في تقدير أثر المعتقدات الدينية في الصحَّة العقليَّة، وإشراكهم أيضاً في تحدِّيد الأعمال التي يُحتَمَل ضررها. ثمَّ ينبغي للفاعلين أن يُعزِّزوا الحوار بين القادة الدينيين والمفكرين الدينيين المحليين المطلعين والمجتمع المحلي في الأعراف والتفسيرات الاجتماعية التي تستند إليها، وأن يتيحوا التدريب والموارد المناسبة لدعم إجراء الفِكْر والتغيير.

تَناوَل الإيمان بحيث تحترم المبادئ الإنسانيَّة: قد تُرَى مراعاة الإيمان أنَّها تُعارِض المبادئ الإنسانية في الحِيَاد وعدم التحيُّز، فالحِيَاد يحثُّ على عدم الانتماء إلى عقيدة ما لأن هذا الانتماء مرتبط بسياسات النِّزاع، وفي مبدأ عدم التحيُّز تُؤكِّد الحاجة إلى تجنُّب التحيُّز والتمييز والتبشير على أساس الانتماء الديني. ولكن لا يعني هذا في الحالَين الجهل بالإيمان وتجنّبه. فمع تأكيد الحاجة إلى الحِيَاد وعدم التحيُّز، يمكن دَعْم معتقدات وشعائر شخصٍ ما دَعْماً فيه مراعاة. فادعَمْ الأعمال الدينية إذا طلبَ ذلك أحد الأشخاص الذين تُعينهم، مثل الانضمام إليهم في الصلاة (إذا كان ذلك مناسباً لك)، ولكن لا تُجبِر على عملٍ ديني إذا لم يُطلَب. فافسَح السبيل لمثل هذه الطلبات بلا إجبارٍ عليها.

نحو استجابة مَحليَّة

إنَّ طريقة المقاربة المراعية للإيمان تَضَعُ الناسَ والمجتمعات المتضرِرين بالنِّزاعات والكوارث -مع حقوقهم وحاجاتهم وكرامتهم- في قلب استجابة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، إذ هي تُعين على تكييف إعانتهم بحسب سياقهم الاجتماعي والثقافي، والإيمان جزء منه. ويضاف إلى ذلك، أنه يمكن أن يُسهِم التعاون مع الفاعلين الدينية والمجتمعات في تقوية شؤون الفاعلين المحليِّين في نظام المعونة الإنسانيَّة، وتيسير الدعم الذي يقوده المجتمع المحلي، وإدخال المعونة في البنيات القائمة. لذلك كانت البرامج والمشاركات المراعية للإيمان من الجوانب المهمَّة في توطين المعونة، وفي إصلاحٍ واسعٍ من ثَمَّ للنظام الإنساني أيضاً.

لِيُوني هَرْش *leonie.harsch@mercator-fellows.org* *@LeonieHarsch*
زميلةٌ زائرةٌ سابقاً، في مبادرة التعلُّم المشتركة في الإيمان والمجتمعات المحليَّة

كُوري ڤان درڤن *c.vanderven@protestantsekerk.nl*
موظَّفة برامج، في منظَّمة كَرْك إنْكَتي، ومديرة برنامج في الإيمان والتنمية سابقاً، من حِلْف أَكْت

أوليڤْيَا وِلْكِنْسُن *olivia@jliflc.com* *@OliviaWilk*
مُديرةٌ بحوث، في مبادرة التعلُّم المشتركة في الإيمان والمجتمعات المحليَّة

١. IASC (2007) *IASC Guidelines on Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings*
(المبادئ التوجيهية في اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
اقرأه باللغة العربية: bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar

٢. Winiger F (2020) "'More than an intensive care phenomenon': Religious communities and the WHO Guidelines for Ebola and Covid-19', Spiritual Care 9(3)
(أكثر من مجرَّد ظاهرة رعاية مركَّزة)
https://doi.org/10.1515/spircare-2020-0066

٣. انظر أيضاً العدد ٤٨ من نشرة الهجرة القسرية في العقيدة والاستجابات للنَّهجير www.fmreview.org/faith
اقرأه باللغة العربية: www.fmreview.org/ar/faith

٤. انظر:
Such as UNHCR's 2014 *Partnership Note on Faith-based Organizations, Local Faith Communities and Faith Leaders*
(مذكّرة مشاركة في المنظمات المُقَامة على الإيمان والمجتمعات المحليَّة الإيمانية والزعماء الإيمانيُّون)
bit.ly/UNHCR-faith-partnership-note-2014
وانظر الاتِّفاق العالمي سنة ٢٠١٨ في شأن اللاجئين
www.unhcr.org/gcr/GCR_English.pdf

٥. التدريب مفتوح السبيل إليه بالمجَّان من هنا www.fabo.org/act/fshr. وبُنيَ التدريب على:
Lutheran World Federation and Islamic Relief Worldwide (2018) *A faith-sensitive approach in humanitarian response: Guidance on mental health and psychosocial programming*
(طريقة مقاربة تراعي الإيمان في الاستجابة الإنسانية: الإرشاد في برامج دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة)
bit.ly/IRW-LWF-faith-sensitive-MHPSS-2018

٦. UNHCR (2018) *Culture, Context and Mental Health of Rohingya Refugees: A review for staff in mental health and psychosocial support programmes for Rohingya refugees*
(الثقافة والسياق والصحَّة العقليَّة للاجئين الروهينغيِّين: مراجعة للعاملين في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند اللاجئين الروهينغيِّين)
bit.ly/UNHCR-culture-MHPSS-Rohingya-2018

٧. American Red Cross (2018) *Disaster Spiritual Care*
(الرعاية الروحانيَّة في الكوارث)
bit.ly/ARC-disaster-spiritual-care-2018

الإيمانُ ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند النساء المُسلمَات المُهجَّرات

كاثلين رُتلج وسَنْدرا إيمان بِرْتك ومحمد أبوهلال وعطا الله فِتْسغِيبُون

لمَّا كان للدِّين من هُوِيَّة وسُنَن ومعتقدات تأثيرٌ عميق في الصحَّة العقلية، كانت مراعاة الإيمان في المعونة ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ضرورة.

«الصلاة سبب النجاة»، و«الحاجات الدينية رأسُ حاجاتي»، و«يا ليتني سُئلت». هذه عباراتٌ قالتها النساء المُهجَّرات في العراق وسورية وتونس وتركيا في ثلاث دراسات مستقلة ومُنسَّق فيها سنةَ ٢٠١٩، أجرتها جامعة بِرْمنغهَام وجامعة الملكة مارغريتَ ومنظَّمة مستقبل سورية الزاهر، بمعاونة منظَّمة الإغاثة الإسلامية عبر العالم والأكاديمية الإنسانية للتنمية. وبحثت الدراسات شأنَ الإيمان في تصدِّي النساء لصعوبة معيشتهنَّ وفي معافاتهنَّ في سياق الهجرة القسرية وسياق النِّزاع.[1]

عانت النساء الداخلات في هذه الدراسة، مثل كثيرات غيرهنَّ من المُهجَّرات، مصاعب يصعب وصفها، ففقدن أقاربَ وأملاكاً، وعشْن في الحرب والعنف (ومنه العنف الجنسي والعنف الجنسَاني)، وخُضْنَ في رحلات تُهدِّد حياتهنَّ، وانفصلنَ من أُسَرهنَّ، وذُقْنَ العجز. وإذ قد كُنَّ يوماً منتميات إلى مجتمع محليّ دينيّ، فقد تمسَّكنَ في أثناء تنقُّلهنَّ بالدين والإيمان والروحانيَّة المنتقلة معهنَّ. وقد أثَّر الصُّمود الإيماني والمعاناة الروحية –اللذان يكثر أن يصعب فهمها على الغرباء– في حُسْن حال النساء بطرق متنوعة. فطوال تجاربهم كان للهوية الدينية والسُّنَن الدينية والمعتقدات الدينية تأثير عميقٌ في صحَّتهنَّ العقلية، سواء في تخفيف الضائقة النفسانية أو في المساهمة فيها.

ينتقلنَ وينتقل إيمانهنَّ معهنَّ

تشير نتائج الدراسة إلى أن النساء اعتمدن على طائفة واسعة من الروايات الدينية لإيجاد معنىً لمعاناتهن وتوجيه اتِّخاذهنَّ القرارات الحاسمة، ومنها قرارات الطلاق والانتحار. فاستعملنَ جملةً متنوعةً من السُّنَن الدينية آليات أوليّة للتكيُّف، ورأَينَ قيمةً للتوجيه الصادر من القادة الدينيين ولبلوغ المواضع والموارد الدينية. ووصفت النساء ما يتّبعن من سُنَن دينية أنها تُريحهنَّ،
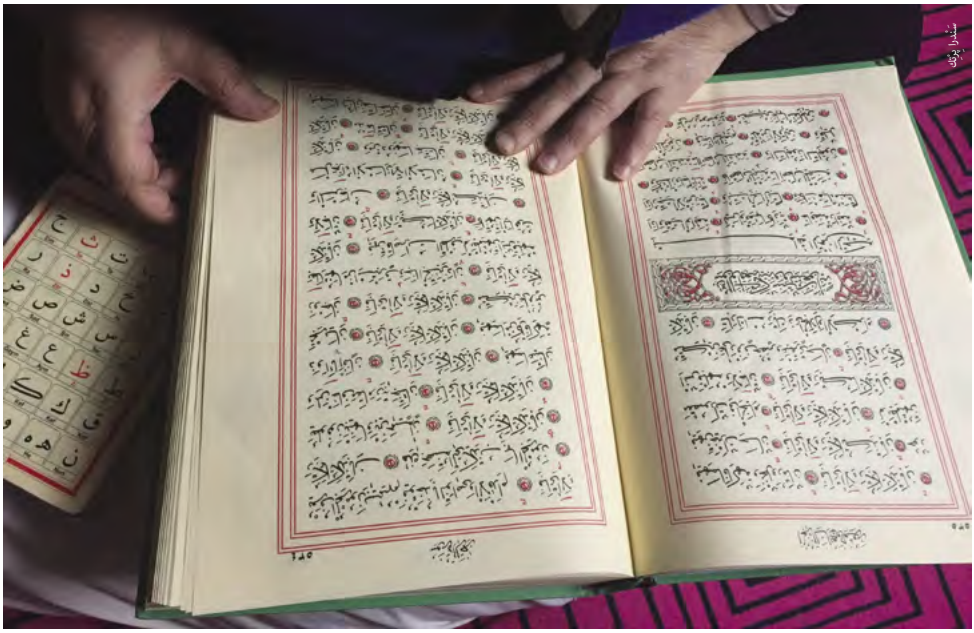
امرأةٌ لاجئةٌ سوريّة وهي تَقرأُ القُرآنَ في بيتها بتركيا.

وأنها وسيلة للحماية من الخطر، ووسيلة لتقليل القلق، ووسيلة للهَدْي في اتِّخاذ القرار. قالت جنان، وهي امرأة تبلغ من عمرها ٥١ سَنة تعيش في مخيم للنازحين الداخليِّين في العراق: «إنما الأمرُ كصبِّ الماء على النَّار»، مشيرةً إلى صلاتها وقراءَتها القرآن. ويشابه ذلك ما ألِفتهُ المعتقدات الدينية من إطار أساسيٍّ فسَّر من خلاله أَكثرُ النساء في الدراسات الثلاث الحياةَ وسعيهنَّ إلى إدراك تجاربهن. وأعانَ شعورهنَّ بالمودَّة الروحية المستمرَّة لله على المثابرة في مكابدتهنَّ المستمرة.

ومع ذلك، عانت النساء في المخيمات والملاجئ من المُعوِّقات الإمدادية (اللوجستية) في أدائهنَّ الشعائرَ الدينية، ومن ذلك انتفاء الخصوصيَّة، وانتفاء أماكن الصلاة في مواضع إقامتهم المزدحمة. ففي بلدان العبور واللُّجوء، شعر بعضهنَّ بالتَّعب الشديد أو الانشغال بالمُجهدَات اليومية فشُغِلْنَ عن أداء العبادة إفراديّاً، وافتقرنَ إلى فَرص أداء الشعائر الجماعيّة. وقد كُنَّ فقَدْنَ اللوازم الدينية أو اضطررنَ إلى تركها، مثل النصوص القُدسيَّة وسُبحَة الدُّعاء وسُجَّادة الصلاة. وفقد بعضهنَّ هواتف محمولة خَزَنَّ فيها تطبيقات دينية، أو لم يستطعنَ شَحْنَ هواتفهم حتى يصلنَ إلى التطبيقات الدينية.

وألمح بعضهنَّ إلى أن أدائهنَّ سننهنَّ الدينية قد قلَّ لمُكابدتهنَّ في التوفيق بين تجاربهنّ وإيمانهنَّ بالله. فعندَ بعضهنَّ كان انخفاض إيمانهنَّ مؤقتةً فقط، ولكن عند اللواتي لم يتمكنَّ من حل الخلاف بين تجاربهم وإيمانهم، أو من استعادة استقرار أدائهنَّ الدينيّ السابق، كان انخفاض إيمانهنَّ مرتبطاً بأعراض القلق والاكتئاب. فكان بهنَّ حاجة إلى الطُّمأنة من المعارف المُقدَّسة –التي شعرنَ أنَّها بعيدةٌ عن متناولهنَّ– لتعينهم على معالجة المعتقدات الداخلية المرتبطة بما ذقنَه من إساءة، والمرتبطة بلَوْم النَّفْس أيضاً.

دَعمٌ مُعرقَل

عبَّرت بعض النساء في الدراسة عن رغبتهنَّ في التحدُّث عن المكابدة الروحية في وَسَط إرشاديٍّ رسميٍّ، لكنهنَّ شعرنَ أنهن لا ينبغي لهنَّ الحديث عن المسائل الإيمانيّة. إذ قالت إحدى المُستَطلَعات في العراق: «هذا بيِّنٌ، لأنهم حين يحدِّثوننا لا يذكرون عن الدين شيئاً». ومثلُ ذلك أنْ قالت إحدى المشاركات في الدراسة من سورية إنَّها تَحبُّ لو استعملت «أقوالٌ وأمثلةٌ دينية ... في العلاج، لأن شخصيَّتي تميل إلى الإيمان والدين».

هذا، ويميل مقدِّمو الخدمات الدوليون والمحلِّيون إلى تجنب الدخول في شؤون الدين، ولم يدخلوا فيها إلا حين طلبت النساء ذلك صراحةً. ومع ذلك، فإن مواقف الموظفين والسياسات التنظيمية صاغت ما تعدُّه النساء حالاً آمناً للإفصاح. مثال ذلك، أنَّه كثيراً ما كان يُبنَى إدراك الملامح الدينية للمهاجرات اللاتي يعبرنَ الحدود في تونس على مظهرهنَّ، ولم يتم تُضمَّن مُراعاةُ الحاجات الدينية في إجراءات التحرِّي عند الاستقبال، ولا في الفحوص الطبيَّة، ولا في أعمال دَعْم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ومعظم النساء في البلدان الأربعة ذَكَرنَ رغبتهنَّ في نوع أوسع من المشاركة الإعانيَّة التي تركز على زيادة أو استعادة الوصول إلى دَعْم خارجيٍّ متعلق بالإيمان الذي تعرَّض لاضطراب الشديد. ورغبتَ كثيرات في الوصول إلى أمكنة يمكنهنَّ فيها التجمُّع مع نساء أخريات للصلاة كما كُنَّ يفعلنَ من قبل. وأما حالة النساء العابرات، فكانت أمكنة الصلاة فيها أو القادة الدينيين غير معلومة أو بعيدة، ولأنهم غير قادرات على بلوغ أمكنة القادة الروحيِّين، ظلَّ كثير منهنَّ يعانين اضطراباتٍ انفعالية لم تُحلّ.

ولم يأخذ الدعم الذي كان متاحاً للنساء من المعونة ومقدمي خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة لم يأخذ إلى حد بعيد في الحسبان تأثيرَ الإيمان في الضائقة النفسانية ولا أهميةَ تسهيل الوصول إلى الموارد الدينية للتكيُّف، وبدلاً من ذلك ظُنَّ أنَّ القادة الدينيِّين المحليِّين سيحتملون مسؤولية مثل هذه الحاجات. وكان الاستدلال على ذلك مرتبطاً في كثير من الأحيان بمخاوف الحِيَاد وعدم التحيُّز. لكن في كثير من هذه السياقات –مثل مدن العبور ومراكز الحَجْز والمخيمات ومواضع إعادة التوطين– كان وصول النساء إلى هؤلاء الأشخاص أو الموارد قليلٌ، أو أنهنَّ أُغفِلْنَ أو استبعدن من الدَّعم بسبب جنسهنَّ. ثم إن الذين لهم تفويض إنسانيّ والذين كان يمكن أن يتوسّطوا في تحقيق تكافؤ الوصول لم يسألوا النساء في الدراسة عن حاجاتهنَّ الدينية وتجنَّبوا مناقشة شؤون الإيمان في التقديرات وخُطَط الاستجابة. فكان من ذلك أن افتقر كثيرٌ من النساء في هذه الدراسة إلى الدَّعم الخارجيّ لإستراتيجيَّتهنَّ في التصدِّي لصعوبة معيشتهنَّ.

دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة المراعي للإيمان مع النِّساء المُسْلمات

صحيحٌ أنَّ تهميشَ المخاوف الدينية لِلمُهجَّرات يمكن أن يُضرَّ، ولكن صحيحٌ أيضاً أنَّ المبالغة في إبراز أهمية الإيمان عند فَئة من السكّان أو في إنشاء الفروض حول الحاجات الدينية على أساس دين الأغلبية– يمكن أن تُضر. وينبغي أن تكون المعونة مستجيبة لِمَنْ يرغَب ولا يرغب في الدخول بوجه من الوجوه في الإيمان. وهكذا تبدأ مراعاة الإيمان في المعونة ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بسؤال المُهجَّرات: ما أسباب مشكلاتهنَّ في رأيهنَّ، وما حلولها؟ وهل يُرِدْنَ أن يكون

للُّغة الدينية والفاعلين الدينيين والسُّنن الروحية شأنٌ، إن وُجِدَت، في حلِّ مشكلاتهنَّ؟

على أنَّ أُسُسَ مراعاة الإيمان في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة راسخةٌ في المبادئ والتوجيهات المنصوص عليها في المبادئ التوجيهية للجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ.[٢] ففيها إرشادٌ إلى إشراك الداعمين الدينيِّين وإجراء التقديرات التي تأخذ في الاعتبار القضايا والفاعلين الدينيِّين، وتُبرزُ أهميةَ البناء على الموارد والقدرات المتاحة، وعلى الإسهام، وعلَى أنظمة الدَّعم المتكاملة وحقوق الإنسان. ثمَّ أُنشئ مزيد الإرشادات العملية سنةَ ٢٠١٨ في مراعاة الإيمان في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.[٣] وبعد أن استفدنا في هذه الدراسة من هذه الإرشادات والمعطيات، نقدِّم بين يديها عدداً من التوصيات بمعاملة النساء المُسْلِمات خصيص.

ينبغي للفاعلين في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وفي ميادين المعونة الأخرى أن يتحمّلوا مسؤولية التقدير والتيسير والرَّصد في مساواة الوصول إلى الموارد والمواضع الدينية للنِّساء والرجال، وأن يعملوا من قُرْب مع الزعماء الدينيين الرسميِّين وغير الرسميِّين، وأن يُقِرُّواً بأن الوصول إلى الموارد الدينية يقوم على أساس الجنس. ومن المهمِ تحديد الزعيمات الدينيّات غير الرسميّات في السِّياق المحلي اللاتي يلجأنَ إليهنَّ النساء الأخريَات يطلبنَ الدَّعمَ الروحي والعاطفي. وإشراكُ هؤلاء النساء في التَّصميم والتنفيذ لبرامج دَعْم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ومنها التدريب على الإسعاف الأوليّ النفسانيّ.

هذا، وينبغي تَبْصِرَةُ مُوظَّفي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بوجود وملاءمة التعاليم الدينية الرئيسة والأمثال المحليَّة التي يستعملها للتكلُّف الأفراد والمجتمعات المحلية. ويُضَاف إلى ذلك، أنه يمكن أن يكون التَّعريف بالأنبياء والنساء اللاتي يُحتَذَى على مثالهنَّ في الروايات الدينية مصدراً للسُّلوَان، فهُم أيضاً عانوا التَّهجير والاضطهاد والفقدان. فلقد يؤدِّي توسيع مدارك الموظَّفين بما تقدَّم ذكره من أساليب التصدِّي لصعوبة المعيشة إلى تعزيز فاعليّة البرامج.

وينبغي في أدوات الصحَّة العقلية أن يُنظَر إلى ما يُستعمَل في الضائقة من تعابير اصطلاحيَّة محليَّة، يكثر أن تَبُثَّ اللغة الدينية في أوصاف ما يَعرض في وجوه اضطراب الصحَّة العقليَّة؛ مثال ذلك أنَّ أهلَ العراق يقولون «الروح (تعبانة)» ويقصدون بها الاكتئاب.

وينبغي مراعاة شأنِ التجارب السيئة المتعلقة بالهُويَّة الدينية عند تقدير ما للضائقة من أسباب أصليّة، وبخاصَّة عند المُعرَّضَات لفظائع الحرب والاضطهاد الديني، والتمييز الديني والعِرْقي. فتوسيع فَهْم الوظائف الإيجابيَّة والسلبيَّة للمعتقدات المَحليَّة في الذَّنب والعقاب الإلهي، وتأثيرها في درجات الكَرْب وآليات التصدِّي لصعوبة المعيشة، يمكن أن يُعِينَ المُراعِينَ على إعداد استجاباتٍ فعّالة في الرعاية.

ويمكن أن تكون فرَق دَعْم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بين النظراء التي تُعدُّها النساء وتقودها مُعزِّزاً قويّاً لحُسْن الحال، ولا سيَّما إن أُدمجَت في المشاريع التعليمية والمولِّدة للدَّخْل. وأيضاً فقد تشتمل هذه المبادرات على أعمال التصدِّي الديني لصعوبة المعيشة، مثل دَعْم الأقران لإعادة أداء الشعائر وإعادة إنشاء أمكنةٍ للمناقشة في شؤون الإيمان ومخاوف أخرى.

كاثلين رُتلج *KRutledge@qmu.ac.uk*
مديرة شؤون الاستجابة للمعونة الإنسانية، وباحثةٌ نائلةٌ درجة الدكتوراه، في جامعة الملكة مارغريت

سَنْدرا إيمان پِرْتك *S.M.Pertek@pgr.bham.ac.uk*
مستشارةٌ في شؤون الجنسانيَّة، وباحثةٌ نائلةٌ درجة الدكتوراه، في جامعة بِرْمِنغهَام

محمد أبوهلال *Mahilal3@gmail.com*
طبيبٌ نفسانيٌ سوريّ، ومؤسِّسُ منظمة مستقبل سورية الزاهر

عطا الله فِتْسغيبُون
Atallah.Fitzgibbon@irworldwide.org
نصيحٌ في إقامة المشاركات للشؤون الإيمانيّة، في مُنظَّمة الإغاثة الإسلامية عبر العالم

١. اشتملت على ٢٤٦ امرأةً، أكثرهنَّ مسلمات (٩٦%)، والبقية مَسيحيّات، تقع سِنُّهنَّ بين ١٨ سنة و٦٤ سنة. واشتملت الدراسة أيضاً على ٢٢ مقابلةً قُوبِلَ فيها مزاولون في ميدان المعونة الإنسانية ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

٢. IASC (2007) IASC Guidelines on Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings.
(المبادئ التوجيهية في اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
اقرأه باللغة العربية: bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar

٣. (Islamic Relief Worldwide and Lutheran World Federation (2018 *A faith-sensitive approach in humanitarian response: Guidance on mental health and psychosocial programming.*
(طريقة مقاربة تراعي الإيمان في الاستجابة الإنسانية: الإرشاد في برامج دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة)
bit.ly/IRW-LWF-faith-sensitive-MHPSS-2018

شَأنُ الوُسَطاء الثقافيِّين ووجوه مسؤوليَّتهم

إيميلي فِنَبلس وكاثرِين وَيْتهَوس وكَتْرينا سبِهْسُو ولِلْيان بِتْزي وأحمد الروسان وإستيفانو دِكَارلو

الوَساطَة الثقافيَّة أمر عظيم الشَّأن في تحسين الوصول إلى خدمات الصحة العقليَّة ورَفْع جودتها.

يتزايد الإقرار بالحاجة إلى الوساطة الثقافية –وهي طَريقةُ مقاربة تتجاوز الاقتصار على خدمات الترجمة– لقضاء حاجاتُ المُهاجرين وطَالبي اللُّجوء واللاجئين.[١] ويعمل الوسطاء الثقافيون مع طائفة عريضة من المنظَّمات، ومنها المنظمات غير الحكومية والمستشفيات والمراكز الصحية والشرطة، فيُعِينُون المُهجَّرين في الخدمات الطبية وشبه الطبية، وفي تعزيز الصحة، وفي الخدمات النفسانيَّة والمشورة القانونية.

وقد أجرت منظمة أطباء بلا حدود، التي ما تزال تُوصل وُجُوهاً من الدعم للمُهاجرين في جميع إيطاليا منذ سنة ١٩٩٩، دراسةً لفهم شأن الوَساطة الثقافيَّة في بيسير إيصال خدمات الصحَّة العقليَّة ولفهم المُتحدِّيات التي تَعتَرِضُ مُوصلي خدمات الوَساطة الثقافية، ولتعلُّم المزيد عن خبرات من الوسطاء الثقافيِّين أنفسهم وعمَّا يحتاجون إليه في الدَّعم.[٢] فأُجرِيَ ٢٥ مقابلةً مُفصَّلةً مُمْعناً فيها مع وسطاء ثقافيين وموظفي منظَّمة أطباء بلا حدود والمُخبِّرين الرَّئيسين من المؤسَّسات والمنظَّمات الأكاديمية الذين كانوا خبراء في استعمال الوساطة الثقافية مع المُهجَّرين.[٣]

شَأنُ الوسطاء الثقافيِّين عظيم

التواصل والترجمة من المهمات الرَّئيسة في عمل كلِّ وسيط ثقافي، وفي هذا تبادلٌ نافعٌ وإعانةٌ على بناء الثِّقة. فالتَّواصُلُ الثلاثيّ الذي يحصل بين الوسطاء الثقافيِّين وعملائهم وأعضاء الفرقة الآخرين (مثل علماء النفس) علاقةٌ ثلاثية عظيمة الأهميَّة تُعين المستفيدين على الوصول إلى الخدمات الأساسية والإفادة منها. وتُعين هذه العلاقة على بناء الثقة بين الوسيط الثقافي والعميل، فتُحسِّن من ثمَّ التواصل بين العميل ومُقدِّم الخدمة.

وكثيراً ما يكون الوسطاء الثقافيون حلقة الوصل الأولى بين الناس يتواصلون مع خدمات الصحة العقليَّة. وكثيراً ما يكون الوسطاء قادرين على تيسير فَهْم أكثر ملاءمة وسَبْقاً للحاجات وعلى مَنْع حصول الأخطاء أو على تجنُّب فوات الفرص للوصول في الوقت المناسب إلى الرعاية والخدمات. وكان هذا الاتصال الأوَّلي مفيداً في تقدير حاجات للمهجَّرين التي تقتضي قضاءها فوراً، ولا سيَّما فيما يتعلق بالضائقة النفسانيَّة.

ويُعِين بعض الوسطاء الثقافيين الأطباء أو العاملين في ميدان الصحة العقلية في أثناء الاستشارة الفردية، أو العمل مع النَّاجين من التعذيب والنساء اللاتي اتُّجِرَ بهن. ويعمل آخرون مع هيئات قانونية وأمنية، ويقدِّمون المعلومات والترجمة في أثناء جلسات الاستماع القانونية. فيترجمون الكلام والمفاهيم بين العملاء ومقدمي الخدمات، فهذا يحقِّق أن يُفهَمَ العَميلُ وأن يقدرَ على الوصول إلى الرعاية والدعم الذي يحتاج إليه.

عَملٌ صعب يثير الانفعالات

ثمَّ إنَّ العمل صعب على الوسطاء أنفسهم. فكثيراً ما يأتون من جماعات اللاجئين وقد مرّ كثير منهم برحلات وتجارب هجرة مماثلة لما مرّ به الذين يحاولون دَعْمَهم

وسيطٌ ثقافيٌ من منظَّمة أطباء بلا حدود وهو يعمل مع المُهجَّرين في إيطاليا.

يكثر أن تكونَ راضحةً (صادمة)، فيصعب عليهم من ثمَّ تعيين بُعْد مناسب وموضوعيٍّ ومهنيّ بينهم وبين كل مات سبق ذكره. وإذ قد كانوا مرُّوا بلجوء صعب في إيطاليا بأنفسهم، فقد جاز ألا يكونوا متثبّتين من أنه هل ينبغي له إخبار عملائهم بهذه التجارب، وإن كان كذلك فكيف؟ فيُتَّهمون أحياناً بالتحيُّز أو يُطلَب إليهم الكذب أو إخفاء المعلومات، فيوضعون في موضع صعب جداً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قال أحد العاملين في منظمة أطباء بلا حدود إنَّ كَوْنَ بعض الوسطاء الثقافيين سافروا بالطريقة نفسها وثمَّ أصبحوا في وضع مُستقر «أمر ذو رسالة حَسَنة للناس ... فوجود الوسيط هناك، ولو لم يتحدَّث في بعض الأحيان، كان بالحقّ ذا قيمة زائدة في هذه الحالة، إذ يقلِّل التوتُّر والخوف...».

هذا، ولا يرغب العملاء دوماً في أن يُعينهم وسيطٌ ثقافي أو أن يتواصلوا معه من قُرْب، ولا يرغبون دوماً في التحدث بلغتهم الأمّ في أثناء الجلسات النفسانيَّة أو السريريَّة. وقال في ذلك أحد الخبراء في الوساطة الثقافية مُبيِّناً: «إنَّها لغة جلَّاديهم». ويُفضِّل بعضهم التعبير عن أنفسهم باللغة الفرنسية أو الإنجليزية بلا وسيط ثقافي يُعينُ على الترجمة. وصحيحٌ أنَّ عندَ عُملاء منظَّمة أطباء بلا حدود أصلاً الحقُّ في رفض دعم الوسيط الثقافي في أثناء جلساتهم، ولكن هناك حاجة إلى مَزيد عمل لإعلامهم (وطمأنتهم من ثَمَّ) قواعدَ السلوك والسريَّة، ذلك يُعينُهم على تقرير أمرهم بينَ رغبتهم في أن يُعينهم وسيط ثقافي وأن يرفضوا ذلك.

وصحيحٌ أنَّ في أُلْفَة تجارب الوسطاء طُمَأنينةٌ للعملاء، ولكن التجربة المشتركة بين الوسطاء الثقافيين والذين يعينونهم تجعل عملهم صعباً من حيث الانفعالات، وتجعل احتمالَ مخاطر الرُّضوح (الصدمات) غير المباشرة ونفاد الوسع غير المباشرة قريبَ التحقُّق جداً. وقد يَأخُذُ الوسطاء الثقافيون بإستراتيجيات شخصية للتصدِّي للصعوبة، ولكن دعمَ الحال النفسانية المُدمَج جيداً والإشرافَ ضروريان لحماية الوسطاء الثقافيين حماية كاملة، ولا سيَّما المُعرَّضين لقضايا حسَّاسة جداً تتعلق بالصحَّة العقليَّة أو العنف أو التعذيب.

ويلزم عقد اجتماعات منتظمة بين الوسطاء الثقافيين ونظرائهم –مثل علماء النفس والمختصِّين بالعلاج الطبيعي أو الأطباء– قبلَ مُفاعلَة العملاء وبعدَها. على أنَّ أحدَ القيود على ذلك أنَّ العمل بدوام كامل ليس حاضراً دوماً للوسطاء الثقافيين، وهذا إنما يؤدي إلى شعور كثيرين منهم بانتفاء الاستقرار لحالهم الوظيفي أيضاً.

ثم إنَّ الوصول في الوقت المناسب إلى خدمات الصحَّة العقليَّة للاجئين وطالبي اللجوء مُكوِّنٌ أساسيّ في إيصال الخدمات الطبيَّة الأساسيَّة في إيطاليا، كما هي الحال في كلِّ مكان آخر. والوسطاء الثقافيون ضرورةٌ في تحقيق ذلك ولكنَّ الضغوط عليهم وعلى شأنهم ذاك كثيرة. ومن المُعينات أيضاً زيادة التركيز على التدريب وتنمية المهارات للوسطاء الثقافيِّين والمُوظَّفين الذين يعملون معهم، فمن شأن ذلك أن يُحقِّق وضوحاً أحسن لشؤون إيصال الخدمة وجَوْدتها، ويُقلِّل احتمالَ زيادة الرُّضوح النفسانيَّة.

إيميلي فنَبلس *emiliecvenables@gmail.com*
من وحدة لَوكسمبورغ للبحوث العملية، في منظَّمة أطباء بلا حدود بلوكسمبورغ، وقسم العلوم الاجتماعيَّة والسلوكيَّة، في كلية الصحَّة العامة، بجامعة كَيْب تَوْن

كاثرين وَيْتهَوس *kitwhitehouse@gmail.com*
مَن وحدة لوكسمبورغ للبحوث العملية، في منظَّمة أطباء بلا حدود بلوكسمبورغ

كَتْرينا سبِهْسُو *caspissu@gmail.com*
من بعثة إيطاليا، التابعة لمنظَّمة أطباء بلا حدود

لِلْيان بِتْزي *lilian.pizzi@gmail.com*
مَن بعثة إيطاليا، التابعة لمنظَّمة أطباء بلا حدود

أحمد الروسان *ahmad.alrousan@rome.msf.org*
من بعثة إيطاليا، التابعة لمنظَّمة أطباء بلا حدود

إستيفانو دِكارلو *ste.dicarlo@gmail.com*
من بعثة إيطاليا، التابعة لمنظَّمة أطباء بلا حدود

١. نستعمل مصطلح «الوَسَاطَة الثقافية» ومصطلح «الوسطاء الثقافيِّين» ونقصد بهما ما بيَّنته المبادئ التوجيهية في منظَّمة أطباء بلا حدود حينَ أُجريت الدراسة. فبعد الدراسة صار يُشَار في الوصف الوظيفي المُحدَّث إلى الوَسَاطة بين الثَّقافَات.

٢. يطيب لفرقة البحث أن تُعرِب عن تقديرها وُجُوهَ الإسهام القيِّم للمشاركين في الدراسة، وتقديرها دَعْمَ منظَّمة أطباء بلَا حدود في إيطاليا. ونشكر بخاصة لفرَنْشِسْكَا زوكارو وأدولين دغْرَتِيَه دعمَهما وإسهامَهما في هذه الدراسة البحثية.

3. انظر العَرْض هنا https://f1000research.com/slides/5-1331.

العُنْف على المرأة والصحَّة العقليَّة عند اللاجئات ونساء المجتمعات المُضِيفة

ألينا بُتْس وراسِيل بَرَدَا وأنجِلا بوراسا

تتفاقم وجوه الخلل في القوة والمساواة بين الجنسين فتُعرِّض النساء والفتيات المُهجَّرات لخطر العنف عليهنَّ بسبب وجوه الضعف المتعلقة بالحالة القانونيَّة والأمن الاقتصادي والوصول إلى الخدمات وأحوال المعيشة. ومن المهم فَهْم عوامل الخطر والحماية وتحديدها لتحسين السُّبُل التي تقضها بها حاجات كلٍّ من اللاجئين والمجتمعات المُضِيفة.

أجرت منظّمة أبعاد، وهي منظمة لبنانية تعمل على جميع جوانب الوقاية من العنف الجنسانيّ على المرأة والاستجابة له[1]، ومعها معهد المرأة العالمي ومقره الولايات المتحدة[2]، أجريا استطلاعاً للاجئات السوريات والنساء اللبنانيات والفلسطينيات لفَهْم تجاربهنَّ في العنف الجنسانيّ على المرأة وفي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وقد أُجري الاستطلاع في أيار/مايو سنة ٢٠١٩ بمعاونة أكاديميَّات ومقدِّمات خدمات لبنانيَّات في ميدان العنف الجنساني على المرأة ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ثمَّ استُكمِلَ بمعطيات نوعية جُمِعَت في مناقشات دارت بين فِرَق التركيز وقادة المجتمع المحليّ ومزاولين في ميدان العنف الجنسانيّ على المرأة ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وأفراد المجتمع المحليّ، وذلك لفهم تصوراتهم لحُسْن الحال المرء ولكلٍّ مُعوِّق وكلِّ العوامل في تدعم الخدمات المُنسَّقة في هذين القطاعين.[3]

ومن بين ٩٦٩ امرأة قد قُوبِلَت، ذكر ٩٠٪ منهنَّ أنهن يعانين من مشكلات خطيرة بسبب واحد أو أكثر من وجوه ضعفهنَّ في محيطهنَّ: انعدام الأمن الغذائي (٧١٪)، والصحة البدنية (٦٢٪)، والانفصال من الأسرة (٥٦٪)، والسلامة والأمن حيث يَعِشْنَ (٥٠٪). وحدَّدت المشاركات في مناقشات فرقَة التركيز قِلَّةَ الوصول إلى الموارد المالية وقلن إنَّه السبب الرَّئيس في وجوه الضعف هذه بين المجتمعات المُضيفة ومجتمعات اللاجئين بالسَّواء. والعنف الجنسانيّ على المرأة شائعٌ بين هذه الفئة من السكان. فقد أشار أكثر من ثُلُث النساء إلى أنَّهن تزوجن قبل أن يبلغ السنة ١٨ من عمرهنَّ، وأكثر من ثلاثة أرباع النساء اللاتي لهن شريك أو سبق أن كان لهنّ شريك قُلْنَ إنَّهن تعرَّضن لعنف العشير، ونصفهنَّ تعرَّضن لذلك في خلال السنة الماضية. ثمَّ إن ثمانية نساء من كلِّ عَشَرَة نساء عانين عُنْفَ العشير انطبقت حالاتهن على معايير الضائقة الشديدة.[4] وأيضاً فالسيطرة القسرية عاملٌ خَطِر مُهِم للضائقة النفسانيَّة. وكان الزواج القسري أو زواج الأَطْفال أحد أكبر عوامل الضائقة النفسانيَّة مع ضغط هائل على الفتيات العرائس، فكان لذلك أثر في علاقتهن بالزوج وبأطفالهن في المستقبل.

هذا، وعدد النساء السوريات اللواتي انطبقت حالاتهنَّ على معايير الضائقة النفسانيَّة الشديدة أكثر عدد النساء اللبنانيات في ذلك. وقد فُسِّر هذا الاختلاف في فِرَق التركيز فقيل إنَّه ناجم عن الضغط أو القلق جلبه مُجهِدٌ ماليٌ وأسري، والحَيْرة في الحاضر والمستقبل، والانفصال من الأسرة، والوَصْم المرتبط بصفة اللاجئ. وارتبط وجود مشكلة خطيرة في بُعد واحد فقط من وجوه الاستضعاف في البيئة المحيطةً بمعدّل أعلى بكثير من الضائقة النفسانيّة الشديدة بالقياس إلى اللاتي ليس فيهنَّ مشكلات خطيرة. وكان عدد وجوه الضعف التي تسبب مشكلات خطيرة مرتبطاً ارتباطاً قوياً بزيادة معدلات الضائقة النفسانيَّة الشديدة.

وذكرت كلّ من النساء اللبنانيات والسوريات طبيعة التَّعزيز المتبادل بين الصِّحة البدنية والصحة العقليَّة، وكيف يمكن أن تمنعهنَّ الإصابة بأمراض مزمنة أو علل جسدية من الاعتناء بأنفسهنَّ، وكيف يمكن أيضاً أن تظهر آثار الصحَّة العقليَّة في هيئة أعراض جسدية.

وجوه استجابة النِّساء

كان عدد النساء السوريات اللاتي التمسنَ خدمات الاستجابة للعنف، وبخاصة خدمات دعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أو الصحَّة العقليَّة، أكثَر من عدد النساء اللبنانيات اللواتي التمسنَ ذلك، على أنَّ عدد النساء اللبنانيات اللاتي التمسنَ مزيدَ التعليم والتدريب المهني أكثر من النساء السوريات. وكان العائق الأساسيّ الذي اعترض البحث عن الخدمات هو أنَّ النساء إنما لم يكن يعرفن أن الخدمات حاضرة، يلي ذلك اعتقادهنَّ بأنَّهن لا يحتجن إلى خدمات لمعالجة العنف. ومثْل ذلك أنَّ العامل الأساسي الداعم لطلب الإعانة هو أن تكون الخدمات مُوجَّهة بوضوح إلى الناس من مشاربهم وحالاتهم، ولا سيَّما للنِّساء السوريات. وهذا متَّصل بكيفية الإعلان عن الخدمات، ومكان وجودها (مثال ذلك أن تكون حاضرةً في مراكز المدن أو بالقرب من المستوطنات التي يعيش فيها اللاجئون)، وكيفية هيكلتها (مثال ذلك أن تُقدَّم في مراكز قائمة برأسها أو داخل مراكز «جامعة لكل الخدمات» تديرها الحكومة مع عددٍ من مُوصِلي الخدمة الآخرين).

وقد بحثت معظم النساء عن المؤاساة في دينهن ليتصدَّيْن للعنف. فكانت الصلاة الآليَّةَ المشتركة الوحيدة للتصدِّي لصعوبة المعيشة بين المشاركات في الاستطلاع وفِرَق التركيز. ووصفت إحدى النساء تجربتها في الأخذ بالوجوه الروحانية للتصدِّي لصعوبة التجارب اليومية، قالت: «أصعد إلى حافة الوادي وأخاطب الله تعالى. أقعُدُ وأشرب كوب شاي من الأعشاب، وأدخِّن سيجارة، وأصرخ ما وسعني ُالصراخ، ثم أعود».

وقد ذكرنَ أنَّ آليَّات التصدِّي لصعوبة المعيشة كانت مفيدةً في العثور على عمل، وإشراك قادة المجتمع المسؤولين عن الأمن في مستوطنات من خيام غير الرسمية، واستعمال مُخفِّفات الآلام أو أدوية أخرى. وقال نحوٌ من ثلاثة أرباعهنَّ أنهنَّ طلبن المشورة في ما ينبغي فِعْلُه ووجدنَ دعم الحال الانفعاليَّة من المقرَّبين منهنَّ مفيداً. وقد وصفنَ البكاء أو تَرْك الحبل للمشاعر بأنّهما «لا طائل دونهما» ذلك أنَّ «الكَمَدَ باقٍ في النفس».

وتشير الأدلة المَرويَّة من موظَّفي منظَّمة أبعاد إلى أن وجوه الضعف قد زادت زيادةً بيّنة بين جميع سكان لبنان منذ أن جَمعَت المعطيات في أيار/مايو ٢٠١٩، إذ فقد كثير منهم دخلهم، وأبلغت النساء عن ارتفاع معدلات العنف الجنسانيّ على المرأة والضائقة النفسانيَّة. وقد تفاقمت هذه الحال منذ الانفجار الذي وقع في بيروت في ٤ آب/أغسطس ٢٠٢٠ ومنذ تفشِّت جائحة داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، فسَرُعَ الانهيار الاقتصادي في لبنان، وعزل الناجيات من العنف الجنسانيّ على المرأة مع مرتكبيه، وإنشاء حواجز ماديّة بين المتضرِّرات وأنظمة دعمهنَّ. ويضاف إلى ذلك، أنه عُلِّقت كثير من الخدمات أو كُيِّفت في أثناء الجائحة، فضاقت سُبُل الناجيات.

على أنه خرج عن فِرَق المناقشات المركّزة أن عُلِمَت معاني كلمات مثل الضغط والغضب، فعُرِفَ أنها مرتبطة بسوء الصحَّة العقليَّة. وقد لا يشير هذان المصطلحان في اللغة الإنجليزية إلى نزاع الصحَّة العقليَّة، ولكن في هذا السياق تميل النساء إلى التهوين من أعراضهنَّ بسبب الوَصْم والضغط الاجتماعي على أن «تُقوِّين جأشَهنَّ» أو أن «تستجمعنَ عَزمهنَّ» أو كما يقال لهنَّ بالعاميَّة (شدِّي حالك).

التَّوصيات

ينبغي أن تسعى مقدِّمات الخدمات إلى تقديم خدمات شاملة، منخفضة الكلفة أو بلا تكلفة، في العنف الجنسانيّ على المرأة وفي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، مع دعم الإحالات، في أمكنة آمنة، موزَّعةً بحسب مقتضى الحال (لتقليل كلفة النَّقل). وينبغي تأمين وسائل النَّقل ورعاية الأطفال ما أمكن. ويمكن أن تُزادَ مسارات الإحالة بين مقدِّمات الخدمات في العنف الجنسانيّ على المرأة ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وذلك بضمان تحقيق خدمات مناسبة للسِّن. فكثيراً ما كانت الخدمات مثل دعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة متاحة للبالغين الشباب ومتوسطي السِّن، ولكنها لم تكن متاحة دوماً للأطفال والمراهقين وكبار السِّن.

وقد أشارت المشاركات في فرقة التركيز إلى الوَصْم الهائل المتعلقة بالتماس خدمات الصحَّة العقليَّة، ونقص مقدِّمات الخدمة المؤهَّلات، وانتفاء الأمكنة الآمنة التي تحفظ فيها السريَّة في المخيمات، وقلنَ إن كل ذلك عوائق أمام الرعاية. ويجوز أن تعالج هذه المُقلقَات طُرُقُ المقاربة المُبتدَعَة، مثل استعمال خدمات الهاتف المحمول ذات الحيّز المادي الآمن والحافظ للسريَّة لتقديم الخدمة.

وهناك حاجة إلى جلسات توسيع المدارك لمعالجة مسألة إلقاء اللوم على الناجيات (أي إلقاء اللوم على الناجيات من العنف الجنسانيّ على المرأة في تجربتهن المُرَّة، وهو ما له سوء أثر في صحَّتهن العقليَّة ويؤدي أيضاً إلى استمرار الوَصْم) ولا يقتصر قصدها على أفراد المجتمع المحليّ ولكن تشمل أيضاً مقدِّمات الخدمات أنفسهم. وينبغي للفاعلين في ميدان العنف الجنسانيّ على المرأة الاستمرار في عقد جلسات توسيع المدارك على صعيد المجتمع المحليّ في الجنسانيَّة والعنف الجنسانيّ على المرأة، إضافةً إلى الإقرار بالضائقة النفسانيَّة والاستجابة لها، وتقديم آليات داعمة في الصُّمود لصعوبة المعيشة والأحوال. وينبغي أن تشمل التَّدريباتُ الوِقايةَ من الاستغلال والانتهاك الجنسيَّيْن والاستجابة لهما، ولا سيَّما في الأزمة الاقتصادية الراهنة. وينبغي للفاعلين في ميدان العنف الجنسانيّ على المرأة أن يستمرُّوا في عقد جلسات توسيع المدارك في آثار السُّوء الجسمانيَّة والنفسانيَّة والاجتماعيَّة التي يخلِّفها الزواج القسريّ والزواج المبكر. وينبغي أن تتولى الحملات المجتمعية إزالةَ الوَصْم من المحادثات الدائرة حول الصحَّة العقليَّة باستعمال مصطلحات محليَّة متَّصلة بالأمر. ذلك أنَّ المصطلحات المتداولة لوَصْف الصحَّة العقليَّة (أو اعتلال الصحَّة) بين هؤلاء السكّان منحرفة عن المصطلحات السائدة (مثل الاكتئاب). وقد هوَّن كثير من المشاركات في فِرَق التركيز من تجاربهنَّ في الصحَّة العقليَّة باستعمالهنَّ مصطلحات ألطفَ أو مُكنِّيات (مثل ضغط بالمعنى العاميّ) لوصف أعراض أكثر حِدَّة، كالقلق الشَّديد.

ويمكن إذا ضُمِنَت إتاحة الخدمات للجميع بوضوح أن تُعين على معالجة المعوِّقات التي تحول دون وصول أفراد

المجتمع المُضيف واللاجئات والعاملات في المنازل المهاجرات إلى الخدمات، فكثير منهنَّ سيكون لهنَّ معرفة قليلة بهذه الخدمات أو اعتقاد بـأنَّ فئتهنَّ السكانيَّة غير مقصودة بالخدمات.

وأعمال التمكين الاقتصادي مهمةٌ لاعتراض تأثير وجوه الضعف في البيئة المحيطة. وينبغي أن تُقلِّل مثل هذه البرامج ما أمكن التقليل من خطر العنف الجنسانيّ على المرأة الناتج عن المُتحدِّي الذي قد يُنشئه دَخْل المرأة في الشؤون الجنسانيّة السائدة، وذلك بإجراء تقدير شامل للجنسانيَّة وللعنف الجنسانيّ على المرأة لإعلام إعداد البرنامج ورصدها وتقويمها، مع توجيهٍ تقنيّ من الفاعلين في ميدان العنف الجنسانيّ على المرأة.

وأخـيراً، من المهم الإقـرار بأنَّ عند اللاجئات وجوه ضعف مُحدَّدة، وقد يَكُنَّ أكثر ارتياحاً لطلب الدعم من مقدِّمات الخدمات اللاتي يأتين من المشرب نفسه الذي أتين منه ما استُطيعَ ذلك. ثمَّ إنَّ إشراك الأعضاء السوريات من المنظَّمات الإنسانية في توسيع المدارك أو الخدمات الأخرى، أو العمل مع مقدِّمات الخدمات السوريات غير الرسميات أو قائدات المجتمع المحليّ، لبناء الثقة مع أفراد مجتمع اللاجئين، يمكن أن يُعين على معالجة هذه المسألة.

أَلينا بُتْس *apotts@gwu.edu @alina_potts*
عالِمَةُ بحوث، في معهد المرأة العالمي

راسيل بَرَدَا *rbarada@gm.slc.edu*
مستشارةٌ في الحماية من الاستغلال والانتهاك الجنسيَّيْن والعنف الجنسانيّ على المرأة، في منظَّمة أبعاد بمنطقة الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا

أنجلا بوراسا
abourassa@gwu.edu @ABourassaMPH
باحثةٌ مشاركةٌ، في معهد المرأة العالمي

١. انظر أيضاً www.fmreview.org/detention/anani.
٢. معهد بحوث مقرّه جامعة جُرْج واشنطن https://globalwomensinstitute.gwu.edu/
٣. سيصدر عمّا قريب مؤلَّف بالنتائج كلِّها راجعه الأقران.
٤. استُعمِلَت أداةُ تقديرٍ من مِقياس كِسْلَر للضائقة النفسانيَّة (K+6) لقياس الضائقة النفسانيَّة.
انظر:
Segal S P, Khoury V C, Salah R and Ghannam J (2018) 'Contributors to Screening Positive for Mental Illness in Lebanon's Shatila Palestinian Refugee Camp'. *The Journal of Nervous and Mental Disease* 206(1) (المساهمون في تحرّي الإصابة بالمرض العقليّ في مخيَّم شاتيلاً للاجئين الفلسطينيِّين في لبنان) https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/28976407

مقاربة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بُطُرق مجتمعيَّة

دِمِتْرُو نِرسِيسِيَان ومارين راغونو وهَيْدَا رِيدَه وغولِيَالِمو سكِينِينَا

لا تسمح قيود التشغيل في السياقات الإنسانية دوماً بتخصيص الوقت والموارد الكافية للأعمال التشاركية التي لا غنى عنها في إنشاء طُرُق مقاربة مجتمعية لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

يُقوِّض التَّهجير والمُرهِقات المرتبطة به مصادرَ استقرار الناس مثل الهوية الفردية والجماعية، والشعور بالمكان والانتماء، والحالة القانونية والاجتماعية. ويمكن أن يُرْجِعَ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة استعادة الإحساس بالعَيْش الطبيعي، وأن يلأَمَ الجروح الجماعية، وأن يدعم الهوية الفردية والجماعية.

ولكنّ الاستجابات الإنسانية تقوم عموماً على بنيات في علاقات قوة لا مساواة فيها. وتُقدَّر الخبرة المَوَاضيعيَّة أكثرَ من تقدير المعارف المحلية وفي بعض الأحيان تُفرَض. ويكثر أن لا يشترك الذين هم الأكثر تأثراً بالبرامج في إعدادها وتنفيذها وتقويمها، وتكون المنظمات مسؤولة أمامَ الجهات المانحة لا حصراً أمامَ المجتمعات المحليَّة المتضرِّرة بالأزمة التي توصل إليها الخدمة. وفي ميدان الصحَّة العقليَّة، للثقافات وأنظمة المعتقدات وحركيَّات (ديناميَّات) القوة تأثيرٌ شديدٌ في تصور الأمراض، ومنها الأعراض، وفي صَوْغ الاستجابات، ومنها العلاجات ووجوه التدخُّل في الحال النفسانيَّة. لذلك هناك خطر متأصل في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الأحوال المقتضية للمعونة الإنسانية، ويتمثل هذا الخطر بتكرار حَرَكيَّات حمَّالة للمشكلات لوجوه التدخُّل الإنساني ورعاية الصحَّة العقليَّة بالسَّواء من خلال أ) التركيز على وجوه ضعف المهاجرين قسراً، وإهمال صمودهم وفاعليَّتهم، ب) وفَهْم الاستجابة للشَّدائد بطريقة مقاربة في الطبّ الحيوي، ويُخاطَر بذلك بعَدِّ المشاركين في برنامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة

مرضى نفسانيِّين، ج) ثمَّ إنشاء أنظمة الاعتماد على المعونة التي تُديم حركيَّات القوة التي لا مساواة فيها.

وإحدى طرق التغلُّب على هذه المخاطر أنَّه بدلاً من دعم المجتمعات المتضرِّرة بالأزمة في بناء استجاباتها الخاصّة للشدائد، ينبغي أن تُستعمَل طريقة مقاربة مجتمعية؛ أي طريقة مقاربة تقوم على فهم أن المجتمعات يمكن أن تكون سائقات إلى رعاية نفسها وتغيير نفسها، وينبغي أن تشارك مشاركةً مفيدةً في جميع مراحل الاستجابة لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

هذا، وتتميَّز طرق المقاربة المجتمعية لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بأنَّها:

- تعي أهمية الاستجابة الجماعية للشدائد وللتَّماسك الاجتماعي في تقرير حُسْن حال الفرد والمجتمع،
- وتُفعِّل أنظمة الدعم المتعددة التخصُّصات المراعية للسياق، المُعتمدَة على وجوه القوة القائمة للمجتمعات المحلية المتضررة، بدلاً من الاقتصار على إيصال الخدمات في الاستجابة للعَجْز الناجم عن الطوارئ،
- وتدعم العمل التشاركيَّ للمجتمعات المحليَّة في جميع مراحل المشاريع،
- وتقصد إلى استعادة أو تعزيز البنيات الجماعيَّة والنُّظم الجماعية التي هي ضرورةٌ للحياة اليومية وحُسْن الحال.[1]

وقد حدَّدت المنظمة الدولية للهجرة سبع درجات مختلفة من مشاركة المجتمع المحليِّ في برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.[2] أمَّا الدرجات الثلاث الأُوَل، فحين لا يكون للمجتمعات المحليَّة قوة في اتِّخاذ القرار، إمّا أن تُشارَك المجتمعات المحليَّة في المعلومات وإما أن تُجمَع منها وإما يُقتَصَر على مشاورتها. وأما الدرجات التاليتان فأولاهما حين تُشارِك المجتمعات المحليَّة في تخطيط الأعمال ولكن تظل قوتها قليلة (وهـذه تُعرَف باسم المشاركة المجتمعية «الوظيفية») وثانيتهما حين تشارك المجتمعات المحليّة مشاركة تامّة في أعمال صُنْع القرار (وهي المشاركة «التفاعلية»). وتتميَّز الدرجتان الباقيتان بملكيَّة المجتمع المحليِّ، إذ تتحكم المجتمعات الملحيَّة في صنع القرار وتعمل الهيئات عمل المُيَسِّرات، وتتميزان أيضاً بالتَّمكين، إذ تكون المجتمعات المحليَّة قادرة على الاستجابة لحاجاتها الحاليَّة بدعم خارجي قليل. على أنَّ برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ينبغي أن تقصد دوماً إلى درجات تمكين للمشاركة المجتمعية، وينبغي أن يكون الموظَّفون واضحين في شأن قيودهم.

طريقة مقاربة مجتمعيَّة في بنغلاديش وجنوب السُّودان

وتُبيِّنُ برامج المنظمة الدولية للهجرة في بنغلاديش وجنوب السودان ضرورة التقدير التَّشاركيِّ المُستمر وأهميَّةَ العمل مع المجتمع المدني وأصحاب المصلحة الحكوميين في قطاع دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وذلك لأجل بناء القدرة على إيصال الخدمات وتمكين تبادل المعارف التي ستستمرُّ بعدَ كلِّ وجه تدخُّل من وجوه التدخُّل في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

ففي بنغلاديش، حيث هُجِّرَ نحوٌ من ٧٢٠ ألفاً على التقريب من الروهينغيا، تعمل فِرَق دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة من المنظمة الدولية للهجرة مع مُتطوِّعين مجتمعيِّين من الروهينغيا والمجتمعات المُضيفَة، فيعملون مع المعالجين التقليديين والزعماء الدينيين ومع غيرهم. وإذ قد كانت إستراتيجيات التصدِّي لصعوبة المعيشة التي حدَّدتها المجتمعات المحليّة تضمَّنت الاعتماد على الدعم الأسري والاجتماعي والسُّنن الدينية المتَّبعة، فقد ركزت الفِرَق على تسهيل الأعمال الجماعية التي المُنصبَّة على حِفْظ التراث الثقافي والشعائر والاحتفالات. وتضمَّنت هذه الأعمال إنشاءَ مطابخ جماعية، وتيسير الحوار الأسري، وعقد مراسم الشِّفاء، وإنشاء مركز اسمه مركز الذاكرة الثقافية. فكان في المطابخ والحوار الأسري أحيازٌ آمنة لمناقشة المسائل المُلحَّة، ويضاف إلى ذلك، أنَّ التجمع غير الرسمي في عمل تقليدي عزَّز الشعور بالانتماء للجماعة. وقد اشتملت احتفالات الشفاء على مُكوِّن قوي بين الأجيال وسمحت لأفراد المجتمع بالتفاعل مع رواياتهم التاريخية وهويتهم الثقافية والمجتمعية، وكذلك بزيادة فرص التواصل الاجتماعي. وأتاح مركز الذاكرة الثقافية بجمعه الفنون والحِرَف التقليدية وإنتاجها وعَرْضها منصةً تشاركية لأفراد مجتمع الروهينغيا تحفظ لهم الشعور بالهوية والتراث الثقافي، وكذلك تضمن استمرار ذلك في أجيال الشباب.

وثبت أن الحفاظ على الهوية الجماعية والتراث الثقافي مُكوِّنات لا غنى عنها في استعادة الصحَّة العقليَّة وحُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة والحفاظ عليهما عند الأفراد وعند مجتمع الروهينغيا الأوسع.

وكثيراً ما تؤكد برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أمرَ الاستدامة بتعزيز أنظمة الخدمات الصحيَّة

والاجتماعيَّة. ففي جنوب السودان، حيث يحتاج سبعة ملايين ونصف مليون من الناس (٧,٥) إلى معونة إنسانية، منهم مليون وثلاثة أعشار المليون (١,٣) من مجموع مليون وستّة أعشار المليون (١,٦) من النازحين الداخليِّين في البلد، ولا يمكن الوصول إلى فئات عريضة من السكّان في خدمات الصحَّة العقليَّة القائمة. لذلك يركِّز برنامج المنظمة الدولية للهجرة همّه في تعزيز البيات الأسرية والمجتمعية والدعم، بمشاركة مقدِّمي الخدمات الصحيَّة والاجتماعيَّة العاملين اليوم. هذا ومع تقديم البرنامج خدمات مُباشرة للمجتمعات المُهجَّرة في أمكنة تشبه المخيمات، وسَّع نطاقَ وجوه تدخُّله في سنة ٢٠١٧ لتشمل بناء القدرات لأصحاب المصلحة الحكوميِّين، ولتخدم المجتمعات المُضيفة. وبتعاونٍ قامَ بين البرنامج ووزارة الشؤون الجنسانية والطفل والرعاية الاجتماعية، يشتمل البرنامج اليومَ على ٣٥ مُختصّاً اجتماعياً من وزارة الدولة في واو في غربيّ بحر الغزال، فكان عملهم متمِّماً لعمل موظَّفي المنظمة الدولية للهجرة في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وقد أسهم هذا في الاحتراف والخبرة العملية لهذه الفرقة، بالتدريب في أثناء العمل الذي يجمع بين العمل الاجتماعي ومهارات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة مثل معالجة الحالات الفردية، والإسعاف النفسانيّ الأوليّ، والمشورة الأساسيَّة، والإحالة.

ويركز المختصُّون الاجتماعيُّون همَّهم على بناء الاعتماد على الذات والفَاعليَّة عند أفراد المجتمع المحليّ. فباستمرار حضورهم ومشاركتهم اكتسبوا ثقةَ قادة المجتمع المحليّ وأفراده، ففسح ذلك لمناقشة المواضيع المهمة، مثل الحمل المبكر وتعاطي المخدرات والعنف بين الشباب، وللإحالة إلى الخدمات المناسبة عند الضرورة.

ويتشارك المختصُّون الاجتماعيُّون وموظَّفو دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في العمل على تيسير جلسات الحوار بين الأجيال في المجتمعات المُضيفة ومناطق العودة، فيعملون إما مباشرةً وإما بمعاونة المنظَّمات الوطنية غير الحكومية. ويُخصَّص للشَّباب من الأمكنة مثلما يُخصَّص لكبار السِّن للتعبير عن مظالمهم، مثل ما يلقاه كبار السِّن من عدم الاحترام والتواصل داخل نظام الأسرة، وما يلقاه الشباب من الإهمال. وهذا العمل إنما يقتضي لكي ينجح وقتاً ويُكرِّر الموظَّفون زيارة الأسر والمجتمعات نفسها. ثمَّ إنّ العمل مع المختصِّين الاجتماعيِّين وغيرهم من موظَّفي الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية يضع الأساس للمشاركة المجتمعية التي يسوقها التَّمكين في إعداد البرامج لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، فتُنقَلُ الموارد من ثمَّ وتُتبَادل المعارف مع الفاعلين الوطنيِّين فيستوُّون في تقديم الخدمات بمجرّد خروج الشركاء في المعونة الإنسانيَّة.

فطريقة المقاربة المجتمعيَّة لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة ضرورةٌ في دعم صُمُود الأفراد والمجتمعات وفاعليَّتهم في سياقات التَّهجير، وضرورةٌ في إتاحة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة للناس من مشارب مختلفة ليأتي الدَّعْم خُلُقيّاً وملائماً للثقافة ومستداماً، ثمَّ هي ضرورةٌ في معالجة حُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند الفرد والمجتمع داخلَ البنيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الأوسع التي تؤثر في عَيْش المُهجَّرين. وصحيحٌ أن سياقات الطوارئ وبنيات المعونة الإنسانيَّة عموماً يكثر أن لا تحثُّ على مقاربة دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة بطُرُق مجتمعيَّة، ولكنَّ الدَّعمَ المجتمعيَّ يظلُّ ممكناً فعلُه إذا دخل الفاعلون في العمل مع المجتمعات المحليَّة وضمَنوا أن يتحقق في إعداد البرامج ما يُعبِّر عن حاجات المجتمعات المحليَّة نفسها ومواردها.

غوليَالمو سكينينَا *contactpss@iom.int* @metonimia
رئيسٌ، في القسم العالمي للصحَّة العقليَّة والاستجابة النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتواصل بين الثقافات

مارين راغونو *contactpss@iom.int*
مستشارةٌ، في القسم العالمي للصحَّة العقليَّة والاستجابة النفسانيَّة الاجتماعيَّة والتواصل بين الثقافات

دمتْرُو نرسيسيَان *dnersisian@iom.int*
مَدير برنامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، في بنغلاديش

هَيْدَا رِيدَه *hrieder@iom.int*
مديرة برنامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، في جنوب السودان

من المنظَّمة الدوليَّة للهِجرَة

١. IASC *Community-Based Approaches to MHPSS Programmes: A Guidance Note*
(طرق المقاربة المجتمعية لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة: مذكّرة إرشادية)
bit.ly/IASC-MHPSS-community-based

٢. IOM (2019) *Manual on Community-Based MHPSS in Emergencies and Displacement*
(دليل دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة المجتمعيّ في الطوارئ والتَّهجير)
www.iom.int/mhpsed

النَّشاطُ البَدَنيُّ ودَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحالِ النفسانيَّة الاجتماعيَّة

سيمون روزنْبَوْم وألَسْتا أيْجَا ولِسْلي سنايدَر وأجوَنْغ واريَا وهُوْلي كوليسِن وصابرينا إرمُهسِيَا ودَيْفِي ڤانكَمبفُرت

النَّشاط البدنيّ (ومنه الرياضة) إستراتيجية مبنيَّة على الأدلَّة ولكنها غير مُقرٍّ بها في حماية دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وتعزيزها بين المُهجَّرين.

يتزايد في العالم سريعاً الإقرار بالعلاقة بين الصحة البدنية والصحة العقلية وحُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. وإذ قد كانت الصحة العقلية، مثل الصحة البدنية تماماً، مسألةً شاملة كان لعدد كثير من القطاعات والهيئات والجهات الفاعلة لها شأنٌ في تحقيق النتائج المثلى في هذا الميدان للمُهجَّرين. وتتزايد في البيئات ذات الموارد العالية والمنخفضة وجوه إدماج مزاولين متخصِّصين بالنَّشاط البدني مع تدريب على الصحة العقلية في فِرَق مُتعدِّدة التخصُّصات تُعزِّزُ حُسْن حال الصحة العقلية والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ويجب النظر في فرص مماثلة للمُهجَّرين من أجل تعظيم الأثر المحتمل للنشاط البدني من حيث هو إستراتيجيَّة لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

وكثيراً ما يُنظَر إلى النشاط البدني[1] على أنه ركنٌ في الوقاية من الأمراض غير السارية وعلاجها، ومع ذلك فأكثر السكَّان استضعافاً في جميع العالم، ومنهم المُهجَّرون والنِّساء والمعوَّقين من ذوي الاحتياج، كثيراً ما يكونون أبعد ما يكون من الوصول إلى النشاط البدني في البرامج أو إلى البنية التحتية أو الفرص. على أنَّ هناك قيمة واضحة في جَعْل تدخُّل النشاط البدني مُكوِّناً دَيدَنيّاً من مكوِّنات رعاية الصحة العقليَّة -مثل إيصال دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة- عند المُهجَّرين.

هذا، والنَّشاط البدني إستراتيجية مُجرَّبة للوقاية من وجوه الاضطراب العقلي وعلاجها، ولتعزيز حُسْن الحال والتَّواصل الاجتماعي، ولتعزيز الشعور بالجَّماعة. وهذا يشمل تخفيف عبء الاضطراب العقلي بتخفيف أعراض الاكتئاب والقَلَق والفُصَام واضْطراب الكَرْب التَّالي للرَّضْح ووجوه اضطراب في استعمال المَوادّ.[2] وتشير الأدلّة إلى أنه في فوائد الصحة العقليَّة نوع النشاط البدني أو شدَّته أقلّ أهميةً من جملة الوقت الذي يُقضَى فيه. ومن العوامل الرَّئيسة أيضاً وضع التمتُّع في الأولوية، وتعزيز الكفاءة الذاتية (إيمان الفرد بقدرته على تحقيق أهداف أداء معيّنة)، والتفضيل الشخصي، وهذه مُشيرات إلى مشاركةً طويلة الأمد في النشاط البدني.

هذا، وللمنظَّمة الدوليَّة للهجرة دليلٌ في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة المجتمعيِّ في الطوارئ يحتوي على فصلٍ مخصوص بالرِّياضة واللَّعب.[3] ويُقَرُّ فيه أن النشاط البدني والرياضة يمكن أن يُعدَّا جزءاً من دعم المجتمع والأسرة (وهما الطبقة الثانية من الهرم الذي ذكرته اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة)، ومن الدَّعم المركَّز غير المُتخصّص (وهو في الطبقة الثالثة)، ومن الرعاية المتخصصة بدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة أيضاً (وهي في الطبقة الرابعة من هرم اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات).[4] ويمكن أن تكون ألعاب المهاجرين وأنشطتهم البدنية جزءاً مهماً من ماضيهم وأن تُسهم في حفْظ الثقافة والاتّصال بسرديّات المُستقبَل في الألم والشِّفاء. وأيضاً يمكن أن يكون للرياضة والنشاط البدني شأن مهمّ في اندماج المُهجَّرين في المجتمعات.

هذا وإضافةً إلى تخفيف أعراض وجوه الاضطراب العقليّ، تُظهر أدلّة ناشئة أن النَّشاط البدني يقي من النوائب المستقبلية من سوء الصحَّة العقليَّة. وأما الأطفال المُعرَّضون لأحداث ضائرة بالطفولة، فتعد مشاركتهم في الرياضة الجماعيَّة واقيةً لهم من وجوه الاضطراب العقليّ في المستقبل. ويماثل ذلك أنَّ المشاركة في الرياضة مُقَرٌّ بأنها بالغة في الأهمية في العُمُد الستّة لتنشئة طفولية حَسَنة: الكفاءة والثقة بالنفس والشخصية والصلات، والرحمة والتعلُّم. ويضاف إلى ذلك الإسهام في التنمية الإجتماعية والانفعالية للأطفال في جميع الأعمار فيما له تعلّق بحل النِّزاع ومبادئ الإنصاف وتنمية مَلَكة المبادرة والقيادة والتواصل غير العنيف.

النشاط البدني ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وسياقات المعونة الإنسانية

الروهنغيا في بنغلاديش: وَجَدَ تقدير سريع أُجري في كُكْس بازار سنة ٢٠١٩ أنَّ لاجئي الروهنغيا حدَّدوا النشاط البدني بأنه إستراتيجية نفسانيَّة اجتماعيَّة أعانتهم على تخفيف «التوتر»، وهو تعبير محلي عن الضائقة.[5] وكان نقص الموارد (ومنها الأمكنة والمُعدَّات) أكبر عائق أمام المُشاركَة

على الرغم من الدعم القوي للنشاط البدني من قادة المجتمع المحلي. وأيضاً فقد كان الوصول مُقيَّداً لجماعات محدّدة، ومنها المعوَّقين من ذوي الاحتياج وكبار السن النساء (وذكرت النساء بسبب المخاوف الأمنية والمواقف الثقافية). ويقدِّم تقرير التقدير توصيات لموصلي خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، ومنها إبراز الألعاب والأنشطة اللائقة بالثقافة، وضمان تدريب موظفي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة على فوائد النشاط البدني وعلى إدراكهم إياها، واستعمال الأمكنة الصالحة للنساء والأطفال تُقدّم فيها برامج نشاط بدني مُخصصَّة لهاتَين الفئتين.[٦]

كلايمب أَيْد:

(ClimbAid) منظمةٌ غير ربحية للرياضة لأجل التنمية، تستعمل محاكاةَ تسلُّق الصُّخور تدخُّلاً في حال الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة. ويشتمل برنامجهم في لبنان على ما يسمَّى «الصخرة المتدحرجة»، وهو هي جدار تسلُّق مُتحرِّك يتيح التسلُّق المُعين على دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وغيره من الأنشطة البدنية للأطفال والشباب من السكَّان المحليِّين ومجتمع اللاجئين. وتُلقي النتائج الأولية لتقويم برنامج كلايمب أَيْد الضوءَ على إسهامه في تعزيز علاقات أحسنَ بين اللاجئين والمجتمعات المُضيفة، إذ يتحدَّى وجوه التحيُّز الجنسانيّ ويزيد الكفاءة الذاتية.

العلاج بالركمجة:

تستعمل الركمجة (أي ركوب الموج) للفئات السكانية المستضعفة في العالم لتعزيز الصحَّة والتَّمكين والإرشاد والإدماج المجتمعي وإقامة المشاركة. فمع مبادئ برامج العلاج بالركمجة والتعلُّم منها وإنشاء المنظمة الدولية للعلاج بالركمجة[٧] نشأ أساسٌ لوضع برامج النشاط البدني التي لها أهداف في الصحَّة العقليَّة، وأساس لقويم هذه البرامج وتوسيع نطاقها.

نادي أرسنَل لكرة القدم ومنظمة إنقاذ الطفل:

أُنشئ برنامج كوتشنغ فور لَيْف (Coaching for Life)، وهو نتائج مشاركة بين فريق كرة قدم محترف ومنظَّمة غير حكومية، استجابةً لبحث أجرته منظمة إنقاذ الطفل، فكان البرنامج إستراتيجيةً في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة لمعالجة العواقب السيِّئة بعد تعرُّض الأطفال للتوتُّر تعرُّضاً مُتَمادياً. وقد جُرِّب المشروع أوّل مرة في الأردن وإندونيسيا،

تسلُّقٌ بقصد دَعْم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة تجريه منظَّمة كلايمب أَيْد في سعدنايل بوادي البقاع في لبنان.

مفوضيَّة اللاجئين/حسين بيضون

«حينَ أركب المَوْج ينصرف ذهني عن كلّ شيءٍ آخر». قالها علي، وهو لاجئ سوريّ ابن ١٦ سنة يركب المَوْج في جبة بجنوبيّ بيروت.

وهو يستعمل كرة القدم لإعانة الأطفال على تنمية مهاراتهم في إدارة الانفعالات والتواصل واتِّخاذ القرار وتقدير الذات حق قدرها وتدبير الحال في النِّزاع.

المنافسة في مقابلة المُشاركَة في أوغندا:

ليس كلّ برامج الرياضة التي غرضها التنمية تأثيرٌ حَسَن على الصحَّة العقليَّة والمخرجات النفسانيَّة الاجتماعيَّة. إذ تبيَّن أنَّ دوري كرة القدم التنافسي في شمالي أوغندا كان له أثرُ سوء في الصحَّة العقليَّة للأولاد المشاركين. وتلقي التوصياتُ الناتجة عن ذلك الضوءَ على الحاجة إلى تحسين القدرات المحلية وتوفير الموارد للنشاط البدني الترفيهي غير التنافسي، وعلى أهمية أن يُدمَجَ في البرنامج تَدريبُ المُدرِّبين الرياضيِّين والمحترفين الرياضيِّين على دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.[٨]

المُؤسَّسة الأولمبيَّة للاجئين:

(The Olympic Refuge Foundation) أسَّستها سنة ٢٠١٧ اللجنة الأولمبية الدولية حتّى تدعمَ بالرياضة الحماية والتنمية والتمكين عند الأطفال والشباب المستضعفين. فكان من ذلك أن نشأت (عُدَّة الرياضة لأجل الحماية: إعداد البرامج مع الشباب في مواضع التَّهجير[٩]) وكانت نتاج تعاونٍ متعدِّد الهيئات بين مفوضيَّة اللاجئين واللجنة الأولمبية الدولية ومنظمة أرض النَّاس (Terre des Hommes) أقيمَ لتطوير مورد عملي للمزاولين العاملين في الرياضة حتَّى تتحسَّن المُخرَجات للشباب الذين يعيشون حال التَّهجير. وتتضمّن العُدَّة كلاً إرشاداً نظرياً وإرشاداً عملاً خطوة خطوة. وبعد نجاح تطوير العُدَّة، أطلقَ بيت الأفكار (Think Tank) التابع المُؤسَّسة الأولمبيَّة للاجئين في تموز/يوليو ٢٠٢٠. وقُصد به إلى توضيح شأن الرياضة من حيث هي إستراتيجية قائمة على الأدلة لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة للصحة، مع دعمها توليد الأدلة والموارد. ويشتمل بيت الأفكار التابع المُؤسَّسة الأولمبيَّة للاجئين ممثِّلين عن ميادين متنوّعة، ومنها التنمية الدولية وسياقات الطوارئ، والتخصُّصات السريرية (مثل الطب النفسي، وعلم النفس، والعلاج الطبيعي، ووظائف التمرين في الأعضاء)، وحماية الطفل، والتعليم، وبرامج ما بعد النِّزاع. وفي هذا التنوع فرصةٌ لإسقاط كثير من المُنعَزَلات القطاعية المعروفة

في السياقات الإنسانية، وسيُعين على تحقيق نتائج ملموسة ذات قوّة كامنة شديدة التَّأثير.

إدماج النشاط البدني في قلب دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة

ممكنٌ للمزاولين في ميدان دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة والمزاولين الرياضيِّين الذين يعملون في المُجتمعات المحليَّة المُهجَّرة أن يجعلوا القوّة الكامنة للنشاط البدني على حماية وتعزيز الصحَّة العقليَّة وحُسْن الحال النفسانيَّة الاجتماعية- أعظمَ ما تكون بعدَّة من الطُّرق. أولها، أنه كما ينبغي تدريب مزاولي دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة على المبادئ الأساسية لتعزيز النَّشاط البدني، ينبغي تدريب المهنيين الذين يوصلون النَّشاط البدني والبرامج الرياضية على المبادئ والمهارات الأساسية في الأقلّ لدعم الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة الأساسية، ومن ذلك الإسعاف الأولي النفسانيّ. وثانيها، أنه يُحتَاج إلى قدر أساسي من البنية التحتية لتقديم لإيصال الأنشطةً البدنية والبرامج الرياضية وضمان أن لا يُهمَل أكثر الناس استضعافاً. وثالثها، أنّ من الضرورة أن يُفكَّر فيما بعدَ الشبَّان الأصحاء وأن تُوسَّع خدمات النشاط البدني لتشملَ النساء والمعوَّقين من ذوي الاحتياج، وذلك بأمان وبوجه مناسب. وآخرها، أنه يمكن أن يتيح النشاط البدني -والرياضات الجماعية خصِّيصى- فرصةً للإرشاد ومساراتٍ لسُبُل المعاش التي ينبغي النظر فيها عند وَضْع برامج النشاط البدني بغيةَ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

سيمون روزْنَبَوْم
s.rosenbaum@unsw.edu.au @simon_rosenbaum
بروفيسورٌ مشاركٌ، في كلية طلب النَّفس، بجامعة إنيو ساوث ويلز بسِدْني

أَلَسْتا أَيْجَا *aager@qmu.ac.uk @AlastairAger*
بروفيسورٌ، في معهد الصحّة والتنمية العالميَّيْن، في جامعة الملكة مارغريت

لِسْلي سنايدر *les@redbarnet.dk @LeslieMSnider*
مَديرةٌ، في الجمعية التعاونية لدَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، التي تُضيفُها منظَّمة إنقاذ الطفل في الدانمارك

أجوَنْغ واريَا *ajwang.warria@wits.ac.za*
محاضرةٌ رئيسةٌ، في جامعة وِتْوَاترسراند

هُوْلي كوليسن *H.Collison@lboro.ac.uk*
محاضرةٌ رئيسةٌ، في معهد الأعمال الرياضية، بجامعة لوبورو في لندن

صابرينا إرمُهسيَا
shermosi@umich.edu @HermosillaSabri
مُحقِّقةٌ بحوث، في جامعة مِشغَن

دَيْڤي ڤانكَمبفُرت *davy.vancampfort@kuleuven.be @DavyVancampfort*
بروفيسورٌ مساعد، في قسم التَّأهيل والعلوم بجامعة لوڤان، وفي المركز الجامعي للطبّ النفسي التابع لجامعة لوڤان

١. يُقصَد بالنَّشاط البدنيّ كلّ حركة جسمانيَّة ومنها الرياضة والتمرين.

٢. Ashdown-Franks G et al (2020) 'Exercise as Medicine for Mental and Substance Use Disorders: A Meta-review of the Benefits for Neuropsychiatric and Cognitive Outcomes', *Sports Medicine* 50(1) (التَّمرين من حيث هو دواء لوجوه الاضطراب العقليّ واضطراب استعمال المواد: مراجعة مُترفِّعة لفوائد المُخرَجات العصبيّ النفسانيَّة والعِرفانيَّة)
https://link.springer.com/journal/40279/volumes-and-issues/50-1

٣. www.iom.int/mhpsed

٤. IASC (2007) *Guidelines on Mental Health and Psychosocial Support in Emergency Settings* pp11–13 (المبادئ التوجيهية في اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في شأن دَعْمُ الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة في الطوارئ)
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines
اقرأه باللغة العربية:
bit.ly/IASC-MHPSS-guidelines-ar

٥. Wells R et al (2019) 'Physical activity as a psychosocial intervention among Rohingya refugees in Bangladesh: a rapid ecological community assessment', *Intervention* 17(2) (النشاط البدني من حيث هو تدخُّل في الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة عند اللاجئين الروهنغيِّين في بنغلاديش: تقدير مجتمعيّ سريع بيئيّ)
bit.ly/Intervention-Wells-et-al-2019

٦. Ahmed M S et al (2019) 'Sports and physical activity in psychosocial interventions with adolescent groups of the Rohingya community in Bangladesh: potential, limitations and critical factors for success', *Intervention* 17(2) (الرياضة والنشاط البدني في التدخلات في الحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة لفئات المراهقين من مجتمع الروهنغيا في بنغلاديش: الإمكان والقُيُود والعوامل الحاسمة للنَّجاح)
bit.ly/Intervention-Ahmed-et-al-2019

٧. https://intlsurftherapy.org

٨. Richards J et al (2014) 'Physical fitness and mental health impact of a sport-for-development intervention in a post-conflict setting: randomised controlled trial nested within an observational study of adolescents in Gulu, Uganda', BMC *Public Health* 14(1) (تأثير اللياقة البدنية والصحة العقلية لتدخُّل الرياضة بغيةَ التنمية في أحوال ما بعد النِّزاع: تجربة عشوائية مُراقَبة تُداخل دراسة قائمة على الملاحظة للمراهقين في جولو بأوغندا)
bit.ly/BMCPublicHealth-Richards-et-al-2014

٩. bit.ly/Sport-for-protection-toolkit-2018

من موضع إلى مكان: نظرات ميدانيّة في تكيُّف الأمكنة الصالحة للأطفال في زمن داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)

جَهْنا مِتزْلِر وإميلين غابريل وفريدا ميوبي وكِڤن سَافِج

صحيحٌ أن داءَ الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) لا يُرَى منه اليومَ خطر على الأطفال، ولكنّ آثارَه غير المُباشرة، من حيث جائحته، في عَيْشهم وحُسْن أحوالهم النفسانيَّة الاجتماعيَّة قد تكون عميقة. ولذلك يمكنَ أن تكون الأمكنة الصَالحة للأطفال أعظم شأناً، ولا سيّما في سياقات التَّهجير المهلهلة.

الأمكنة الصالحة للأطفال هي إحدى أكثر وجوه التدخُّل الإنسانيّ اتِّخاذاً في دَعْم الأطفال اللاجئين والمهجَّرين والعناية بهم وحمايتهم، ففيها تُفتَحُ أحيازٌ ماديّة آمنة ومستقرة للأطفال يكونون فيها في حال حسنة ويبلغون من التنمية مبلغاً عظيماً. وتتمثل الأهداف الأساسية من الأمكنة الصالحة للأطفال في تعزيز حسن الحال النفسانية الاجتماعيّة عند الأطفال، لتكون بمنزلة آلية تقي من سوء المعاملة والاستغلال والعنف، ولتحشد الجماعات في دعم الأطفال ورعايتهم وحمايتهم.[1] وللأمكنة الصالحة للأطفال إصداراتٌ محمولة، إلا أنها كثيراً ما تكون ثابتة لا تتغيّر؛ ففيها جملةٌ من الأنشطة المنظمة واللعب الحر مما يحثّ الأطفال على إنشاء روابط قويّة بأقرانهم وبالبالغين، ويعزّز مهارات القراءة والكتابة الوظيفية، ويحسّن أحوالهم النفسانية الاجتماعية.

على أنّ ما دُرِجَ به من نماذج إعداد البرامج في دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيّة الاجتماعيَّة لم يُعَدَّ لسياقات الأوبئة، مثل إيبولا أو جائحة داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)، إذ يُؤخَذُ في هذه السياقات بتدبير الصحة العامة المُنقذ للحياة بغيةَ تقليل انتقال عدوى الداء فتُضرَبُ قيودٌ شديدَةٌ على الحركة والتفاعل الاجتماعي وإيصال الخدمات.

وفي لُجّة جائحة الحُمَة التاجيَّة (فيروس كورونا)، حيث يضطرُّ في التدخُّل بمثل الأمكنة الصالحة للأطفال إلى وَقْف العمل بسبب خطر انتقال العدوى، يَعترضُ المزاولينَ مُتحدِّياتٌ لم تعترضهم أشدّ منها قطّ، في أخذ أحسن السبل إلى دَعْم حُسْن الأحوال النفسانية الاجتماعية عند الأطفال، وأوّل المُتحدِّيات وسائل الدَّعم من بُعْد. وما زلنا نسأل أنفسنا كيف ننقل المُقدَّمَة الأصلية لنماذج إيصال الخدمات هذه المبنيَّة على الموضع إلى سياق داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)؟ وكيف يمكن أنْ نُحوِّل الموضع المادي إلى مكان مفاهيميّ من شأنه أن يفي بالأهداف الأصلية والنتائج المُثبَتَة[2] للأمكنة الصالحة للأطفال؟ هل يمكن أن يُعزَّز حسن الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية عند الأطفال، مع تخفيف الأخطار في انتقال عدوى داء الحُمَة التاجية؟

فشَرَعنا في سَبر إمكان وكيفيّة تحقيق ذلك في الأمكنة الصالحة للأطفال (في برنامج الاستجابة للاجئين في غرب النيل بأوغندا) ضمن تجربة عشوائية مراقبة ابتدأت سنة ٢٠١٨. ومع إعلان الجائحة في شهر آذار/مارس سنة ٢٠٢٠، أمرت الحكومة الأوغندية بإغلاق كلّ المؤسسات التعليمية بما فيها من أمكنة صالحة للأطفال. ولم يسمح إلا باستمرار الخدمات التي تُعدُّ في الضرورات ومُنقذات الحياة. وإنّا الآن معتمدون على عملنا الراهن في تقرير أفضل السبل إلى تكييف الأمكنة الصالحة للأطفال حتّى تعالج الحاجات الحاليّة في الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية عند الأطفال وأسرهم بسبب داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) وفي سياقه. ومن هذه التجربة أخرجنا أربع جمل من التوصيات في تكييف وضع البرامج للأمكنة الصالحة للأطفال، وفي تحديد طُرُق التعلُّم المختلفة المُستعمَلة أو التي يمكن أن يبلغها الأطفال داخل المجتمعات المحلية.

حُسْن حال المُراعين

أخبَر أكثر من ثُلُث الأطفال والمُراعين بمُرهقات جديدة ترهق المراعين أو تمّس الرعاية في جائحة داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩). ومن ذلك إغلاق الكنائس وإغلاق الحدود (فقُيِّدت حركة العائدين إلى جنوب السودان)، وانتفاء الأمن الاقتصادي، وقلّة السلع الماديّة لدعم قضاء الحاجات الأساسية، وانتفاء الدعم من الأقارب، والخوف من الحُمَة التاجية نفسها. وأيضاً فقد ذكر المُراعُون مُرهقات جديدةً جلبها داء الحُمَة التاجية عليهم إذ قلَّ لقاءُ الأطفال أصدقاءَهم. وأكثر ما ذُكِرَ من المُرهقات اثنتان: قلّة الغذاء وقلّة التعليم.

ففي غرب النيل، قد نَظَمَ الموظفون المحليون أنشطة متنقلة تعينهم على من بلوغ المُراعين وأطفالهم في المخيمات، مع

أُغلِقَت المدارس في أوغندا بسبب الجائحة، فأقامَ المعلّمون الصفوف في البيوت حتّى لا يشرد الأطفال عن طريق التعلُّم.

التزام إجراءات السلامة والتباعد الجسدي. ويقدّم للمُراعينَ جلسات في الطرق الحسنة لتربية الأطفال، متّبعين دليلَ تربية الأطفال الصادر عن الوزارة الأوغندية لشؤون الجنسانية والعمل والإنماء الاجتماعي، ووحدةَ تربية الأطفال في منظّمة الرؤية العالمية. وحين سُئلَ المُراعُون والأطفال عن طريقة التعلُّم التي يفضّلون أن يأخُذَ فيها التعليم في زمن داء الحُمَة التاجية، وأكثر ما ذكروا الإذاعة، على أنّ الكتب والمواد المطبوعة غلب ذكرها أيضاً. لذلك يمكن أن يكون البثُّ الإذاعيّ وسيلة مُعينةً يَبلغُ أثرها مبلغاً عريضاً في إمضاء ما هو حسنٌ من رسائل إلى الآباء والأمهات في تربية أطفالهم، وفي إزالة كلّ وَصْم أو أخبارٍ مغلوطٍ فيها عن داء الحُمَة التاجية. ويمكن أن يَحويَ البثُّ الإذاعيّ أخباراً عن داء الحُمَة التاجية، والوقاية من العنف، ورعاية المرء نفسه وتنبّه الفؤاد لما يحيط به، والرياضة التي يوجّه فيها فاعلها نفسه بنفسه، والتمارين البدنية، وأنشطة وظيفيّة في القراءة والكتابة والحساب. وإذ قد كان ربع المُستطلَعين فقط عندهم مذياع في منازلهم، كان من الضرورة أن تُوزَّع المذاييع وتوضع برنامج صيانة لها. ويمكن أن يُوَسَّعَ ما يجري اليومَ من حملات تزويد الأسر التي يَعُولها أطفال بمذاييع، لتشملَ دَعْمَ بلوغ أهداف الأمكنة الصالحة للأطفال لإفادة كلّ الأطفال في مخيم الاستيطان. وأيضاً يمكن أن يُدخَلَ في هذه الحملات إيصالٌ مباشرٌ للموادّ إلى الأسر، مثل المعلومات والمواد التعليمية والتواصلية أو عُدَد اللعب المُحسّن للحال النفسانية الاجتماعية، وذلك لتكون مصاحبةً للأنشطة التي يقودها مُيسِّرٌ في أثناء البّث.

الدعم المجتمعي للأُسَر

مع صعوبة الوصول إلى المجتمع المحليّ اليومَ بسبب القيود التي ضُرِبَت من أجل داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، ما تزال عدّة من الجماعات المجتمعية تبذل الجهد لتقليل انتقال عدوى الداء ولتعيين الأسر التي تحتاج إلى دعم حالها النفسانية الاجتماعية دعماً عامّاً وحال صحّتها العقلية دعماً مختصّاً. ولم يزل العاملون الصحيون المدربون والمتطوعون المجتمعيون يعملونَ معاً فينشرون رسائل فيها أخبار داء الحُمَة التاجية. ويمكن توسيع هذه المبادرة لتطوير ونشر رسائل فيما يصلح للأطفال من دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة، وبذل الجهد في تعزيز قدرات الجماعات في المجتمعات المحليّة وقدرات لجان حماية الطفل، والقادة الدينيين الذين يعملون أصلاً في نشر المعلومات بغيةَ مَنع انتشار الحُمَة ومُعالجةِ الوَصْم والمفاهيم المغلوط فيها.

هذا ويعمل العاملون في الإرشاد الاجتماعي وأعضاء لجنة حماية الطفل معاً لتعيين وإحالة حالات الصحة العقلية العالية الخطورة وحَشْد دَعْم زائد للأطفال المعوَّقين من ذوي الاحتياج. وقد كُيِّفَت الأساليب التقليدية في إدارة الحالات حتّى تَدْعَمَ من بُعد بالهواتف المحمولة فترصد الحالات وتستعلم بانتظام المُراعِين، ولا سيّما الذين عُيِّنَت عندهم حالات عالية الخطورة. على أنّ عددَ الأسر التي عندها هواتف محمولة قليل جدّاً. فكان لأعضاء لجنة حماية الطفل في هذه الفجوة شأنٌ مهمٌّ إذ كانوا وسطاء بين المختّص الاجتماعيّ والمُراعين. فإذا عُزِّزت قدرة أعضاء لجنة حماية الطفل في ميدان الإسعاف الأولي النفسانيّ، من حيث هي مكوّن رئيس من مكوّنات أدوات أكبر، أمكن أن يُحسِّن ذلك فهمَهم أفضلَ السُّبُل في الاستجابة لمن هم في ضائقة، فيقود ذلك إلى التحرّي المناسب والإحالة المناسبة في حالات الصحة العقلية العالية الخطورة. وقد أشارت دراسة حديثة بعقب تفشّي إيبولا في سيراليون إلى أنه حتى تدريب يوم واحد كان فعّالاً، ولكن ينبغي للمُدرَّبين أن يتلقوا تدريباً منشّطاً مستمراً على يد مُدرِّبين مَهَرَة، لضمان تطبيق المهارات تطبيقاً صحيحاً.[٣]

أندية الأطفال والشباب

ذكر السواد الأعظم من الأطفال عجزهم عن العودة إلى المدرسة –ولقاء أصدقائهم–، وأن ذلك رَأسُ مُقلقاتهم. وقبل إغلاق الأمكنة الصالحة للأطفال داخلَ المستوطنة، كانت أندية الطفال والشباب قادرة على جَمْع الطفال معاً، وتعزيز التماسك الاجتماعي، وبناء السلام، وحماية الطفل، وكانت أيضاً مفيدة في المناصرة التي يقودها الأطفال. وعند إغلاق الأمكنة الصالحة للأطفال، ازدهرت أندية الطفال والشباب، التي هي أصغر من تلك الأمكنة، خارجَ مقرّاتها التي حدَّتْها سابقاً. وفي أنشطتها التي يُيسِّرها القادة الدينيّون والجماعات المجتمعية فرصٌ تكون لهم عادةً في الأمكنة الصالحة للأطفال. وتتبع الجماعات جملةً من الجلسات مأخوذة من منهج لبناء السلام بقيادة الأطفال. ويساعد أعضاءُ نادي الأطفال المدرَّبون في ميدان الصِّحافة أيضاً في أنشطة الاستجابة لداء الحُمَة التاجية على إمضاء المعلومات الصالحة للأطفال عن النظافة الشخصية والوقايةَ من الحُمَة التاجية، سواء كان ذلك وجهاً لوجه أو بالهواتف المحمولة، وعلى نَشْر المعلومات عن حماية الطفل بالمذياع وفي أثناء الاجتماعاتَ المجتمعية، وعلى تعزيز سلامة الأطفال من العنف. وأيضاً يتواصل أعضاء الأندية مع الأُسَر التي يعولها أطفالٌ، ليوصلوا إلى الأساسيّ من رسائل حماية الطفل ودعم الحال النفسانية الاجتماعية.

وعلى الرغم من هذه الأندية لم يوصى بعقدها في أثناء اندفاع استجابة صحية لتفشّي داء حين يقع، يمكن أن تثبتَ هذه الأنديةَ أنها وسيلة رافدة لجهود الاستجابة التي يقودها الأطفال، ومن ذلك إنشاء ونشر معلومات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وحماية الطفل. وأيضاً يمكن أن يدعَمَ هذه المجموعات الصغيرة أفرادُ المجتمع المحليّ ومتطوّعون لتكييف المناهج النفسانية الاجتماعية القائمة (مثل فهرس أنشطة الأمكنة الصالحة للأطفال) بحيث يصلح من بُعد عقد مجموعات صغيرة أو تمارين بين الأقران.[٤] وأخيراً، أنشأت منظمة الرؤية العالمية وحدةً دراسيةً جديدةً في الأمراض العدوائية، تُعينُ أندية الأطفال والشباب على تكييف الرسائل والمواد في الصحة العقلية والحال النفسانية الاجتماعية بطُرُق صالحة للأطفال والمراهقين.

نُصرَةُ دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وحماية الطفل خدمتان أساسيّتان

عَنَى إغلاقُ الحكومة الأمكنةَ الصالحة للأطفال وعدّها إياها خدمةً غير أساسية أنّ ما تمسّ الحاجة إليه من حماية الطفل ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة متعذِّر الوصول إليه. وبمناصرة برنامج الأمكنة الصالحة للأطفال، وبمعاونة فرقة العمل المحليّة المعنيّة بحماية الطفل، أُعيدَت بالتدريج خدمات دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة وحماية الأطفال، وذلك بأيدي المرشدين الاجتماعيّين والعاملين الصحيِّين المُدرَّبين والمعلمين وقادة المجتمع المحلي. وقد كُيِّفت طرائق تقديم الخدمة سريعاً كما ذكرنا آنفاً بمشاورة المجتمعات المحلية، ومنها الأطفال. وعُيّنت حالات الصحة العقلية وحماية الطفل العالية الخطورة بالعمل من قُرب مع جماعات وقطاعات شتَّى في المخيمات. وشاركت مجموعات تنسيق حماية الطفل مراراً السلطات المحلية في نشر معلومات التقدير الجديدة والناشئة لدعم المناصرة والحثّ على تحسين الاستجابة للثغرات في خدمات حماية الطفل ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

الخاتمة

تُظهر الأدلة من الأوبئة السابقة، أنّ الأطفال في هذه السياقات قد يواجهون مخاطر متزايدة، من العنف والإهمال وسوء المعاملة والاستغلال واعتراض الخدمات أو انقطاعها، ومنها أنظمة الحماية، كلّ ذلك يجعل إعداد البرامج مثل برامج دَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة

الاجتماعيَّة أكثر أهميّة.[٥] وإذ قد كانت الأعمال الإنسانية في جميع العالم تضرَّرت كثيراً بداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، فقد أصبح تكييف إعداد البرامج محوراً رئيساً للهيئات: فكيف يمكن تكييف الأدوات ووجوه المقاربة حتّى تُحفَظ الخدمات الأساسية والدَّعم الإنساني بالسَّواء؟[٦] المأمول أن تكون نَظَرَاتُنا مفيدةً للآخرين وهم يحاولون الإجابةَ عن هذا السؤال، وإجراءَ التكييف في السنين المقبلة، إذ نستمرّ في التصدّي لهذه الجائحة ولغيرها في مستقبل الزمان. وتُبَدِّي منظّمة الرؤية العالمية اليومَ التعلُّم والتكيُّف في أدواتها ووجوه مقاربتها الأساسية بحسب داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، وتسعى إلى التعاون وإقامة المشاركات لفعل ذلك، ولا سيَّما في ميدان حماية الطفل ودَعْم الصحَّة العقليَّة والحال النفسانيَّة الاجتماعيَّة.

جَهْنا مترِلْر *jlm2200@cumc.columbia.edu*
بروفيسَورةٌ مساعدةٌ، في كلية مَيلمان للصحَّة العامة، بجامعة كولُمبيا

إيميلين غابريل *aimyleen.gabriel@worldvision.org.uk*
مستشارةٌ رئيسةٌ في برامج حماية الطفل، بمنظَّمة الرؤية العالمية في المملكة المتَّحدة

فريدا ميويبي *frieda_mwebe@wvi.org*
مختصَّةٌ بحماية الطفل في الطوارئ، بمنظمة الرُّؤية العالمية الدولية

كڤن سَافِج *kevin_savage@wvi.org*
مَدير البحوث الإنسانية، في منظّمة الرُّؤية العالمية الدولية

يشكر المؤلِّفون لمنظّمة الرؤية العالمية في أوغندا ولفرَق مركز الطفل الإفريقي (Africhild) دعمَها دراسةَ الأمكنةَ الصالحة للأطفال التي أفادت منها هذه المقالة، وموَّل هذه الدراسة منظمة إلرْهَا (Elrha) وبرنامجها المُسَمَّى ببحث الصحَّة في الأزمات الإنسانية (R2HC)، وزارة التنمية الدولية (DFID)، ومؤسَّسة وِلْكم ترَسْت (Wellcome Trust)، والمعهد الوطني للبحوث الصحيّة (NIHR).

١. Global Education Cluster, Global Protection Cluster, INEE and UASC (2011) *Guidelines for child friendly spaces in emergencies* (مبادئ توجيهية للأمكنة الصالحة للأطفال في الطوارئ) https://inee.org/resources/guidelines-child-friendly-spaces-emergencies

٢. Hermosilla S, Metzler J, Savage K, Musa M and Ager A (2019) 'Child friendly spaces impact across five humanitarian settings: a meta-analysis', *BMC Public Health* 19(1): 576 (وَقْعُ الأمكنة الصالحة للأطفال في خمسة أحوال إنسانية: تحليل مترفِّع) https://doi.org/10.1186/s12889-019-6939-2; Metzler J, Savage K, Yamano M and Ager A (2015) *Evaluation of Child Friendly Spaces: An inter-agency series of impact evaluations in humanitarian emergencies* (تقويم الأمكنة الصالحة للأطفال: سلسلة مشتركة بين الهيئات من تقويم الوَقْع في الطوارئ الإنسانية) https://doi.org/10.13140/RG.2.1.2745.4807

٣. Sijbrandij M et al (2020) 'The Effect of Psychological First Aid Training on Knowledge and Understanding about Psychosocial Support Principles: A Cluster-Randomized Controlled Trial', International Journal of Environmental Research and Public Health 17(2) (تأثير التدريب على الإسعاف الأوليّ النفسانيّ في المعارف والفهم بشأن مبادئ دعم الحال النفسانية الاجتماعية: تجربة عنقودية عشوائية مُراقَبة) www.mdpi.com/1660-4601/17/2/484

٤. https://app.mhpss.net/?get=49/cfs-activity-catalogue.pdf

٥. World Vision International (2020) COVID-19 *Aftershocks: Secondary impacts threaten more children's lives than disease itself* (الهزّات اللاحقات لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩): التأثيرات الثانوية تهدّد حياةَ الأطفال أكثر ممّا يهددها الداء نفسه) bit.ly/WVI-C19Aftershocks-2020

٦. ACAPS (2020) COVID-19 Impact on humanitarian operations: Quick survey (وَقْعُ داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) في العمليّات الإنسانية: استطلاع سريع) bit.ly/ACAPS-covid-impact-survey-April2020

أَقِمْ التعاون بينك وبين نشرة الهجرة القسرية لتُعزِّزَ طلبَ تمويلك

أُدرِجَت نشرة الهجرة القسرية عدداً من المرّات في طلبات تَمْويل ناجحة لإعداد البرامج والبحوث (ومن هذه الطلبات ما أُرسِلَ إلى مجلس البحوث الأوروبيّ، والاتحاد الأوروبيّ، ومجلس البحوث النرويجيّ، ومؤسّسة وِلكم ترست الخيريّة)، فاستفاد المُدرِجُ والمُدْرَج بذلك خيراً.

يرغب المموّلونَ في أن يروا كيف ستنشر نتائج بحثك وما فيه من دروس لتصل إلى أوسع نطاق من القرّاء يمكن الوصول إليه، ومنهم صانعو السياسات؟ ويريدون أيضاً أدلّةً على تأثير البحث. **وهاهنا تُعينَكَ نشرة الهجرة القسرية.**

لعلّك تُدرِجُ عدداً من نشرة الهجرة القسرية أو موضوعاً مُصغّراً من النشرة في مقترحك (وفي ميزانيّتك)، وذلك لكي يُوسَّعَ نطاقُ نَشْرِ ما يُتَحصَّل من مشروعك وتأثيرُهُ. إذ يمكننا أن نزوِّدَ مشروعك بمعلومات مخصصة له، وبأدلّة على أثره وانتشاره ووصوله إلى حيث يحسن له أن يصل. **فإن شئتَ مناقشةَ الخيارات، فاتّصل بأسرة التحرير من طريق fmr@qeh.ox.ac.uk.**

معطيات وأدلة في الهجرة القسرية: نظرات في التقدُّم والمُتحدِّيات

إيْون مَكْلِيُود

تقدَّمت في العقود الأخيرة جماعات العاملين في ميدان المعونة الإنسانية والإنمائية تقدُّماً عظيماً في جَمْع المعطيات واستعمالها في دعم إعداد البرامج. ومع ذلك، ما تزال هناك متحدِّيات وثغرات كبيرة تستدعي طُرُق مقاربة جديدة وإقامة مشاركات جديدة.

عندما اعتُمدَت أهداف التنمية المستدامة وجدول أعمال ٢٠٣٠ في نيويورك شهرَ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، بيَّنَ الطموح في «أنْ لا يُترَك أيّ شخص متخلفاً عن الرَّكب» و«أنْ يُبلَغَ إلى أبعد المُتخلفين عن الرَّكبَ أولاً» بيَّنَ تماسكاً عالميّاً مُجدَّداً في مزيد عمل لتقليل الفقر. وفي حين أن أهداف التنمية المستدامة نفسها لا تحتوي على أحكام مُحدَّدة للمُهجَّرين والمهمَّشين، بدا بوضوح أن إدراجهم فيها سيكون من الأولويّة إن كان هذا الهدف ممكَن التَّحقيق. وكان الأمر الأقلّ وضوحاً كيفيّة إنجاز توليد المعطيات والأدلّة لإثبات تقدُّم التنمية عند هؤلاء السكّان. وعلى وجه الخصوص، كيف يمكن تسخير التقدُّم في المعطيات والتِّقانة الرَّقمية للوصول إلى البلدان والأشخاص الذين يظهر أنهم مَحصُورُون في دوَّامة طويلة من النِّزاع والإقصاء والفقر؟

وكان في الأحكام التفصيلية لأهداف التنمية المستدامة جملةٌ مفيدةٌ، وإن كانت بعيدةَ الشَّأو، من الأهداف والمشيرات يقاس بها التقدُّم في جدول أعمال ٢٠٣٠،[1] وقد أُخِذَت فكرة جزء من هذه الأهداف من التطوُّر السَّريع في التِّقانة والقدرات الرَّقمية التي أتاحت أخذَ المعطيات أخذاً أوسعَ وأكثر نجوعاً في خلال العقدَين الماضيين. وأيضاً أُبرِزَت الحاجة إلى معطيات وأدلة أكثر تدقيقاً في الاتفاقَين العالميَّين: اتفاق اللاجئين واتفاق الهجرة.

ونظراً إلى جهود فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين التي أُنشِئَت بعناية لجنة الإحصاء في الأمم المتحدة سنة ٢٠١٦، أخذ يَنشأ مَذاك مشيرٌ إلى إدراج السكان المُهجَّرين.[2] وهو أمر يبشر بخير في إدراج هذه الفئات إدراجاً أكثر انتظاماً في ضمن ما يبذل من جهد جَمْع المعطيات والإحصاءات الوطنية. وهو أيضاً أمرٌ ينشئ اندفاعاً للتَّفكير الذي تشتد الحاجة إليه في عدّة من المسائل التعريفية المتعلقة بالتَّهجير التي ما تزال تقتضي حلّاً.

وعلى الرغم من التقدُّم المنجز في المعايير، عَرَضَ بسرعة عددٌ من المُتحدِّيات المألوفة. فانتفاءُ الأمن والنِّزاعُ والعُنفُ، كلّ ذلك عوَّق جَمْع المعطيات جمعاً مَدقّقاً وآمناً في كثير من أفقر بلدان العالم. إذ يتركز الفقر تركّزاً متزايداً في هذه الدول نفسها، حيث كانت القدرات الحكومية على توليد الإحصاءات الوطنية ضعيفة. وكانت عاقبة ذلك أنْ لم يكن هناك معطياتٌ تكفي للتَّحليل المحتاج إليه. فمن بين ١,٥ مليار شخص من أكثر الناس عرضةً لخطر الإقصاء من وَعْد جدول أعمال ٢٠٣٠، هناك ٧٩ مليون مُهجَّر ونازح داخليّ على التقدير داخلَ بلادهم أو خارجها.[3]

هذا، ومن طَبْع التَّهجير والتنقُّل أن ينتج عنهما قضايا اقتصادية وسياسية يمكن أن تمنع إدماج اللاجئين والمهاجرين وعديمي الجنسية والنازحين الداخليِّين في الإحصاء الوطني للسكان وأعمال التسجيل الضرورية. ففي حالة اللاجئين والمهاجرين، لا ترغب عدّة من الحكومات المُضيفة في تخصيص الموارد لجمع معطيات مفصَّلة عن مواطني بلدٍ آخر. وكثيراً ما يُعوِّق الأمن والوصول والتنقُّل والإرادة السياسيّة جعلَ جَمْع المعطيات عن النازحين الداخليِّين في الأولوية. وبقطع النظر عن مكاسب الكفاءة المرتبطة بالاستحداث التقني، هناك قضايا تتعلق بالحماية والسِّرية تَجعلُ جَمْع المعلومات من قِبَل الدول عن المستضعفين والمُهمَّشين أكثر تعقيداً وحَسَاسيةً.

وقد جرت العادة في الطوارئ بأنَّ أكثر من يَجمَع المعطيات عن المهجَّرين الهيئات الإنسانية والنظراء الحكوميون. وقد ركزت هذه الجهات همّها أولاً في جمع المعلومات الكميَّة وتقدير الحاجات الأساسية التي لا بدّ من أن تُقضَى. ومع مرور الزمن تحسَّن المبلغ الذي بلغته هذه التقديرات وجَوْدتها وإيصالها تحسُّناً عظيماً. وأصبحت المعطيات المُصنَّفة في وجوه الضَّعف سِمَة قياسية في الاستطلاع الإنساني.

وأيضاً، فقد كان لتطبيق التِّقانة الرَّقمية تأثيرٌ مهم في البنية التحتية للهيئة وفي موظفيها وكفاءتها. إذ إنَّ الجَمْع المعطيات سريعاً وإدماجها الأكثر انتظاماً في إعداد البرامج والميزانيات أفادَ التَّنفيذ واستعمال الموارد. ومن الأمثلة البيِّنة على ذلك استعمال تقانة الهاتف المحمول في التَّسليم الفعَّال للحوالات المالية. فهذه التطورات الحَسَنة إنما تمثل تقدُّماً عظيماً في سُنَن العمل المتّبعة في ميدان المعونة الإنسانية.

المخاطر والمُتحدِّيات والمخاوف

على أنّه ما تزال هناك مسائل وثغرات كبيرة، وبعضُ السَّبب في ذلك انتشار نُظم المعطيات والتطبيقات نفسها، وبعضُه أيضاً ارتفاع

لاجئ من جنوب السودان وهو يتسجَّل في مركز العبور بآرو في مقاطعة إيتوري، من جمهورية الكونغو الديمقراطية .

عدد الأزمات المتمادية. وقد بُولِغَ أحياناً في الأقوال المتعلقة بإمكان التَّحويل، في حين تُغُوضِيَ عن المخاطر المتعلقة بجَمْع المعطيات وخَزْنها ونَقْلها، وذلك للاستعجال في ضَمِّ القدرات الرَّقمية.

هذا وأدَّت جهوزيَّة تِقانة المعلوماتيَّة الجديدة إلى ظهور مُتحدِّيات جديدة ومختلفة اعترضت كلّاً من المُعيِنين والمُعَانين. فقد يكون بيِّناً لمواطني بلد من البلدان المزايا المُحتمَلة في معطيات القياس الحَيَوي (البيومتريّ) القابلة للتشغيل البَينيّ مثلاً. لكنَّ مثل هذه الأنظمة يمكن أن تجلب مخاوفَ قانونيةٍ وأمنية للاجئين وأن تمثل عقبات عملية في طريق الإدماج إذا أُنشِئت بموازاة النماذج الوطنية.

وقد تزامنت مكاسب الكفاءة المحتملة من استعمال التقانة الرقمية مع زيادة تركيز الدول المانحة على القيمة بالقياس إلى المال والمحاسبة. وفي الوقت نفسه، يستدعي الاستعمال الأكثر انتشاراً لتقانة المعطيات مزيدَ استثمار في رأس المال والمُعدَّات والموظَّفين والتدريب الاختصاصيّ. وأيضاً يشير الكمّ الكثير من المعطيات الموجودة إلى درجةٍ أعلى من الجهد المبذول في المعالجة وإعداد التقارير. ويُضَاف إلى ذلك، أنه في انتفاء الاتفاق على مبادئ وإجراءات تشغيل معيارية لإخراج المعطَيات وجَمْعها ونقلها، تزايدت المخاوف من جودة المعطيات وأمنها.

ومع زيادة عدد الاستطلاعات والتقديرات، زادت الحاجة إلى مزيدٍ من التنسيق في المحتوى والتَّسليم لتجنُّب التكرار بلا فائدة والسَّأم في المقابلات. فحدثت وجوهٌ من الاختلال كبيرةٌ بين كمِّ المعطيات التي وُلِّدت حديثاً والقدرة على تحليلها بعمق أو تحويلها إلى مادة في السياسة العامّة أو البرامج. وأدَّت زيادة الملكية وإمكان وصول المهجَّرين أنفسهم إلى المعطيات والمعلومات إلى بعض اضطراب في العلاقة بالمُعِينينَ ودفع إلى تفكير جديد في شؤون عدَم المساواة والمحاسبة.

ومع ذلك، لا يلزم من التقانة نفسها أن تُغيِّر وجوه عدم المساواة أو أن تقلِّل وجوه الضعف من تلقاء نفسها. وبالعكس يمكن أن تعزِّز التقانة وتقوِّي علاقات القوة غير المتكافئة في المستوى المنظَّمي والمحلي والأسري والفردي. وأيضاً فللفَجْوة الرَّقمية بُعدٌ جنسانيٌ وعرقيٌ وسلاليٌ. وتستدعي معالجة وجوه الاختلال

هذه التزاماً سياسيّاً بمزيدٍ من الإدماج، وبسياساتٍ تمكينيَّة، وبترتيبات تنفيذٍ دَاعِمة.

ثم إنّ أخذ المعطيات الأكثر فاعلية وكثافة يزيد المخاطر في الأَمْـن والسرِّية. إذ يمثّل التسرّب المحتمل، العَرَضيّ أو غيره، للمعلومات الشخصيَّة والخاصَّة مخاطرَ معيَّنة تحيط بالمستضعفين والمُعنين الإنسانيِّين حَيثُ لا أمان في التشغيل. وأيضاً فتقاربَ المصالح بين شركات المعطيات في القطاع الخاص وبين الدول في ميدان جَمْع المعلومات الأمنية والاستخباريّة يُثير عدداً من النُّذُر لمنظّمات المعونة الإنسانية.

ومع ذلك، فقد ألقى العدد المتزايد من البلدان العالقة في أزماتٍ مُتمادية الضوءَ على الحاجة المُلحَّة إلى تقليل وجوه الضعف وإلى الاعتماد على برامج الطوارئ قصيرة الأجل وعلى التمويل. وكما هو مُقَرٌّ به واسعاً فهذه الأمور غير مستدامة ويمكن أن تثبط نموَّ القدرات الوطنية. وأيضاً فقد أدَّى ارتفاع الكلفة إلى عَقْد وجوه من الالتزام جديدة لدعم مزيدٍ من التعاون والتكامل بين الفاعلين في ميدان المعونة الإنسانية وميدان الإنماء وبناء السلام وحلّ النزاعات، ومن أهمّ المكوِّنات في ذلك الاهتمامُ المُشترَك والالتزام بتوليد معطياتٍ وأدلَّةً موثوقاً بها.

هذا ويُحتاجُ إلى معطيات أكثرَ تفصيلاً في استهلاك الأسر المعيشية وأصولها ومصادر دخلها لرَسْم السياسات وإعداد البرامج المناسبة لمكافحة الفقر وتعزيز التنمية الاجتماعية الاقتصادية. وينبغي في مواضع التَّهجير أن يشتمل الاستطلاع على جَميع السكّان المتضررين حتَّى يُعزَّز التَّماسُك الاجتماعيّ ويُضمَنَ تَحقيقُ التَّكافؤ. ويقتضي الأمر بذلَ قَدْرٍ من الجهد والوقت والموارد أكثرَ كثيراً في تصميم هذه الإجـراءات وتنفيذها. ومع ذلك، فبدون هذا الاستثمار سيكون أسَاسُ الدعم الأكثر إنصافاً والأطول أمداً مَفقوداً.

وقد ألقى حجم الأزمة السورية الضوءَ على الحاجة إلى تقدير الآثـار الاجتماعية والاقتصادية، لا التي أثّـرت في المهجَّرين فحسب، ولكن معها التي أثّرت في اقتصادات البلدان المُضيفة وسكّانها. وكشفت هذه الأزمـة عن ثغرات مهمةٍ في نظام جَمْع المعطيات العالمية وتعريفاتها ومنهجياتها المُستعملَة أصلاً في الأهداف الإنسانية. وسدُّ هذه الثغرات لا يقتصر على زيادة الاستثمار التقنيّ في توليد المعطيات. ففي الكثير من البلدان المتضرِّرة بالأزمات، يدخل في سدّ الثغرات التغلُّب على كثير من العقبات العملية، مثل وَهن البنيَّة التحتية، وضعف التَّوصيليَّة، وتقييد الوصول، والأحوال الأمنية التي يعتاص توقُّعها. وآخر شيء، في الترتيب لا في الأهميّة، أنّ تحويلَ المعطيات إلى أدلّة تُغيِّرُ في السياسة العامّة وفي القدرات المؤسَّسية والتنفيذيَّة لا يُحقَّقُ بالاقتصار على الأعمال التقنيّة المحضة. فلا بدَّ من أن يصاحب ذلك دبلُماسيَّةٌ حَسَنةُ الحيلة ومهارةٌ سياسية تحثُّ على التغيير وتَحفزُهُ.[٤]

وحين أُطلقَت أهداف التنمية المستدامة كانت إحصاءات التَّهجير في العالم تستند في كثير من الأحيان إلى إجراءات التسجيل الابتدائيّ في الطوارئ، أو كانت تُؤخَذُ من مصادر ثانوية.[٥] ولم يكد يكون هناك جُمَلُ معطيات أو أدوات فردية أخذت ما يخلّفه التَّهجير من آثار اجتماعية اقتصادية طويلة الأمد في الآمال الإنمائيّة للسكّان المتضرِّرين. ومذّاك لم يزل يُلحَظ الازدياد في عدد الدراسات والاستطلاعات والتقديرات التي أجريت في طائفة واسعة من البلدان، وكثير منها أُجري من طريق النُّظُم الوطنية.[٦] إلا أنها ما تزال متواضعة في الاستيعاب، لذلك ما تزال الحاجة إلى توسيع نطاقها تُلحُّ. ولكن التقدُّم مُشجِّعٌ، إذ يُقرُّ عددٌ أكثر من البلدان بالفرَصَ المتاحة من طريق الحصول على معطيات مُدقَّقة قابلة للمقابلة.

على أنَّ القدرات الوطنية على الإحصاء وجَمْع المعطيات في البلدان المتضرِّرة بالنِّزاع العنيف بها حاجة ماسّة إلى تنمية المؤسسات وتقويتها. ويُعدُّ توسيعُ القدرات الرقمية وتَثبيتُ البنية التحتية والتوصيليَّة الملائمتَين أموراً لا غنى عنها في دَعْم أهداف التنمية الوطنية والبشرية التي هي أوسع. ويُلقي اتفاق اللاجئين العالمي الضوءَ خصوصاً على الحاجة إلى حَشْد موارد أكبر لدعم مثل هذه المطالب في مواضع التَّهجير.

ويُضَاف إلى ذلك، أنه ما تزال هناك عقبات سياسية مُهمَّة تحول دون إدماج المُهجَّرين. فمع المسائل العملية في الوصول والموارد هناك مخاوف حول التركيبة السكّانية العرقية أو الدينية، وحول احتمال أن تُستعمَلَ المعطيات والأدلة في أغراض سياسية وأمنية. وفي مثل هذه السياقات، يجب في الفوائد الإنمائية التي لا شكّ فيها الناتجة عن الاستثمار في التِّقانة الرقمية الجديدة أنْ لا يُهمَلَ البتَّة احتمال إساءة استعمال المعطيات، ولا سيَّما المعلومات الشخصية. ويجب أن يأخذ هذا الشاغل في الاعتبار أخذاً أعمق في السياق السياسي والأمني وإطار الحوكمة والمنهجيات والبروتوكولات التي يعمل بها مُقدِّموا المعطيات. وأمّا المهجَّرون فيمكن أن

تكون خدمات المراسلة مصدر تمكين للمعلومات، ويمكن أن تكون الهواتف المحمولة عواملَ تمكين فعّالةً في الحوالات المالية، وأن تكونَ وسائل مفيدةً في الحصول على المعلومات عن أحوال صلاح المعيشة لتعلم بها هيئات المعونة حين يكونِ الوصول مُقيَّداً. وأمّا الحكومات التي تسعى إلى التحكّم بالتنقُّل أو تثبيطه، فيمكنها أيضاً الكشف عن معطيات مهمة في الحركات والمواقع والمقاصد.

وفي أسوأ المشاهد حالاً، يُعزِّزُ استعمالُ الدُّول التِّقانةَ الرقمية المُتقدِّمة القدرات على المراقَبة وجَمْع المعلومات الاستخباريَّة، ممّا يمكن تشغيله لاعتقال الجماعات والأفراد وحَجْزهم وإبعادهم. فسلطة الحكومات على الاجتهاد في استعمال المعلومات تستدعي الانتباه إلى شروط مشاركة المعطيات وأحكامها من قِبَل الشركاء في التنمية وشؤون المعونة الإنسانية.

ثمَّ هناك مسائل أخلاقية مهمَّة في جَمْع وتَبَادل المعلومات الشخصية المستخرجة من فئات المستضعفين، ولا سيَّما اللاجئين والمهاجرين (الذين قد لا يكونون محميِّين بموجب القوانين الوطنية في حماية المعطيات وأمنها). وتبتدئ هذه المسائل من قَبُول الأفراد الذين انتُقُوا جَمْعَ هذه المعطيات واستعمالها، وثمَّ الالتزام الرسميّ بحماية المعطيات وخَزْنها ونقلها بأمان، ثمَّ إخفاء الهوية المنهجيّ في كلّ المُعرِّفات الشخصية التي يمكن أن تعرِّض سلامة الأفراد للخطر.

وقد أدّى في العقد الماضي انتشار التقانة الرقمية وتطورها سريعاً إلى نشوء مستحدثاتٍ كثيرة في كلٍّ من التطبيقات والمُعدّات. على أنّه أدّى أيضاً إلى التَّجزُّؤ في جَمْع المعطيات واستعمالها في الأحوال التي تقتضي المعونة الإنسانية، ويعزى بَعضُ السبب في ذلك إلى زيادة عدد المُشارِكين. واستجابةً لذلك كَثُرَ كثرةً بيّنة إنشاءُ بروتوكولات حماية المعطيات واتفاقيات التشارك فيها والتوجيهات الأخلاقية والتقنية الشاملة التي يُقصَدُ بها إلى تنظيم الميدان.

كلّ ذلك يُمثِّل جملةً عريضةً من سُنَن العمل الحَسَنة مع إمكانِ حقيقيّ لتوسيع المبدأ الإنساني الأساسي: «الامتناع عن الإضرار» حتّى يدخُلَ الفضاءَ الرَّقمي. وهذا إنما يُبيِّن من نفسه إدراكاً أوسع بينَ المزاولين بالحاجة إلى تهدئة الحماسة في تقانة المعطيات مع قَدْرٍ أكبرَ من التعقُّل في تطبيقها واستعمالها الخُلُقيّ. ولكن ربّما كان المُحتاج إليه، بالنظر إلى الطَّبْع الحَرَكيّ (الديناميكي) للقطاع، إدخالَ بعضِ المبادئ الأساسية في مدونةٍ من مدوّنات قواعد السلوك أو في جملة من المعايير الدنيا التي ينبغي لكلِّ أصحاب المصلحة التزامها.

مقاربة مشتركة لتقوية القدرة

كان من الاستجابة للاهتمام المتزايد بالأدلة الاجتماعية الاقتصادية وبتعزيز نظام المعطيات العالمي في التَّهجير المتمادي- أنْ وافق البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين على توحيد جهدهما ومواردهما ليُنشئا في كوبنهَاغن مركز المعطيات المشترك بين البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية. وكان التركيز بخاصة على دعم طُرُق المقاربة الإنسانية والإنمائية التكميلية لتوليد المعطيات الأولية واستعمالها من قِبَل طائفة واسعة من أصحاب المصلحة المشاركين في البلدان المتضرِّرة بالنِّزاع والعنف.

فحُدِّدت أربعة أهداف رئيسة في مركز المعطيات المشترك: ١) الحثُّ على جَمْع أكثرَ منهجيةً في جَمْع المعطيات الاجتماعية الاقتصادية عنَ المُهجَّرين، ٢) جَعْل معطيات الهجرة القسرية مصدراً مفتوحاً مع إخفاء الهوية واتِّخاذ إجراءات وقائيّة تفي بالشروط القانونية في حماية المعطيات، ٣) دعم الاستحداث لتحسين جَمْع المعطيات، ٤) تقوية الاستدامة في الأنظمة العالمية لجَمْع المعطيات.

على أنّ المرحلةَ الأولى من برنامج العمل في مركز المعطيات المشترك الذي مدّته أربع سنين تتزامن اليومَ هي وجائحة داء الحُمَة التاجية (فيروس كورونا). وليس غريباً أنّ هذا قيَّد الجهود المبذولة لدعم جمع المعطيات في الميدان بالتفاعل وجهاً لوجه -وهو هدف أساسي- ولكنَّه أعان أيضاً على تعزيز الأهمية العظيمة لإدراج المُهجَّرين والمُهمَّشين في برامج الصحة العامّة والحماية الاجتماعية. وقدَّمت دراسة حديثة دعمها مركز المعطيات المشترك بين يديها بعض الأفكار العميقة في تأثير داء الحُمَة التاجية في المُهجَّرين. وورد فيها أيضاً مثال أوَّلي في أنَّ الجَمع بين جَمْع المعطيات جَمْعاً مستحدثاً والتصميم المضبوط للعيِّنة والتحليل المُدقَّق يمكن أن يأتي برؤى قابلة للتَّنفيذ حتَّى في أماكن التشغيل التي فيها ضَرَر.[٧]

هذا، ويطمح مركز المعطيات المشترك بعمله ومشاركاته إلى جَعْل الأحوال الاجتماعية الاقتصادية المتوسّطة الأمد والطويلة الأمد عند المُهجَّرين أكثرَ وضوحاً وسهولةً للوصول إليها، وإلى تقوية القدرات عند أصحاب المصلحة المُهتمِّين لتمكين التقدُّم في تحسين النتائج لهم. وتُقدِّم المقالات الواردة في هذا الموضوع الخاصّ من نشرة الهجرة القسرية

أفكاراً عميقةً في بعض من المسالك والمنهجيات الرئيسة التي سيأخذ فيها مركزُ المعطيات المشترك ويحثُّ عليها في مستقبل الزمان.

إيْوِن مَكْلِيُود *ewen.macleod@gmail.com*
مدير شؤون الصُّمود والحلول سابقاً في مفوضيَّة اللاجئين، ومستشارٌ خاصّ للمفوَّض السامي

١. SDG 17 https://sdgs.un.org/goals/goal17
٢. bit.ly/Eurostat-IRRS
٣. World Bank (2017) *Forcibly Displaced : Toward a Development Approach Supporting Refugees, the Internally Displaced, and Their Hosts*, Chapter 1 (المُهجَّرون: نحو طريقة إمائيّة في المقاربة تدعم اللاجئين والنازحين الداخليّين ومُضيفيهم) bit.ly/WB-10986-25016
٤. See Read R, Taithe B and Mac Ginty R (2016) 'Data hubris? Humanitarian information systems and the mirage of technology', *Third World Quarterly* 37(8) (العجرفة في المعطيات؟ نُظُمُ معلومات المعونة الإنسانيَّة وسراب التِّقانة) https://doi.org/10.1080/01436597.2015.1136208 bit.ly/TWQ-37-8-Read-et-al
٥. انظر تقرير الاتِّجاهات العالمية: التَّهجير في سنة ٢٠١٥ bit.ly/UNHCR-Global-Trends-2015
وانظر التقرير السنويّ لمركز رصد النُّزوح الداخلي سنة ٢٠١٥ www.internal-displacement.org/publications/annual-report-2015
٦. انظر على سبيل المثال:
Verme P and Schuettler K, 'The Impact of Forced Displacement on Host Communities: A Review of the Empirical Literature in Economics' (وَقْعُ التَّهجير على المجتمعات المُضِيفة: مراجعة الدراسات التجريبية السابقة في علم الاقتصاد) bit.ly/JDC-Verme-Schuettler-2019
٧. www.jointdatacenter.org

نَظْمُ استطلاعات المعونة الإنسانية على معايير الإحصاء العالميَّة

فِيلِكْس شمدنگ

فَوائدُ جمَّة يمكن جنيها من إخراج إحصاءاتٍ مألوفةٍ تستعملها الحكومات وشركاؤها في التنمية.

حين نشر مكتب الإحصاء الوطنيِّ في كينيا إحصاءات اليد العاملة من الاستطلاع المتكامل الذي أجراهُ بين سنة ٢٠١٦ و٢٠١٦ على الأُسَر المعيشية، وجِدَ أن ٧٢٪ من الكينيِّين الذين في سنِّ العمل كانوا مُوظَّفين.[١] وبلغت النسبة في مقاطعة تورکانا ٦٢٪، إلا أنَّ هذا الاستطلاع الوطنيّ استبعدَ مخيمات اللاجئين. وقد وجد استطلاع أجرته مفوضيَّة اللاجئين وبرنامج الغذاء العالمي سنة ٢٠١٦ أنَّ ١٦٪ فقط من الأسر في مخيم كاكوما للاجئين –في مقاطعة تورکانا– ذكرت أن فيها فرداً واحداً في الأقل يعمل.[٢]

ويصعُب المقابلة بين هذين الإحصاءين لأسباب عدّة. ففي الاستطلاع الوطني يُسأَلُ عن توظُّف الفرد، وأما استطلاع اللاجئين فعن توظُّف الأسرة. والاستطلاع الوطني، إذ أُجري بدعم تقني من البنك الدولي، يتوافق هو والتعاريف المتعلقة بإحصاءات العمل كما هو منصوص عليه من قِبَل الهيئات والمعايير الدولية، وأما استطلاع اللاجئين فقد سأل سؤال يسيراً: «كم عدد العاملين من أفراد الأسرة؟»، وهذا يُصعِّبُ المقابلة بينها.

وفي حين أن تنفيذ كلا الاستطلاعين كان قوياً من الوجهة التقنيّة عموماً، يُبيِّنُ هذا المثال كيف أنَّ الاستطلاعات التي تُجريها المنظمات الإنسانية تُنشَأ في الغالب وفيها غايةٌ إنسانيّة مُحدَّدة، والغاية في الحالة التي نحن بصددها، سَبْرُ خيارات استهداف المساعدة الإنسانية. وفي السبيل إلى بلوغ هذه الأهداف الشرعيّة، يكثر كثيراً أن تُهمَلَ المعايير الإحصائية الدولية وتهمَلَ معها سُنَن العمل الفضلى، أو أن تُطَّرَح لأنها غير قابلة للتطبيق أو معقَّدة جدّاً.[٣]

ومع ذلك، فبلوغ الغرض الإنساني الأساسي للاستطلاع مع نَظْمه على المعايير الإحصائية في آن معاً يأتي بفوائد عظيمة. ولكنَّ الواقع أنَّه في الوقت الذي يُقَرُّ واسعاً بأهمية القيادة الوطنية والتعاون الإنساني التنموي في معالجة الهجرة القسرية، وفي الوقت الذي تكون فيه الحالات المتمادية أغلب حالات الهجرة القسرية، كان كلُّ استطلاع إنساني لا «ينطق لسانه بما ينطق به لسان» الحكومة والشركاء في التنمية فرصةً ضائعة.

فوائد النَّظْم

إنَّ نَظْمَ عمل الاستطلاع الإنساني على المعايير الإحصائية الدولية وسنن العمل الفضلى سيسمح باستعمال الأفكار العميقة الناتجة عن المعطيات استعمالاً أكثر فاعليَّة في حوار السياسات والمناصرة، لأن إحصاءات الاستطلاع ستستند إلى مفاهيم يعرفها صانعو القرار. ثمَّ إنَّ جَمْع

المعطيات بطريقة منظومة على طُرُف الاستطلاع الوطنية والرسمية يسمح ببعض الموازنة بين المُهجَّرين والمجتمعات المُضيفة الوطنية أو المحلية، وإن لم تدخل هذه المجتمعات صراحةً في عيّنات الاستطلاع. هذا، وتطبيق المعايير الإحصائية المجربة والممتحنة (والمُتاحَة بيُسْر) يمكن أن يُقلِّل كلفةَ إعداد الاستطلاع وتعقُّدَه. وأخيراً، يمكن أن يُؤدِّي اتّباع سُنَن عمل القياس المُقَرِّ بها دولياً إلى زيادة جَذْب المعطيات للباحثين فيستعملونها استعمالاً ثانوياً، فيُعزِّز تأثيرُها من ثَمَّ وعائدُها على كلّ استثمار في جمع المعطيات.[٤]

نعم، هناك مُقلقاتٌ من أن استعمالَ هذه المعايير في أعمالٍ الاستطلاعَ الإنسانيّ يمكن أن يكون مُرهِقاً أو غير عمليٍّ بسبب قيود الموارد والقدرات، والقلق من ذلك مفهوم، ولكنه في آخر المطاف لا يقوم على أساس في أكثر الحالات، وبخاصة في سياقات التَّهجير المتمادية (على عكس الطوارئ). وإ قد كانت هذه المعايير الدولية قد أُعدَّت بعنايةٍ لتطبَّقَ في سياقات متنوعة مثل سياق النُّزوح وجمهوريةٍ إفريقيا الوسطى، وفي الحيِّز الاجتماعي الاقتصادي كلّه داخلَ هذين البلدين، فهي أيضاً قوية في حالات التَّهجير. ويدعَمُ المعاييرَ دعماً جيّداً وَثائقُ مفيدةٌ تأتي في العادة مع موادّ إرشادية تقصد إلى طائفة متنوعة المشارب من مزاولي المعطيات. وأخيراً، لا تكاد تُذكَر الكلفة الحدِّية لتوسيع المقابلة الشخصية لتشملَ بضعة أسئلة في معظم الحالات، ولذا كان تطبيق تلك المعايير في الأكثر لا يزيد كلفة الاستطلاع بأي وجهٍ يُلحَظ.

سُنَن العمل الحَسَنة في كينيا

أجرت المفوضية بمعاونة البنك الدولي استطلاعَين أُسريَّين آخرين، واحد في مخيَّمَي كالوبيَيْه وكاكوما للاجئين في كينيا، في سنة ٢٠١٨ و٢٠١٩ على الترتيب.[٥] وهذه المرة أُنشئت استبانة الاستطلاع في أكثرها على نموذج الاستطلاع الوطني المتكامل للأسر المعيشية، وهو استطلاعٌ منظومٌ على طائفة عريضة من معايير الإحصاء. وتسمح نتائج الاستطلاعَين بإجراء موازنة مُباشرة بين سكّان المخيَّمَين ومُضيفيهم من أهل البلد. ولذلك صِرْنا نَعلمُ اليومَ أن ساعةَ إجراء الاستطلاعَين كان ٣٧٪ من السكّان الذين هم في سنِّ العمل في مخيم كالوبيَيْه يعملون، بالقياس إلى ٦٢٪ في مقاطعة توركانا و٧٢٪ في كينيا عموماً. وأيضاً صرنا نعلم أن ٥٨٪ من اللاجئين في المخيم يعيشون تحت خطّ الفقر في البلد، بالقياس إلى ٧٣٪ من سكّان مقاطعة توركانا و٣٧٪ في جميع كينيا.

وقد تلقّى حاكم مقاطعة توركانا، جُسْفَات نانوك، الإحصاءات القابلة للمقابلة بالاستحسان فقال: «الآنَ صار لدى الحكومة معطيات!»، وأوضحَ كيف ستُستَعمَلُ في إفادة رَسْم السياسات الوطنية ودون الوطنية، ومنها إدماج اللاجئين وطالبي اللجوء في النظام التربوي الوطني. وأيضاً فقد أكّد الحاكم أنَّ استطلاع كالوبيَيْه سيفيد قرار مكتب الإحصاء الوطني بأن يوسِّعَ طَوْق استطلاع الأسر المعيشية الوطني ليشملَ مُخيَّمات اللاجئين.[٦]

إنَّ قرارَ تحسين نَظْم الاستطلاع الإنساني على معايير الإحصاء الدولية لا يكاد يُستغنَى عنه بغيره ألبتَّة، ولا سيَّما في الأحوال المتمادية. ذلك أنَّ عَوائده راجحةٌ رُجْحاناً شديداً على المُقلقات منه. فكلَّما زِيدَت في الاستطلاع الإنساني هذه المَعايِيرُ، ضاقت الفجوة المنهجية بين الاستطلاع الإنساني ومُجريه من الحكومات وما يعدلها في ميدان التنمية. ويوازي ذلكَ أنَّ التعلُّم من أعمال الاستطلاع الإنساني سيزيد الإسهامَ في تَطويرِ معايير الاستطلاع نفسها وتحسينِها.

فيلكْس شمدنگ *schmiedf@unhcr.org*
إحصائيٌّ رئيسٌ، في مركز المعطيات المشترك بين البنك الدوليّ ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية.

١. KNBS (2018) *Labour Force Basic Report*, 2015/16 Kenya Integrated Household Budget Survey
(تقرير أساسيّ في اليد العاملة)
bit.ly/KNBS-survey-746

٢. UNHCR/WFP/Kimetrica (2016) *Refugees Vulnerability Study – Kakuma, Kenya*
(دراسة وجوه ضعف اللاجئين في كاكوما بكينيا)
bit.ly/UNHCR-WB-Kimetrica-Kakuma-2016

٣. مثل التي وُضِعَت برعاية لجنة الإحصاء في الأمم المتحدة أو المُحدَّدة في أوراق المعلومات الوصفية لمُشيرات أهداف التنمية المستدامة.

٤. يتزايد اتّجاه الهيئات الإنسانية نحو المقاربة بطريقة «المعلومات الضَّخْرية المُتاحة». مثال ذلك أنّ مفوضيَّة اللاجئين أطلقت سنة ٢٠٢٠ مكتبةً لها للمعطيات الضَّخرية، أحضرت فيها كثيراً من معطيات الاستطلاع الضَّخْرية التي تجمعها لمستعملي المعطيات الخارجيِّن بهيئة مجهولة الهوية.
https://microdata.unhcr.org

٥. UNHCR/World Bank (2020) *Understanding the Socioeconomic Conditions of Refugees in Kalobeyei, Kenya: Results from the 2018 Kalobeyei Socioeconomic Profiling Survey*
(فَهْم الأحوال الاجتماعية الاقتصادية عند اللاجئين في كالوبيَيْه بكينيا: نتائج من استطلاع تحديد السِّمات الاجتماعية الاقتصادية في كالوبيَيْه)
bit.ly/UNHCR-WB-Kalobeyei-2018
سيصدر تقرير من استطلاع كاكوما قريباً في شهر آذار/مارس ٢٠٢١.

٦. من كلمة له ألقاها في المنتدى العالمي للاجئين في ١٦ من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٩. وها هي تسّجيلتها الصوتية: bit.ly/GRF-recording

إدخال اللاجئين والنَّازحين الداخليِّين في نُظُم المعطيات الوطنية

نَتاليَا كِرِنسْكِي بَال

أُيِّدَت بأخرة توصيات إحصائية دولية في شأن اللاجئين والنازحين الداخليِّين، وسيُعِينُ تأييدها على نَظْم هذه الفئاتَ المستضعفة في السياسة العامّة الوطنية وفي جداول أعمال التنمية. ومع ذلك، يُحتاج إلى كثيرٍ من العمل لنقل التوصيات من الحيِّز النظري في الورق إلى الحيِّز العملي في الواقع.

لمَّا كان شهر آذار/مارس من سنة ٢٠٢٠، أي قبلَ أيّام من ضَرْب الحَجْر على نيويُرك بسبب داء الحُمَة التاجية (كوفيد-١٩)، أيدَّتْ لجنة الإحصاء في الأمم المتحدة بإجماع أعضائها أوَّلَ توصيات دوليةً في العالم في إحصاءات النازحين الداخليِّين.[١] فأتت هذه التوصيات بإطار لإعانة البلدان على أن تُحدِّدَ النازحين الداخليِّين بما هو أحسن، وأن تملكَ زمام إحصائها لهؤلاء السكّان المستضعفين، وأن تجيء الإحصاءات على درجة عالية من الجَوْدة وأكثرَ قَبُولاً للموازنة بينها وبين غيرها.[٢] وهذه التوصيات من جهة نتيجة سنين اجتهدت فيها فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين (Expert Group on Refugee and IDP Statistics) التي فوَّض إليها الأمر لجنة موظفي الأمم المتحدة، ومن جهة أخرى هي بناءٌ على نجاح التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين لسنة ٢٠١٨.

ثم إنَّ السائق إلى تحسين جودة المعطيات وقابليتها للموازنة بينها وبين غيرها والثقة بها يلزم منه أن يكون فيه معالجة لعدَّة من المتحدِّيات الأساسية، مثل إقرار تعريفات بيّنة، ومنهجيات واضحة صريحة، وإرادة سياسية، وقدرة وطنية. وتصدق هذه الحالة في الخصوص على فئات سكانية مثل النازحين الداخليِّين الذين يكثر أن يُستبعَدوا في نظُم الإحصاء الوطنية أو أن يُحصَوا إحصاءً لا يفي بالغرض. وتمثل التوصيات التي صدرت على مجموعتين إنجازات مهمَّة لصانعي السياسات والمزاولين الذين يعالجون التَّهجير، ومع أن همَّ التوصيات رُكزَ في جوانب تقنية محضة، فهي تتضمن عدَّةً من الخطوات إلى الأَمام لم تسبق إليها من منظور السياسة العامّة والمسائل السياسية.

وتقدُّم التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين تعريفات واضحة وإطاراً إحصائيًا تامًّا للاجئين ومن يجري مجراهم من الفئات السكّانية (أي أنه مشتملٌ على من يحتاج إلى الحماية الدولية، ومن سبق أن خاض في اللجوء، ومن عاد إلى بلده بعد أن كان ملتمساً للحماية الدولية في خارج بلده). فإن ألِّفت البلدان وغيرها من أصحاب المصلحة بين تعريفاتهم وتعريفات التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين، زاد يُسْرُ موازنة المعطيات بين البلدان، وقلَّ التَّشويش كثيراً بين أنظمة الإبلاغ المختلفة. وأيضاً فتنصح التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين للبلدان كيف تقيس إدماجَ اللاجئين في المجتمع وإعادةَ إدماجهم وكيف تحلِّل ذلك، إذ تتيح إطاراً لهذا الغرض. وإنجازٌ آخر للتوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين، له صلة بالتوصيات المتفق عليها لتنسيق الإحصاءات الرسمية للاجئين، وهي في الواقع مسألةٌ مُعقدَّة تُفوِّت كثيراً من فرص إدماج اللاجئين بما هو أحسن.

ومثلُ ذلك التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين، ففيها قوّة على أن تُحدث تغييراً عظيماً. ومع أنها قائمةٌ على بنية مماثلة لبنية صاحبتها، وأنها تعالج موضوعاً لا إطاراً قانونياً محدداً فيه، يعترضها مُتحدٍّ أصعب، على أنها نجحت في إقامة إطار إحصائيٍّ وُحِّدَت فيه المصطلحات والتصنيفات الرَّئيسة. مثال ذلك أنها أوضحت أن الأطفالَ المولودين لأَبَوَيْن من النازحين الداخليِّين بعدَ التَّهجير لا ينبغي إدخالهم تحت التعريف، إنما يصنّفون في فئة سكانية تسمّى «الذين لهم بالنازحين الداخليِّين صلة»، وأوصت بتقسيم جملة النازحين الداخليِّين إلى ثلاث فئات فرعية (النازحين الداخليِّين في مواضع التَّهجير وفي مواضع العودة وفي مواضع الاستيطان).

وأما المسألة المعقدة المتمثلة في متى يخرج النازح الداخليّ من حدِّ تعريفه؟ فإن التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين تحقق تقدماً كبيراً في ذلك أيضاً. فهي تستند إلى معايير ثمانية منتشرٍ قَبُولها: المعايير الموضحة في إطار عمل اللجنة الدائمة المشتركة بين الهيئات في الحلول الدائمة للنازحين الداخليِّين، وتستند أيضاً إلى العمل الذي تقوم به فرقةٌ أخرى من الخبراء المشتركين بين الهيئات[٣] للتمييز بين مقياسين: الأول التَّحكيم في التقدم نحو الحلول الدائمة، والثاني تحديد متى تُغْلَبَ على وجوه الضعف الرئيسة في التَّهجير؟ بحيثُ يمكن استبعاد المهجَّرين من إحصاءات السكان الرسمية. وأيضاً ففي التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين إطارٌ واضحٌ لهذه الإجراءات، ولكن يُحتاجُ إلى مزيد عَمَلٍ حتّى يتمَّ تطوير هذه الإجراءات، وهو عمل تأخذ فيه اليومَ فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين، بدعم من مركز المعطيات المشترك بين البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئينَ في شؤون الهجرة القسرية.

وتقدّم التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين أيضاً توصيات في كيفية تعزيز الجهد المبذول في التنسيق الإحصائي على الصعيد الوطني والصعيد الدولي. وهي مشتملة على توصيات لتقوية الروابط بنُظُم الإحصاء الوطنية، ولإنشاء منصاتٍ للتنسيق التقني، ولضمان مراقبة الجودة في معطيات النازحين الداخليِّين. فهي تراعي دورَ كلِّ أصحاب المصلحة الوطنيين والدوليين في هذه الأعمال.

فهذه التوصيات مجتمعةً تتناول المسائل الحساسة من الوجهة السياسية والصعبة من الوجهة التشغيلية، التي تتكرر في كثير من السياقات المتأثّرة بالتَّهجير، وهي سياقات كثيراً ما تعروها التَّعاريفُ المشوَّشة للحلول الدائمة، والتَّقاريرُ المتنافسة في أرقام التَّهجير، ونَقْص الصَّراحة والوضوح في أساليب تحصيل المعطيات.

التقدُّم في جميع العالم

منذ اعتمدت التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين والتوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين، تزايد الدعم والإقرار عند معشر الإحصائيين وعند غيرهم. مثال ذلك أنَّ في اتفاق اللاجئين العالميّ بضع فقرات في المعطيات والأدلّة التي تشير رأساً إلى التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين.[٤] وقد كانت الفرقة الرفيعة المعنية بالنزوح الداخلي أدرجت صراحةً في نطاق عَمَلِها جَمْعَ المعطيات وتحليلها واستعمالها، وما يزال يزيد اهتمامها بما أنجزتهُ فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين.[٥] وأما في صعيد المؤسَّسات، فينشط كثيرٌ من المنظمات لتعيين فُرَص لإدماج كلٍّ من التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين والتوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين، إدماجها في أعمالها التي محورها المعطيات، وفي الجهد الذي تبذله لدعم التنفيذ على الصعيد القُطْري. فنحن في مركز المعطيات المشتركة، مثلاً، نعمل مع الحكومات ومكاتب الإحصاء الوطنية لإدماج عناصر معيّنة من التوصيات في أعمال جَمْع المعطيات، وجعلنا ذلك معياراً للتمويل صريحاً.

وتتَّخذ عدَّة من البلدان أيضاً خطوات لتنفيذ التوصيات، على أن الطريق ما تزال طويلة. ودونك نظرةٌ عجلى إلى بعض الأمثلة الحديثة تعين على تحديد الإفادة وإعلام ما يُحتَاج إليه من مزيد العمل والدَّعم وما يحتاج إلى تبديته على غيره.[٦]

جمع المعطيات: في **كينيا**، عُدَّ اللاجئون في إحصاء السكَّان الوطني لسنة ٢٠١٩، ويؤلِّف المكتب الوطني للإحصاء فرقةَ عملٍ تقنيٍّ تُعنَى بتعزيز الممارسة ورَصْد التقدُّم المُحقَّق في إحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين في البلد. وفي **المغرب**، تُجمَع معطيات اللاجئين ومن يجري مجراهم من الفئات السكانية باستطلاع مُعيَّن، وذلك بعضُ مما أدخلته الحكومة في إستراتيجيتها الوطنية لشؤون الهجرة والتَّهجير، على أنها تُدخِلُ في الاستطلاعات المحورية مُجتَزَآت الأسئلة من التوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين، ومن هذه الاستطلاعات استطلاع اليد العاملة. وفي **إثيوبيا**، تعمل هيئة الإحصاء المركزية على تنسيق وإدماج الاستطلاع الاجتماعي الاقتصادي للاجئين في إثيوبيا في الاستطلاع الوطني لإحصاءات حُسْن حال الأسرة المعيشية، وتعمل أيضاً على أن تُدمجَ في ذلك العناصر الرئيسة للتوصيات الدولية في إحصاءات اللاجئين. ومثل هذا الجهد يُبْذَلُ في **جمهورية إفريقيا الوسطى**، فهي تُدخِلُ فئة النازحين الداخليِّين في خطة أَخْذ العينات التي ستستعملها في الاستطلاع الوطني الذي تعتزم إجراءه في حال الفقر فيها، وهي تفعل ذلك مستفيدةً من عدد من جوانب التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين. وفي أوربا، تنوي **جورجيا** أيضاً أن تأخذ في سلسلة من الأعمال لتنفيذ التوصيات، من ذلك أن تُقدِّرَ مصادرَ المعطيات الإدارية المختلفة لتُحدِّدَ ما فيها من قوّة على إخراج إحصاءات النازحين الداخليِّين وإيضاح الروابط بينها.

التَّنسيق: ثمَّ إن زيادةَ فاعلية التنسيق بين أصحاب المصلحة الوطنيين والدوليين يُوضِّح (أو يُنشئ) الروابط بين إحصاءات الهجرة القسرية ونُظُم المعطيات الوطنية. وفي الوقت نفسه تُقوَّى الوَاصلات بالإستراتيجية الوطنية لتطوير الإحصاءات وبالأُطُر القانونية الجديدة. ففي **أكرانيا**، تعمل دائرة الإحصاء الحكومية مع أعضاء فرقة العمل التقنية المعنية بإحصاء النازحين الداخليِّين ومع مفوضيَّة اللاجئين على وضع خطّة مشتركة للشروع في تنفيذ التوصيات الدولية في إحصاءات النازحين الداخليِّين. وسيشتمل ذلك على تحسين السِّجل الوطنيّ للنازحين الداخليِّين، وإدماج مصادر المعطيات المُتمِّمة، والدخول في الإطار الوطني لرصد التقدُّم نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة في البلد. وفي **الكاميرون**، صُدِّق قانونٌ في الإحصاء جديدٌ وأُيِّدت في سنة ٢٠٢٠ الإستراتيجية الوطنية لتطوير الإحصاءات بين سنة ٢٠٢٠ و٢٠٢٥. وتقصد الإستراتيجية إلى تعزيز القدرة الإحصائية، وقد اشتملت على رَكْز الهمِّ صراحةً في الهجرة القسرية في البلد، وكانت هذه أوَّل مرة تشتمل عليه. هذا وفي **كولُمبيا** حُسِّنَ التَّنسيق بين الوحدة المعنية بالمتضرِّرين ومكتب الإحصاء الوطني لرفع جَوْدة إحصاءات النازحين الداخليِّين وفائدتها، وأيضاً فهناك تُحسَّن اليومَ المنهجيات

الإحصائيـة (بالاسـتفادة مـن أعـمال فرقـة الخـبراء المعنيَّـة بإحصـاءات اللاجئـين والنازحـين الداخليِّـين).

ماذا بعدُ؟

تتزايـد القـوة الدافعـة غير أنَّ مـا يُحتاجُ إلى تحقيقـه كثيرٌ كثير إن أريـدَ أن يُدخَـلَ اللاجئـون والنازحـون الداخليُّـون في نُظُـم المعطيـات الوطنيـة إدخالاً أفعـلَ وأكثر انتظاماً. ودونك وجوه الأولويـة التـي تبرزهـا تجـارب خـبَّر بهـا أعضـاء فرقـة الخـبراء المعنيَّـة بإحصـاءات اللاجئـين والنازحـين الداخليِّين:

تَوْسـيعُ المـدارك والمُنَـاصرةُ المُدبَّـرة: لكثـير مـن الـدول التـي تُضيِّـف اللاجئـين أو النازحـين الداخليِّين قـدَرةٌ إحصائية تكفي لابتـداء تنفيـذ التوصيـات. ومـع ذلـك هـي محتاجـةٌ إلى أن يُشـحَذَ عزمها لتتقدَّم، وذلك بتوسـيع المدارك وبـذل الجهد في المنـاصرة (ومنـه عَـرْضُ أمـارات الوَقْـع المبكـرة).

الاسـتثمار في القـدرة الإحصائيـة الوطنيـة: إذا كانـت القـدرة الإحصائيـة ضعيفـة أو مثقلـة بالأعباء أو اجتمـع عليها الأمران معـاً، احتيـجَ إلى الاسـتثمار المسـتدام كإنمـاء القـدرة الوطنيـة عـلى رَصْـدِ التقـدُّم المُحقَّـق نحـو أهـداف التَنميـة المسـتدامة وعـلى وإدخـال معطيـات اللاجئـين (والنازحـين الداخليِّين عند اقتضـاء الحـال ذلـك) في إحصـاءات الهجـرة التـي هـي أوسـع نطاقاً.

تحسـين حـال التمويـل في معطيـات الهجـرة القسريـة: مـا تـزال أقـرب مـوارد التمويـل لجَمْـع معطيات الهجـرة القسرية مأخـوذةً في الأكـثر مـن ميزانيـات المعونـة الإنسـانية التي هي بطبيعتهـا قصـيرة الأمـد، تَركُـزُ همَّهـا أولاً في صَـوْغ التدخُّـل الإنسـانيّ. ويجـب أن يُغـيَّر هذا المسـلك لدَعْـم كلٍّ مـن التنمية المسـتدامة للقـدرة ومبـادرات معطيـات التنميـة طويلـة الأمـد، ومـن ذلـك الاسـتطلاعُ الوطنـي للأسر المعيشـية، ونُظُـمُ المعطيـات الإداريـة المُـوَزَّرةُ.

الاشـتمال عـلى مناهـج جديـدة ومصـادر معطيـات بديلـة: صحيـحٌ أن كلّاً مـن التوصيـات الدوليـة في إحصـاءات اللاجئـين والتوصيـات الدوليـة في إحصاءات النازحين الداخليِّين مُشـتَملةٌ عـلى التوصيـة بتحرِّي المناسـب من مناهج ومصـادر معطيات، ولكنّهـا أقـلّ تركيـزاً على المناهج الجديـدة أو مصادر المعطيات البديلـة. ثـم إنَّ في التقانـات السريعة التقـدُّم والمناهج البديلة لجَمْـع المعطيـات فُرَصـاً ينبغـي انتهازهـا. وقـد زادَ إلحـاح الحاجَـة إلى بـذلٍ مثـل هـذا الجهـد بسـبب الجائحـة التـي تحـدَّت أُسُـسَ الطُّـرُق المألوفـة في جَمْـعِ المعطيـات.

عـلى أنَّ كثيراً مـن هـذه السُّـبُلِ تسـبره اليـومَ فرقـة الخـبراء المعنيَّـة بإحصـاءات اللاجئـين والنازحـين الداخليِّـين، وسـبرها هـذا بعـضٌ مـما تقطعـه في المرحلـة الثالثـة مـن عملهـا، تقـع بـين سـنة ٢٠٢٠ و٢٠٢٤. ولهـذه المرحلـة معيارٌ مرجعـيّ أيَّدَتْهُ لجنـة الإحصـاء في الأمـم المتحدة، يُلـزِمُ الفرقـةَ أن تدعمَ تنفيذ التوصيـات الدوليـة في إحصـاءات اللاجئين والتوصيـات الدولية في إحصـاءات النازحـين الداخليِّين، في مـدّة تقـع بـين الثلاث سـنين المقبلـة والخمـس سـنين تنفيـذاً مُنسَّـقاً.[٧] فلهـذه المنصّة قـوّة هائلـة، تتـأتّى بمعونـة ماليـة من مركـز المعطيات المشـترك بـين البنـك الـدولي ومفوضيَّـة اللاجئـين في شـؤون الهجـرة القسريـة، وباهتـمام مـن الـدول والمؤسَّسـات لا ينفـكُّ يزيـد. فـإنْ جَمَـعَ المجتمـعُ الدولي بين مـا يُبذَلُ من جهـد هنا وهناك لإصابـة هـذا الهـدف المشـترك، أمكـن تحقيـق تقـدُّم عظيـم في بضعـة سـنين. وسـتؤتي الإحصـاءات الرسـميَّة المُحسَّـنة في اللاجئـين والنازحـين الداخليِّـين أُكُلَهـا بسرعـة، فيُعـزِّزُ جـدول أعـمال إدماجهـم. نعـم، المُتحدِّيـات كثيرة ولكنَّ لَـبَنَ معارضتها مُعَدٌّ.

نَتاليَا كرِنسْكي بَال
nbaal@worldbank.org @NátaliaBaal
موظَّفةٌ رئيسةٌ في قسم الإستراتيجيات والسياسات العامّة، في مركز المعطيات المشترك بين البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية

١. bit.ly/Reliefweb-IRIS

٢. انظر: «الأخذ في مقاربات تعاونيَّة لتحسين معطيات النُّزوح الداخليّ»، دفُّورا لَفَاكُوفا وأدرِيَان كالفو فالدراما وجاك أجاروفا وأنُّم ودامِيَان جَسْلُم، نشرة الهجرة القَسريَة، العدد ٦٥.
bit.ly/FMR65-Levakova-et-al

٣. انظر: https://inform-durablesolutions-idp.org
وانظر أيضاً: التحديات المفهومية والحلول العملية لحالات النّزوح الداخلي، جَالوكَا بياني ونَتَاليَا كِرِنسْكي بَال ومارتينا كاترينا، نشرة الهجرة القسرية، العدد ٥٢.
www.fmreview.org/solutions/beyani-baal-caterina

٤. www.unhcr.org/5c658aed4

٥. www.un.org/internal-displacement-panel/content/what-we-do
انظر أيضاً العريضة التي دفعتها فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين إلى الفرقة الرفيعة المعنيَّة بالنُّزوح الداخلي:
bit.ly/EGRIS-submission-HLP-Feb2021

٦. أورد كلٌّ الأمثلة ممثِّلون عن منظمات وطنية في المؤتمر الذي عقد سنة ٢٠٢٠ وجمع بين الدائرة المشتركة المعنية بتحديد سمات النازحين الداخليِّين وبين فرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين، وأُديرَ حول زيادة القدرة على الإحصاء:
www.jips.org/jips-publication/jips-egris-conference-2020-report/
ويُستثنَى من ذلك مثال إثيوبيا ومثال جمهورية إفريقيا الوسطى، فهما عملان دعمهما مركز المعطيات المشتركة: bit.ly/JDC-filling-data-gaps

٧. المعيار المرجعيّ لفرقة الخبراء المعنيَّة بإحصاءات اللاجئين والنازحين الداخليِّين: المرحلة الثالثة – تنفيذ التوصيات (٢٠٢٠–٢٠٢٤): http://bit.ly/EGRIS-TOR-2020-24

عَوَاثِرُ الاستطلاعِ الهاتفيِّ المتعدِّد الأشواط وكُمُونُه في زمن داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)

جِفْري تَاتَر

يمكن أن يكون الاستطلاع بالهاتف مفيداً خصوصاً في أزمنةٍ -مثل زمن الجائحة الراهنة- يصعب فيها الاستطلاع وجهاً لوجه، على أنّه يجلب المُتحدِّيات.

شقَّت جائحة داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) المعيشةَ وسُبُلَ المعاش في العالم كلِّه. والمُهجَّرون من أكثر الفئات استضعافاً، ولكن ليس من المعطيات الموثوق بها إلا شيء قليل يفيد للنظر في كيفية تطوُّر حاجاتهم في أثناء الجائحة.[١] وتُقلِّل الاعتبارات الصحية خيارات جَمْع المعطيات في هذه الأيام الصعبة، إذ وَقَفَ جمع المعطيات المعتاد وجهاً لوجه بسبب القلق من عدَّاد المصابين والصحة العامة، وبسبب قيود السفر والحَظْر والتَّباعد. فكان أحد الأبدال الاستطلاع بالهاتف المحمول. وقد ثبت أن طريقة المقاربة هذه مفيدةٌ في جَمْع المعطيات: في الأمكنة الخطرة، والمناطق القاصية، والمناطق التي يكون فيها عدَّاد الإصابات مقلقاً، وحيث تكون الاستجابة لحاجات المعطيات الجديدة والمتغيِّرة مهمةً، وفي السياقات التي يُحتاجُ فيها إلى رَصْد الأحوال المُتكشِّفة. وأيضاً فقد وُجِدَ أنها تُخرِجُ معطيات عالية الجودة وفعالة بالقياس إلى كلفتها.[٢]

وفي التصدِّي لجائحة داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩)، أطلق البنك الدولي استطلاعاً هاتفيّاً فعّالاً متعدِّد الأشواط لجَمْع المعطيات الاجتماعية الاقتصادية في نحو ١٠٠ بلد.[٣] وبالتعاون مع البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين والمكاتب الإحصائية الوطنية، يَدعَمُ مركز المعطيات المشترك بين البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية[٤] إدماجَ عينات معززة من المهجَّرين في شَوطَين على الأقل مما هو جارٍ أو مُعتَزَمٌ إجراؤه من الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط في شأن داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) في ١٢ بلداً أو نحو ذلك من تلك البلدان. وهذا سيُمكِّن من فهم أفضل للتغيُّرات التي أحدثتها جائحة داء الحُمَة التاجية (كوڤيد ١٩) في صلاح معيشة المهجَّرين ووجوه ضعفهم وما يرجونه، وسيُمكِّن أيضاً من صوغ استجابات أحسن.[٥]

ومع أنّ الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط يمكن أن يُولِّد معطيات مهمَّة في أثناء الجائحة، هناك مُتحدِّيات في تطبيقه، ولا سيَّما في سياق التَّهجير. ويمكن تصنيف المتحدِّيات الرئيسة وحوهَ تهديدٍ لقوَّة العيِّنة وقيوداً على ما جُمِع من معلومات. ومن حسن الحظِّ، أنَّ مع البصيرة والاتِّئاد في التخطيط طُرُقاً للتغلُّب على تلك المُتحدِّيات.

أخذ العيِّنة

لكي يصدق على الاستطلاع أنّه سليم من الوجهة الإحصائيَّة، ينبغي أن يمثِّل مجتمعاً مُحدَّداً، وأن يؤخذ قدر من العيِّنة يحصل بها قوة إحصائية لاكتشاف ما يفيد من وجوه الاختلاف بين الفئات أو بين الأوقات. وإذ قد كانت تغطية الهاتف متفاوتة -بسبب الملكية (التي تتأثر بالعوامل السكّانيّة والاقتصادية) أو تغطية الشَّبكَة أو وجود الكهرباء، وذلك على سبيل المثال- فقد لا تكون عينات الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط ممثلةً للفئة المقصودة من المُهجَّرين، فيقود ذلك من ثَمَّ إلى حَرْف النتائج التحليلية. ومثل ذلك، أنه يمكن أن يحدث التحيُّزَ حين يَبعُدُ انتقاء بعض الفئات أو يَقرُبُ انتقاء غيرها حَتى تُستَطْلَع («عدّ ناقص» أو «عدّ تفاضلي»)، أو حين يرفض بعض المُستطلَعين المشاركة («انتفاء الاستجابة») أو يرفضون الاستمرار في الأشواط اللّاحقة («تناقص»).

وتحديد مصادر معينة للتحيُّز المحتمل أمرٌ بالغ في الأهمية عند التمرين جَمْع المعطيات لتعظيم القدرة على: أ) مَنْع التحيُّز ابتداءً من الإعداد والتصميم، ب) وتصحيح التحيُّز بالتنقيح وإعادة الوَزْن والتحليل، ج) وتحديد اتجاه التحيُّز لتسهيل استعمال المعطيات في رَسْم السياسات. ثمَّ إنَّ صحَّة تحديد وتنفيذ إطار أخذ العينات القوي وإستراتيجية أخذها والأوزان التحليلية -وهي أدوات أساسية للتغلُّب على التحيُّز في العينة- جزءٌ لا ينفصل من قيمة معطيات الاستطلاع. وإذا استمرَّ التحيُّز في معطيات الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط، فمن المرجَّح أن يكون التحيُّز آخذاً في العُلُوّ، وهذا يعني أن المعطيات قد تشير إلى أنَّ السكان أفضل حالاً مما هم عليه في الحقيقة. وحتَّى إذا كان الأمر كذلك، فمعطيات الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط لا تزال مفيدةً في رَسْم السياسات، هذا إن كانت النتائج الملاحظة في المعطيات مُنخفضَة بحيث يشير انخفاضها إلى أن الأمرَ يستأهل التدخُّل فيه.

وبالجملة، تُستَعملُ ثلاث طُرُق لبناء إطار أخذ العينات: الاستطلاع التمثيليّ، واستعمال قائمة، والاتِّصال العشوائيّ بالأرقام.[٦] وتعتمد الطريقتان الأوليَان على وجود معلومات شاملة في وقت غير طويل قبل ابتداء الاستطلاع بالهاتف. ومن حسن حظ بعض البلدان أنَّ فيها جهداً وطنيّاً يبذل لجمع المعطيات، ومنه جمع المعطيات وأرقام الهواتف عن السكان المهجَّرين، ويمكن أخذ عينة تمثيلية منها. في حالات أخرى، يمكن استعمال معطيات التسجيل عند مفوضيَّة اللاجئين، ما دامت معطيات السِّجلِّ -ولا سيَّما أرقام الهواتف- صالحةً وحديثة، على أنَّ غيرَ المُسجَّلين لن يكونوا في عِدَاد المُستطلَعين. ويمكن عادةً استعمال المعلومات الشخصية للحصول على عيِّنة متوازنة ولكن لا يُرسَلُ إلى فرقة العَدِّ إلا أرقام الهواتف (وذلك للإعانة على تخفيف المخاوف من أمر حماية المعطيات). وأما الطريقة الثالثة -وهي الاتِّصال العشوائي بالأرقام (باستعمال أرقام هواتف تُختارُ عشوائياً)- فيندر أن تكون فعّالة بالقياس إلى كلفتها أو أن يمكن تنفيذها عند استطلاع المُهجَّرين، على أنها قد تكون مناسبةً لحالاتٍ معيَّنة.

وهذه الطرق الثلاث جميعاً مُستعملةٌ في أعمال الاستطلاع التي يدعمها مركز المعطيات المشترك. ففي تشاد، يُستعمَلُ في إطار العيّنات استطلاعٌ يمثِّل البلد كلَّه، ابتدأ سنة ٢٠١٨ واشتمل على اللاجئين، وكانت أوَّل مرّة يُشتمَل على اللاجئين فيها. وفي جيبوتي وإثيوبيا، تُستعمَل معطيات التسجيل التي عند مفوضيَّة اللاجئين. وفي الإكوَدور، ستشارك فرقة الاستطلاع (كما فعلت من قبل) شركةَ الاتصالات المحلية لتعيِّن المناطق الجغرافية ومجموعات أرقام الهواتف التي هي أقرب إلى أن تكون للفنزوليِّين العائشين في أحوال تشبه أحوال اللاجئين في البلد.

وإن وُجِدَت المعطيات الإثنيَّة المناسبة، أمكن استعمال «إعادة الوَزْن» للإعانة على تصحيح معطيات العيِّنة ليُستعادَ ما نقص تمثيله من أجزاء الفئة السكّانية الحقيقيّة. هذا العمل مُعقَّد وصعب، ولكن إذا طُبِّق تطبيقاً صحيحاً أمكن حلُّ مشكلات التناقص وانتفاء الاستجابة والعدِّ الجزئيِّ، حَتى تصير العينة تقريباً نافعاً من الفئة السكانيّة الحاضرة.

إنَّ الوقايةَ من وقوع التحيّز في عيِّنة هو ولا شكَّ أفضل من تصحيحها، ويمكن أن تعين الحوافز على ذلك. إذ كان استطلاع البنك الدولي في الإكوادور الذي تناول تأثير داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) في السكان المَضيفين واللاّجئين شَحَنَ البطاقات الهاتفية بما يستوعب الزمن المَقضيَّ في الاستطلاع أو بما يجاوزه. فخارج نطاق الوباء خياراتٌ للحوافز أخرى، مثل التزويد المباشر بالهواتف المحمولة أو بالمحطات الصغيرة التي تشحن الهواتف بالشَّمس.[٧]

تصميم الأداة والتَّنفيذ

هناك عدّة من الاعتبارات العملية التي ينبغي أن تُعتَبَر في القيود المُحتمَلة على ما يمكن جمعه وكمٌّ ما يمكن جمعه.

ويجب أن يكون الاستطلاع قصيراً لئلا يَسأَم المُستطلَعون، ولا سيَّما إذا عُزِمَ على تكرار التفاعل، ذلك أنَّهم إن سئموا وجب أن يَقِلَّ ما يحتمل من عمق جمع المعطيات واتّساعها. ثمَّ إنَّ الأسئلة المعقَّدة تميل إلى تقليل جودة المعطيات، في الاستطلاع الهاتفيّ خصِّيصى. وهناك ثلاثة خيارات تُخفِّف هذه القيود بعض التَّخفيف في الأقلّ. فيمكن أن يُعيَّن لمُستطلَعين مختلفين وحدةٌ مختلفة من الأسئلة عشوائيّاً، وأن تُستعمَلَ الإجابات من جملة مشتركة من الوحدات في إسناد المعطيات للوحدات المفقودةً عشوائياً. ويمكن بدلاً من ذلك، في الوحدات التي تُسْأَلُ للعيِّنة كلّها أن تُدَارَ على الأشواط من شوطٍ إلى شوطٍ في الاستطلاع، كما حدث في إثيوبيا من تضمين وحدة عن جماعات الجَّرَاد في الشوط الثانية من الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط. وأحسن ما تعمل هذه المقاربة حينَ تُضمَّن نتائج أكثر حركيّةً (مثل الأمن الغذائي والتوظيف) في جميع الأشواط، وتُدوَّر المزيد من النتائج الثَّابتة (مثل التركيبة السكّانية أو التواريخ). وأخيراً، يمكن في بعض الحالات أن تُستعمَلَ جملةٌ أصغر من الأسئلة من وحدة طويلة لإسناد النتيجة الإجمالية (كما هو الحال في فقر الاستهلاك).

على أنَّ بعض المواضيع يصعب الحديث فيها بالهاتف. وبالعموم فالمواضيع التي يصعب استطلاعها وجهاً لوجه يكون استطلاعها بالهاتف أصعب، ومع ذلك، فقد يُسهِّل ما في الاستطلاع الهاتفيّ من انتفاء صفة الشخصيَّة على بعض المستطلَعين مناقشة مواضيع معيَّنة (مثل التي يدخل فيها الوَصْم الاجتماعيّ كالصحَّة العقلية والإساءة الأسرية وكُرْهُ الأجانب والسُّلوك الجنسيّ).

وما تزال قاعدة الأدلّة في وُثوقيَّة الاستطلاع الهاتفيّ بالقياس إلى الاستطلاع وجهاً لوجه للمُهجَّرين حديثةَ العهد. لكن وجدت عدّة من الدراسات أن لا فرقَ بين الاستطلاع بالهاتف المحمول والاستطلاع بالهاتف الثابت، وأن لا فرقَ بين الاستطلاع بالهاتف المحمول والاستطلاع وجهاً لوجه.[٨] ومن المأمول أن يُقدَرَ في العمل المخطط له في الأردن المدعوم من مركز المعطيات المشترك أن يكون له نظرات في هذه المسألة، فهناك تُقسَم عيِّنة المُستطلَعين بين استطلاعٍ وجهاً لوجه واستطلاعٍ بالهاتف.

وعلى الرغم من هذه المُتحدِّيات، فالاستطلاع بالهاتف لجَمْعِ المعطيات الصَّغْرية الاجتماعية الاقتصادية أكثر مناسبةً عموماً

من الخيارات الأخرى لجمع المعطيات من بُعْد. وقد تكون خيارات الرسائل النصيّة القصيرة أقدرَ قليلاً على الشُّمول والموافقة الابتدائية، ولكن يُحتاجُ في الاستبانات عموماً إلى أن تقتصر على أقل من خمسة أسئلة لتجنُّب سَأَم المُستطلَعين. ثمَّ إن في الاستطلاع الورقي مصاعب إمدادية عظيمة في المواضع التي لا عناوين بريدية لها ولا نظامَ بريد عاملاً. وأما الاستطلاع الشَّابكي (الإنترنتي) ففيه من شدّة التحيُّز في العيّنة عموماً ما هو أسوأ مما في الاستطلاع الهاتفيّ؛ ذلك أنه يستدعي مزيداً من التِّقانة، وإنشاءُ إطار لأخذ العيّنات فيه قويٌّ وتَطويرِه أمرٌ أصعب كثيراً. وكلُّ هذه الخيارات يُفترَضُ فيها أن يكونَ المُستطلَع في درجة عالية أو شبه عالية من معرفة القراءة والكتابة، وهو أمرٌ غير ذي بال في الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط.

هناك عدّة من الإرشادات العملية إلى تنفيذ الاستطلاع بالهاتف، وهي إرشادات تستوعب موضوعات منها الأهمية العُظمَى لحماية المعطيات والتعاون مع المكتب الإحصائي الوطني.[٩] وصحيح أن هذا التعاون قد تبدو إقامتُه محتاجةً إلى إنفاق قَدْر من الوقت كثير في أثناء أزمة من الأزمات، ولكنه مهم في الإعانةً على بناء القدرات، والحثّ على إدماج المُهجَّرين في الجَمْع الوطنيّ المنتظم للمعطيات، وبلوغ التَّوافق في الإحصاءات التي تُولَد لتُستعمَل في إعداد خطّة انتعاش واستجابة وطنيّة لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) تشتمل على المُهجَّرين. نعم، ليس الاستطلاع بالهاتف يناسب كلَّ حالة، ولكنّه إن جُمِعَ إلى إستراتيجية سليمة وأداة سليمة في أخذ العيِّنات أمكن أن يخرج عنه معطياتٌ موثوقٌ بها.

جِفْري تَانَر *jtanner@worldbank.org*
اقتصاديٌّ رئيسٌ، في مركز المعطيات المشترك بين البنك الدوليّ ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية.

جُمَلُ معطياتٍ ستُنشَر للنَّاس

ستُزَالُ مُعرِّفات الهُويّة في جُمَل المعطيات (والوثائق المصاحبة لها) التي يدعمها مركز المعطيات المشترك عن المهجَّرين من نحو ١٢ بلداً، ثمَّ تُنشَر جمل المعطيات هذه مع ما يوافها من معطيات عن الفئات السكّانية الوطنيّة (المُضيفة). وستُنشَر للنَّاس في مكتبة البنك الدولي للمعطيات الصَّغْرية مع نَشْر وُصَلها (روابطها) في مكتبة المعطيات الصَّغْرية في مفوضيَّة اللاجئين هاهنا https://microdata.worldbank.org.

وستُؤخَذُ مُوجَزاتٌ عن الاتِّجاهات في هذه المعطيات ليُستفادُ منها في محاورة ع الحكومات المُضيفة لبيانِ ما يعترض أولئك المُستضعَفين من مُتحدِّياتٍ في أثناء الجائحة.

مراجعة الدراسات السابقة وآخر أخبارها وقاعدة معطياتها في مركز المعطيات المشترك

يُصدر مركز المعطيات المشترك بين البنك الدوليّ ومفوضيَّة اللاجئين في شؤون الهجرة القسرية كلَّ شهر آخرَ أخبار مراجعة الدراسات السابقة. وتُضافُ هذه إلى قاعدة معطيات تضمُّ مراجعات الدراسات السابقة، وإلى تجميعة تَقْبَلُ البحثَ فيها في ١٣ موضوعاً. www.jointdatacenter.org/resources

١. World Bank (2020) 'Highly Vulnerable Yet Largely Invisible: Forcibly Displaced Populations in the COVID-19 Induced Recession' (عالية القيمة لكن مُهمَلٌ أكثرها: المهجَّرون والركود الناجم عن داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)) bit.ly/JDC-Paper-series-No1

٢. Dabalen A, Etang A, Hoogeveen J, Mushi E, Schipper Y, von Engelhardt J (2016) *Mobile Phone Panel Surveys in Developing Countries: A Practical Guide for Microdata Collection*, World Bank (لجنة الاستطلاع بالهاتف المحمول في البلدان النامية: دليل عملي في جمع المعطيات الصُّغْرية) https://openknowledge.worldbank.org/handle/10986/24595

٣. انظر لوحةَ الرَّصْد المتعدِّد الأشواط لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) من البنك الدولي bit.ly/WB-C19-HFdashboard

٤. هي مبادرة مشتركة بين البنك الدولي ومفوضيَّة اللاجئين أُنشِئت سنة ٢٠١٩ www.jointdatacenter.org

٥. في أكثر الاستطلاعات وحدات دراسية في موضوع أو أكثر من المواضيع الآتية: الصحة، التعليم، كَسب المال، الأمن الغذائي، الاستهلاك (استِّعمال السِّلع والخدمات)، مخرجات سوق العمل (مثل حالة التوظيف والقطاع، والتغيُّر في دَخْل العمل)، عادات الصِّحّة وصِحّة عامّة النّاس وسُبُل حفْظها من نظافة ومياه عذبة وصَرْف صحيّ، معارف داء الحُمَة التاجية ووجوه السلوك فيه ومن ذلكَ آليّاتُ التعويض، المعونة والمساندة. وإلى ذلك أضاف مركز المعطيات المشترك مراراً وحدة في تاريخ التَّهجير، ووحدة، متى أمكن، في المواقف تجاه المُضيفين والمُهجَّرين.

٦. Himelein K et al (2020) *High Frequency Mobile Phone Surveys of Households to Assess the Impacts of COVID-19: Guidelines on Sampling Design*, World Bank Group (الاستطلاع الهاتفيّ المتعدِّد الأشواط للأُسَر المعيشية بغيةَ تقدير الأضرار التي أحدثها داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩): مبادئ توجيهية في إعداد العيِّنة) bit.ly/WorldBank-Himelein-et-al-2020

٧. Etang A and Himelein K (2020) 'Monitoring the Ebola Crisis Using Mobile Phone Surveys', *Data Collection in Fragile States; Innovations from Africa and Beyond* (رَصْد أزمة إيبولا باستعمال الاستطلاع بالهاتف المحمول) https://link.springer.com/book/10.1007%2F978-3-030-25120-8

٨. انظر الهامش ذا الرقم ٢.

٩. انظر على سبيل المثال:
See for example UN ESCAP (2020) 'Engaging with development partners to stand-up COVID-19 rapid assessment surveys: Five tips for National Statistical Offices', Stats Brief Issue 25 (الدُّخول مع الشركاء الإنمائيّين على ما يجري من استطلاع تَقدير سريع لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩): خمس نصائح لمكاتب الإحصاء الوطنيّة) bit.ly/UNESCAP-stats-brief-25;
UNICEF (2020) 'MICS Plus; A Step-By-Step Guide to Implementation' (مِكْس بِلَس: دليل التَّنفيذ خطوة خطوة) bit.ly/UNICEF-MICS-guide-2020;
World Food Programme (2017) 'Conducting Mobile Surveys Responsibly' (إجراء الاستطلاع بالهاتف المحمول إجراءً يستوفي المسؤولية) bit.ly/WFP-mobile-surveys-2017

قياس وَفَيَات المهاجرين وحالات اختفائهم

أندريا غارثيّا بورخا وجوليا بلاك

كثيرةٌ هي المُتحدِّيات التي تعوِّق توثيقَ وَفَيَات المهاجرين واختفائهم، على أنَّ ما يمكن فعله لتحسين استيعاب هذه المعطيات وإتمامها كثيرٌ أيضاً.

يحاول النَّاسُ الهجرةَ إلى بلدان أخرى فيغرقون في قنوات ماء الصَّرف الصحّيّ، ويموتون بالبرد في الغابات القاصية؛ ويموتون بالتَّجفَاف والجوع بعد أن يصيب مركباتهم خلل في عرض الصحراء. فيُعيِنُ توثيق وَفَيَات المهاجرين وحالات اختفائهم على مَنْع هَمَليَّة هذه المآسي، ثمَّ إن جَمْعَ هذه المعطيات وتحليلهَا ونشرها مفيدٌ في حملات المناصرة، فيُعلِمُ سياسات الهجرة القائمة على الأدلة، ويُحسِّن التخطيط التنفيذي.

ومع ذلك، جمع معلومات الوفيات في طريق الهجرة صَعبٌ لعدَّة أسباب. إذ يجبر انعدام الخيارات الآمنة والقانونية في الهجرة الناسَ على السَّفر في طُرُق هجرة غير نظامية ليتجنَّبوا كَشفَهُم. ونتيجة لذلك، إما أن لا يُبلَّغَ عن الوفيات وإما أن تقع ولا شهود عليها. وفوق ذلك تُصعِّب التضاريس الخشنة النائية وجدانَ رفات الناس؛ فرفات عدد لا يحصى من الأشخاص الذين أتت حتوفهم في رحلات الهجرة غير النظامية –وبخاصةٍ المفقودين في البحر– لا تسترجع أبداً.

ثمَّ في الأمر مسألتان أُخرَيَان، على أنّ التغلب عليهما ممكنٌ: أولاً صعوبة الاصطلاح على تعريف إجرائيّ لاسم «المهاجر المفقود»، وثانياً قلّة مصادر المعطيات التي يُعتدُّ بها ويُوصَل إليها. وفي جائحة داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، صار جمع المعطيات يصعب أكثر فأكثر، فقد نشأت عقبات زائدة من انخفاض الإنباء بوفيات المهاجرين في وسائل الإعلام، والعجز عن البلوغ إلى المهاجرين لجمع الشهادات، وإغلاق الحدود الذي يدفع المهاجرين إلى طُرُق أكثر خفاءً.

مَن المُهاجر المَفقُود؟

في المنظمة الدولية للهجرة مشروعٌ اسمه مشروع المهاجرين المفقودين، وهو مجموعة معطيات عالميَّة مُباحَة لتتبُّع وفيات الناس في طُرُق الهجرة المختلطة في جميع العالم.[١] وقد سَجَّل المشروع منذ شُرِعَ فيه سنةَ ٢٠١٤ من الوفيات وحالات الاختفاء في طُرُق الهجرة ٤٠٥٠٥،[٢] ولا تعريفَ مصطلحاً عليه لاسم «المهاجر المفقود»، ولكن يحتاج ولا شكّ إلى تعريفٍ إجرائيّ لإنشاء قاعدة أدلة.

ويشير التعريف الذي أتى به مشروع المهاجرين المفقودين إلى كلّ شخص مات (أو فُقد ويُظنُّ موته) في أثناء الهجرة إلى مقصد دولي، مهمًا تكن حالتهَ القانونية. وأما من مات من المهاجرين أو فقدَ في غير الهجرة فلا يُدخلُون في قاعدة المعطيات، مثال ذلكَ مَن يقيم في بلد أجنبي. ويُستبْعد مشروع المهاجرين المفقودين أيضاً الوفياتِ التي تحدث في مراكز حَجْز المهاجرين، وفي المستوطنات مثل مخيمات اللاجئين، والوفيات التي تحدث بعدَ الإبعاد. وقد وُضِعَ هذا التعريف خصيصى لتحديد احتمال الأخطار التي تحفّ برحلات الهجرة غير النظامية.

ومن أصناف المهاجرين المفقودين التي ما ورد ذكرها في التعريف الذي وضعه مشروع المهاجرين المفقودين هي كثرةٌ من المهاجرين الذين يُقطَع الاتّصال بينهم وبين أعزّائهم. وقد يكون هؤلاء أحياء ولكنّهم حيث لا وسيلة لهم للاتّصال بأسرهم، أو قد يقصدون أن لا يتّصلوا مخافةَ الإبعاد أو غيره من العواقب.

صحيحٌ أن اعتمادَ تعريف ضرورة لابتداء جَمْع المعطيات في أمر من الأمور، ولكن قدَّ ينشأ من أيضاً سوء العاقبة. مثال ذلكَ: أنّ استبعادَ الوفيات التي تحدث في مآوي المهاجرين أو مخيّمات اللاجئين أو في أثناء الحَجْز قدْ يؤدِّي إلى تصوُّر أنّ المهاجرين في مثل هذه الأمكنة آمَنُ من الذين ما يزالون ينتقلون. وأيضاً فقد يُضيِّق مَن لا يعلم منهجية مشروع المهاجرين المفقودين نطاقَ جمع المعطيات عن وفيات المهاجرين ويحطّ معيارها. فهذا أمرٌ حمّال مشكلات ولا سيّما حين تَستعملُ وسائل الإعلام الأرقامَ التي ينشرها مشروع المهاجرين المفقودين وهي ليس عندها من المعلومات الأساسية إلا الشيء القليل، وحين تُعرَض معدلات الوفيات ولا تُفسَّر طريقة حسابها.[٣]

ويضاف إلى ذلك، أن تحديدَ وقتِ وقوع الوفاة «في أثناء الهجرة» أمر فيه مشكلات ومصاعب. ويدخل في معنى فكرة العبور في العموم العَارِضيَّةُ (كون الشيء عارضاً غير باقٍ)، فلا تدلُّ على شيءٍ من طول رحلة الهجرة أو وجهتها أو اتّصالها. ففي منهجيةٍ مشروع المهاجرين المفقودين يُفتَرَض أنّ العبور مُتّصلٌ عموماً، ولكنّ الواقع أنّ المهاجرين يكثر أن

يقفوا رحلتهم مؤقّتاً أو أن يغيّروا وجهتهم لتعود إليهم قوّتهم ويعوّضوا ما خسروه من المال، وقد يأتي على تمام رحلاتهم شهورٌ أو سنين. فإن تُوُفِّي مهاجر أو فُقِدَ في أثناء لَبْثة من لبثاته، فلا يَعُدُّ وفاتَه مَشْروعُ المهاجرين المَفقودين. فيكون من ذلك استبعاد كثير من الحوادث من قاعدة المعطيات لأنّ إثباتَ وفاة المهاجرِ وهو في العبور غير مستطاع.

ومثلُ ذلك، أنَّ المهاجرين كثيراً ما يقسرون على اللَّبث بمكانٍ في رحلاتهم بسبب سياسات الحكومات التي تقيِّد حركتَهم. ففي سنة ٢٠٢٠، كانت ما ضُربَ من قيود على التنقُّل بغيةَ أن يُحصَر انتشار داء الحُمَة الكَاتِجية (كوفيد ١٩) مُقْلقاً على الخصوص، فتُرِكَ آلافٌ من المهاجرين متقطّعةً بهم الأسبَابُ في أحوال مُخطِرَة، قد تَخْلُو من المعونة الإنسانية، مثل بلوغ الرعاية الصحيَّة.

تُوُفِّيَ مراهقٌ من ساحل العاج على متن سفينة حَجْرٍ صحيّ في إيطاليا، بعد مرور شهرٍ على إنقاذه من البحر المتوسِّط. وورد أنّ نَقْصَ الرعاية الصحية على متن السفينة صيَّرَ صحته إلى حال أسوأ فتوفِّيَ في آخر المطاف. ولو جُعلَت له رعاية صحية أفضل من فور نَشْلِه من البحر لأمكنَ أن تُنقَذَ حياته.

مصادر المعطيات

تجمع وتنشر بعض المصادر الرسمية المعطيات في وفيات المهاجرين، على أنّ ما يوجد من المعطيات هو في بعض الأحيان غير مدقّق أو غير تامّ. إذ يَجمعُ هذه القلّة من المعطيات الرسمية في العادة هيئات الحدود وفاحصي الطبّ الشرعي. ولمعالجة عدم عدٍّ كثيرٍ من المهاجرين المفقودين في المعطيات الحكومية، يعتمد مشروع المهاجرين المفقودين على مصادر أخرى، مثل وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، والمنظمات غير الحكومية، والمجتمع المدني، والمنظمات الدولية، والمهاجرين أنفسهم.

يُعِينُ مكتب مقاطعة بيما التابع للطبيب الشرعيّ في أريزُونا أُسَرَ المهاجرين المفقودين، إذ يفحص الجثث التي لا يُعرَف أصحابها ويعثر عليها في نطاق سلطته القضائية، ويُعيِّن أيّاً منها يمكن أن يطلق على أصحابها أنهم «عابروا حدود لا يحملون وثائق رسمية». ومن المعايير التي يتّخذها المكتب وجدان الجثّة في مسلك من مسالك الهجرة المعروفة، وتطابق متاع الشخص والأشياء التي يحملها المهاجرون عادةً، وقدوم هذه الأشياء من المكسيك. فينشأ عن هذا التصنيف اليسير سجلٌّ لا يقدّر بثمن لوفيات المهاجرين على طول حدود تقع فيها إحدى أعلى معدلات الوفيات. ومنذ سنة ٢٠٠١، سجلَ المكتب أكثرَ من ٣٣٩٨ وفاةً من وفيات المهاجرين.[٤]

فأكثر ما يستعمل مشروع المهاجرين المفقودين من المصادر تقاريرَ وسائل الإعلام. ولكن يكثر أن تكون المعلومات التي تنشرها وسائل الإعلام في وفيات المهاجرين غير مدقّقة أو غير تامّة، أو أن يساء تفسيرها ويُغالَى فيها.[٥] ويضاف إلى ذلك، أنّ الوفيات حين تقع منها أعداد كثيرة في طرق الهجرة المعروفة، مثل طريق البحر الأبيض المتوسط، هي أكثر قرباً إلى أن تُبلِّغَها وَسائلُ الإعلام، وهذا قد يثبت في معطيات مشروع المهاجرين المفقودين صفةَ الانحياز. وهذه المشكلة إنما تتفاقم حين يركز جزء كبير من نشرات الأنباء همّه في بضع مسائل فقط. ففي سنة ٢٠١٥، كان حظّ أزمة خليج البنغال من نَشْر أنبائها في وسائل الإعلام عريضاً، فزادت معطياتنا زيادةً عظيمة. ووثّق مشروع المهاجرين المفقودين موت ٥٧٧ مهاجراً من الروهنغيا في البحر في تلك السَّنَة. ولكن في سنة ٢٠٢٠ سجل المشروع من وفيات البحر ١٦٥ وفاة فقط، مع أن المنظمات غير الحكومية قد أعلنت أن بضعاً وألفاً من الروهنغيا تقطعت بهم الأسباب في البحر شهوراً، مشيرةً بذلك إلى أن عدد الوفيات قد يكون أكثر كثيراً من ذلك.

هذا ويستعمل مشروع المهاجرين المفقودين أيضاً مصادر أخرى للمعلومات مثل استطلاع المهاجرين وشهادات النَّاجين. على أنّ ما يحدث أخيراً من تشديد الإجراءات على المنظّمات غير الحكومية التي تقوم بأعمال البحث والإنقاذ وتدعم المهاجرين بما ينقذ أرواحهم –مثل الذين ينشطون في البحر المتوسط والحدود الجنوبية في الولايات المتحدة– لا يُعرِّض حياة المهاجرين للخطر فحسب، بل هو إلى ذلك يعوِّق قدرتنا على جمع الأدلة. وأخيراً، يستعمل مشروع المهاجرين المفقودين معطيات الموضع المُنطَلَق منه في البحر لتعيين الحوادث المحتملة التي يدخل فيها وفيات المهاجرين أو اختفاؤهم في مسالك البحار.

في سنة ٢٠٢٠، زاد تدفُّق المهاجرين في الممر البحري من الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا إلى جزر الكناري الإسبانية زيادةً عظيمة بالقياس إلى تدفقهم سنة ٢٠١٩. وكانت معلومات جنس المفقودين في هذا الممر وسنّهم وموضع موتهم أو اختفائهم المحدَّد قليلة الوجود. ففي سنة ٢٠٢٠، توفي ٨٤٩ شخصاً في الأقل على هذا الممر. وما يزال هناك عدّة حوادث تحتمل أن يكون توفِّي فيه مئات من الناس سيتثبّت منها مشروع المهاجرين المفقودين ويسجّلها، ولكن جَمع الأدلة صعب. وبناءً على ذلك، ابتدأ مشروع المهاجرين المفقودين جمعَ معطيات المنطلقين من ساحل السنغال؛ فبذلك يمكن بعدُ أن تُقَابَل هي ومعطيات الواصلين إلى جزائر الكناري لحُسبَان ما يحتمل عرقه من السفن.

التوصيات

صحيحٌ أنّ المتحدِّيات التي تعوِّق التوثيق كثيرة، ولكن يمكن أن يُفعَل شيء كثير لتحسين استيعاب معطيات المهاجرين المفقودين وإتمامها، كما تقترح التوصيات الآتية.

يجب أن تمثل المعطيات التجارب المعيشة التي يخوض فيها الناس في رحلات الهجرة. يجب على الفاعلين الذين يعملون بالتعريفات الإجرائية، مثل تعريفات مشروع المهاجرين المفقودين، أن يصوغوا إرشادات في طُرُق تكيُّف منهجيتهم بالحقائق النَّاشئة في رحلات الهجرة.

يجب على كلٍّ الفاعلين العاملين في الأمكنة التي تقع فيها وفيات المهاجرين واختفاؤهم أنْ يجمعوا المعطيات وينشروها. وأيضاً يجب على الفاعلين الذين يجمعون تقاريرَ المفقودين أن يصنّفوا هذه المعطيات بحيث يمكن أن تُعيَّن حالات الاختفاء التي بينها وبين الهجرة صلة.

يجب أن يتشارك الفاعلون في معطيات المهاجرين المفقودين من غير نظر إلى التعريف. يكثر أن تكون معطيات المهاجرين المفقودين متفرّقة ومجزّأة، وهناك قيمة عاليةلجمع مصادر المعطيات المتباينة معاً لتُقابَل وتُحقَّق.

يجب على الدول أن تبتدئ سريعاً جمعَ معطيات وفيات المهاجرين داخل أراضيها. لا يبعد أن يكون الفاعلون الرسميُّون يجمعون معطيات الوفيات في طَوْق ولايتهم القضائية. ويجب على السلطات المحلية والوطنية والإقليمية التي تجمع هذه المعطيات أن تصنّفها بحسب حالة الهجرة وأن وتنشرها وفقاً لمعايير حماية المعطيات. ويشمل ذلك جمع المعلومات -جمعاً مُدقّقاً- من المهاجرين فيما شهدوا من وفيات أصحابهم أو اختفائهم.

يجب أن تتعاون المنظمات غير الحكومية والمنظمات غير الحكومية الدولية والمجتمع المدني على حلّ المسائل وتوليد الأدلة. من الفاعلين غير الحكوميّين مَن يقود مباشرة مع الناس وهم ينتقلون أعمالاً يبذل فيها الجهد لجمع المعطيات، ويمكن أن يتجيء تلك الأعمال بمعلومات جديدة وأن تزيد احتمالَ تحقيق المعطيات، ولا سيما في الأحوال التي لا تُسترجَعُ فيها جثث المهاجرين. وينبغي أيضاً أن يُحَثّ على معاونة أسر المفقودين وعلى التعاون فيما بينها، ففي مشاركتها إتيانٌ بمعلومات مهمّة ومعونة لها على التصدِّي لصعوبة الحَيْرة فيما فقدوا.

يجب أن تلتزم وسائل الإعلام المبادئ التوجيهية الراهنة في تبليغ وفيات المهاجرين. يمكن أن تكون التقارير الإعلامية أوَّلَ مشير إلى وفاة مهاجر أو اختفائه، فلها بذلك شأنٌ عظيم في جمعِ المعطيات. ويجبُ الكلام في تفاصيل الناس الداخلين في مثل هذه الأحداث كلما أمكن ذلك، مع مراعاة الواجب للموتى ومصالح أسرهم. وفوق ذلك، ينبغي أن تذكر التقارير الإخبارية ما يقيّد كلّ معطيات تنشرها، وذلك لتجنب انتفاء التَّدقيق أو التفسير المغلوطِ فيه، وينبغي أن تسعى إلى وصف مَن تمثّله الأعداد من الناس.

أندريا غارثيّا بورخا
agarciaborja@iom.int @agarciaborja
مُحلِّلة معطيات

جوليا بلاك jblack@iom.int @_Julia_Black
موظَّفةٌ في المشروع

مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

١. https://missingmigrants.iom.int
٢. هذه الأرقام تستوعب ما حدث من ذلك في المدة الواقعة بين ١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤ و٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٢١.
٣. Dearden K, Sánchez Dionis M, Black J and Laczko F (2019) 'Calculating "Death Rates" in the Context of Migration Journeys' (حسابُ «معدلات الوفيات» في سياق رحلات الهجرة) bit.ly/IOM-GMDAC-Dearden-et-al-2019
٤. خريطة وفيات المهاجرين bit.ly/35ajDhC
٥. White A and Singleton A 'Mixed messages: Media coverage of migration and fatalities', chapter 3 in IOM (2017) Fatal Journeys, Volume 3, Part 1: *Improving Data on Missing Migrants* bit.ly/2Us5nKQ (رسائل مختلطة: نصيب الهجرة والوفيات من نَشْر أنبائها)

الحماية في البحر

انظر ما سبق أن نُشِر من مقالات في نشرة الهجرة القسرية أُدِيرَت حول هذا الموضوع، وقد جُمِعَت في قائمة مواضيعيَّة تحت عنوان الحماية في البحر. فإن شئت قراءتها وجدتها متَّصلة بالشَّابكة هنا www.fmreview.org/thematic-listings.

التصدِّي لمُتحدِّيات التَّشارك في معطيات الدَّنَا

سارة كَتْسانِس وديانا مادِن وكُورتني سِگرْت وإدوَردو كانالِس وكَيْت سبَرْدلي

تمثِّل العوائق الإدارية والأخلاقية التي تحول دون التشارك في معطيات الدَّنا لتعرُّف هوية المهاجرين المعثور عليهم في طول الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك- مثالاً على الحاجة إلى حلول طويلة الأمد وإلى أعمال مستدامة.

الدَّنَا (DNA) موروثٌ لا يتبدَّل أبداً، ومقياسٌ قوي في تعرُّف هوية الإنسان من رفاته. وقد تقدَّمت وجوه التَّحسين التقني في استعماله على مر العقود، ولكنَّ العوائق الأخلاقية والإدارية والبيروقراطية تقيِّد استعماله، ولا سيَّما في التعرُّف العابر للأوطان. وهذا بيِّنٌ في الولايات الحدودية من الولايات المتحدة، حيث تُدفَن الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها ويُظَنُّ أنها لمهاجرين من غير أخذ عيِّنات الدَّنَا منها أو تُترك لتظلَّ بلا اسم عدَّةَ سنين.

منذ سنة ٢٠٠٨، عُثِرَ على أكثر من ٨٠٠ جثمان لا يُعرَف صاحبه في مقاطعة بروكس، على بعد أكثر من ٧٠ ميلاً في شماليّ الحدود بين تكْسَس والمكسيك.[١] ويجري على هذه الوفيات التي لا يُعلَم سببها تحقيقٌ يشتمل في معظم الأمكنة على تشريح الجثة مع أخذ عينات من الدنا، ولكن في جنوبيّ تكسَس لم تُتَّبع القوانين وسُنَن العمل في ذلك قبلَ سنة ٢٠١٣، وهذا يعني أنه لم تؤخَذ عينات من الدنا قبل هذه السنة. ولذا تُنبَشُ القبور اليومَ لجَمْع الدنا والمعطيات الأناسيَّة الأخرى لتحقيق هوية المتوفى. وقد تُعرِّفَت إلى الآن ٣٤ جثّة من ١٦٣ جثّة من جثث الذي تُوُفُّوا من زمن بعيد، ومزيد من القبور ستُنبَش. وبسبب النقص الذي لم يزل منذ زمن بعيد في تتبُّع الحالات في المنطقة، لا نعرف عددَ القبور الغُفْل أو غير المعلَّمة التي قد تحوي رفات المفقودين.[٢]

وكثيراً ما يستغرق التعرُّف سنين، فعادةً تُرسَل الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها إلى سلطة طبية قانونية لتُتَعرَّف هُويّتها، وهناك في معظم الحالات يجري عليها التشريح، وفيه أخذ عينات من الدنا. ثمَّ تُحمَّل معطيات الدنا على نظام معطيات الدنا الاتِّحاديّ: النظام المركَّب لفهرس الدنا. وتُقابَل هذه المعطيات ومعطيات فهرس المفقودين وفهرس أقارب المفقودين. وفي التعرُّف المبنّي الدنا باستعمال النظام المركَّب لفهرس الدنا نظريّةٌ تقول إنّه في وقتٍ ما سيُخبِرُ أفراد الأسرة عن مَفقودهم ويقدِّمون عينات «مرجعيّة أسريّة» من الدنا. وحينئذ يمكن أن تتسلَّم كلّ ولاية قضائية في الولايات المتحدة بلاغاً بمفقودٍ وعيّنةً مرجعيّة أسرية، ثمَّ ترسل تلك العيّنة إلى مختبرٍ دنا تابعٍ للنظام المركَّب لفهرس الدنا.

حاجةٌ إلى التَّنسيق والتَّعاون

وأما الأُسَر المهاجرة فيعترضها عوائق متعدِّدة تعوِّق تعرُّف الهوية. فالنظام المركَّب لفهرس الدنا صُمِّمَ أوَّل ما صُمِّم للقضايا الجنائية لا لتعرُّف هويّة المفقودين. وصُمِّمَ لحماية جَوْدة المعطيات، وفيه قيودٌ على الوصول إلى المعطيات تُنشئ أعباء ثقيلة في الأعمال الورقية عند رَفْع تقارير للجثامين التي لا يُعرَف أصحابها وللعيّنات المرجعيّة الأسرية. ثم إنّ مختبرات الجريمة تُبدِّي النظر في الحالات الفردية التي قد تكون حياة الفرد أو حريته مُهدَّدة بالزوال؛ أي أنَّ مُعالجةَ الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها والعيّنات المرجعيّة الأسرية قد تُؤخَّر. وأيضاً تقتضي مختبرات النظام المركَّب لفهرس الدنا رقمَ تقرير حالة للمفقود من ولاية من الولايات القضائية الأمريكية، وهذا قد لا يكون ممكناً إذا رُفِعَ التقرير خارجَ الولايات المتحدة.

وأهمُّ من ذلك أنه في حالات المفقودين العابرة للأوطان، من المقتضيات الاتِّحادية لنظام المركَّب لفهرس الدنا أن يَجْمَعَ العينات المرجعية الأسرية موظَّفو إنفاذ القانون. ولكن قد لا يرغب أقارب المفقودين في إعطاء سلطات إنفاذ القانون عيّنات مرجعيّة أسرية، وربما كان السبب في ذلك خوفَهم من أن يُبعَدُوا هم أو أفراد أسرهم. وفوق ذلك، يمكن أن يعرِّض الإدراك العامّ بتقرير المفقود حياةَ الأسرة والمُهاجِر للخَطَر. إذ يكثر أن يَقَعَ الابتزاز على أفراد الأسرة الذين يُخبَرون بالمفقود.

هذا، وتستمرّ عدّة من الجهود الحكومية وغير الحكومية في تحسين البحث والاسترجاع، وتعرُّف الهوية، والاتصال والإعادة إلى الوطن. مثال ذلك: أن بعض السلطات القضائية ابتدأت في إرسال الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها والعيّنات المرجعيّة الأسرية إلى مختبر دنا خاصٍّ لا يطلب أخذ عيّنات مرجعيّة أسرية في حضور سلطات إنفاذ القانون، وقد أسهم ذلك في تعرُّف هويّة كثيرٍ من الأفراد. ويمكن أن يقبل المختبر الخاصّ أيضاً الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها والعيّنات المرجعيّة الأسرية من بُلدان أخرى. على أنّ أكثرَ الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها واردة في النظام المركَّب لفهرس الدنا، وبعضها وارد في قاعدة معطيات خاصّة، وأما العيّنات المرجعيّة الأسرية فأكثرها

سارة كيليس

قَبرُ مهاجِرٍ غُفْل (غير معروف الهويّة) في جبّانة سَكْرِد هَرْت في مقاطعة برْكس.

مُودَعٌ قاعدةَ معطيات خاصَّةً لا في النظام المركَّب لفهرس الدنا. فأنشأ ذلك نظامَين لمعطيات الدنا منفصلٌ بعضهما من بعض، يعتريهما النَّقص في الحالات الإفرادية، ففُوِّتت فرصٌ في تعرُّف الهويّات.

ومع مرور السنين، اجتمعت جماعات مختلفة من أصحاب المصلحة للتصدِّي لهذه المُتحدِّيات وغيرها من مُتحدِّيات تعرُّف الدنا. وفي أصحاب المصلحة جميع طبقات إنفاذ القانون، وقضاة الصلح، والمسؤولون الطبيُّون القانونيُّون، والقنصليات، والمنظِّمات الحكومية الدولية، والمنظمات الإنسانية، وأُسَر المهاجرين، وعلماء الأناسَة الشرعيِّون، والقيِّمون على قواعد المعطيات، وخبراء الدنا، والمسؤولون الحكوميُّون، وخبراء حقوق الإنسان. وقد نشأت بعض التحسُّن باجتماع هذه الجهود، مثل: تحسين الاتصال بين أصحاب المصلحة، وإنشاء قاعدة معطيات إنسانية جديدة حتَّى يُقَابَلَ بين العيّنات المرجعيّة الأسرية التي لا وجود لها في النظام المركَّب لفهرس الدنا وبين الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها في النظام المركَّب لفهرس الدنا، ومن التحسين أيضاً أنَّ المسؤولون القنصليُّون صار يسمح لهم بجَمْع العيّنات المرجعيّة الأسرية لتُودَعَ النظام المركَّب لفهرس الدنا.[٣]

وأما شَأنُ الأكاديميِّين فسلوك طُرُق للمقاربة البحثيّة غير متحيِّزة لفحص فجوات السياسة ووجهات النظر المختلفة التي تقيِّد التَّقدُّم. وقد وضعت فرقتنا إستراتيجيةَ بحث تركز همَّها في استعمال معطيات الدنا في التعرُّف، وفي آذار/مارس ٢٠٢٠ عقدنا ندوةً لأصحاب المصلحة المحترفين وتناقشنا في خيارات السياسة (وفي نيَّتنا أيضاً أن نستجمعَ أُسَر المفقودين العابرين للأوطان). فمكَّننا ذلك من سرد المُتحدِّيات التي حدَّدها أصحاب المصلحة ومن النظر في الأولويات والمقترحات التي تقدِّمها كلّ جماعة من أصحاب المصلحة بين يديها.

أهداف مختلفة وأولويَّات مختلفة

ومع حُسْن نيّة أصحاب المصلحة جميعاً، تؤدِّي الضغوط السياسية والاختلافات الشَّديدة في الأولويات المبنيّة على الأهداف إلى الخلاف وسوء التواصل بشأن في شؤون السياسات. مثال ذلك، أنَّ عند وحدة من وحدات العدالة الجنائية مصلحةٌ في الحفاظ على النزاهة في قضية مفقود يمكن أن تكون جريمة قتل. ومثل ذلك، أنّ أَمنَ الحدود له مصلحة في معرفة هويّة المهاجرين والمنتسبين إليهم حتَّى يتحقَّق العصابات والمشتغلين بالتَّهريب. ويُبايِّن ذلك أنَّ المنظَّمات الإنسانية تَنْصُر حقَّ الأسرة في المعرفة وإعادة أعزّائها إلى الوطن من غير نظر إلى دخولهم في أعمال غير قانونية. ولكلٍّ هدف من هذه الأهداف قيمةٌ جوهرية، غير أنّ الاختلاف فيها يجلب الخلاف والجَدل.

هذا، وكثيرٌ من المعلومات المحيطة بالمفقود العابر للأوطان بالغٌ في الحساسيّة. وتُعدُّ المعطيات الجغرافية التي يُعثَر فيها الرفات مفيدةً في العثور على مزيد من الناس وفَحْص في طُرُق التَّهريب. ويمكن أن يستغلَّ المهرِّبونَ أو الخاطفون أسماءَ أفراد أُسَر المفقودين أو يمكن أن تُستعمَل في التحقيق في انتهاكات الهجرة في الولايات المتحدة. وأيضاً يمكن استعمال معطيات الدنا من المفقودين ومن أفراد أسرهم في التحقيق في الأعمال الإجرامية. وبالنظر إلى هذه الحساسيات، ترى أنَّ انتفاءَ الثقة

بين جماعات أصحاب المصلحة كثير. ففَهم الأعمال الجارية ومصالح أصحاب المصلحة خطوةٌ أولى في التقدُّم، وفي هذه المرحلة من بحثنا يمكن ملاحظة بعض ميادين رئيسة لتحقيق التَّحسين.

تحويل السَّرديَّات المحيطة بالجثامين التي لا يُعرَف أصحابها: كثير من وجوه الافتراض تحجب تصوُّر الأحوال المُلابِسة للمفقودين عند الحدود. وأحد وجوه الافتراض أنَّهم مهاجرون جميعاً. نعم، كثيرٌ منهم مهاجرون ولكن ليس كلّهم. ووجه افتراض آخر هو أن المهاجرين جميعاً هاجروا من المكسيك وبلدان في أمريكا الوسطى. ولكن تتزايد اليوم أعداد المهاجرون الذي يأتون من جميع العالم إلى أمريكا الجنوبية ليقصدوا الشَّمال إلى الولايات المتحدة. ووجه افتراض آخر يقول إن المُتحدِّيات التي تعترض التعرُّف بالدنا مقتصرة على المهاجرين المفقودين. لكنَّ الواقع أنّ كثيراً من قيود التشارك في المعطيات وقيود التمويل مضروبةٌ على جميع ضروب التَّحقيق المتعلق بالمفقودين. وقد عدَّلنا لغتنا بأخرة فاستبدلنا بمصطلح «المهاجرين المفقودين» مصطلح «المفقودين العابرين للأوطان» لنُبيِّنَ تماماً أن المُتحدِّيات ليست مقصورة على المهاجرين أو على مناطق معينة من العالم، ولنُبرزَ المسائل الخاصّة بوجوه التعرُّف العابرة للحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك.

تحسين التواصل: سوء التفاهم متخلِّلٌ في المنظَّمات، ولا سيِّما حين يدخل في الأمر أصحاب مصلحة كثيرون. ولذا كان الوضوح والصَّراحة ضروريّان في تنفيذ السياسات الجارية، وصَوْغ سياسات جديدة، والتواصل بين المنظمات.

رَفْعُ الحلول الإبداعية: أكثر النتائج الواعدة لبحثنا هي الأفكار التي يمكن أن تُحسِّن الحال الراهنة. مثال ذلك، أنَّ كثيراً من أصحاب المصلحة عبّروا عن دعمهم العامّ لاستعمال أدوات «الدنا السريع» في تحليل معطيات الدنا سريعاً في الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها والعيِّنات المرجعيَّة الأسرية. ويمكن أن يَستعمِلَ هذه الأدوات غير ذي خبرة، إذ في طَوْقها معالجة العينات في ٩٠ دقيقة، وهي تُحمَل وحملها يسير بالقياس إلى غيرها. وقد اتُّفِقَ اتِّفاقاً قويّاً على الحاجة إلى آلية لتدريب الأفراد غير العامِلين في إنفاذ القانون وإعطائهم الشهادات، حتَّى يصبحوا جامعي عيّنات مرجعيّة أسريّة.

وصحيحٌ أنّ آليات السياسة الدقيقة المحتاج إليها لتحقيق التَّحسين ما تزال غير واضحة، ولكن كلٌّ صاحب مصلحة لقيناه يوافق على أنَّ إصلاحَ سُنَن العمل المتّبعة اليوم ضرورة. فنأمل أن يكون في بناء إطار سياسيّ مبنيّ على الأولويات والحلول التي يقودها أصحاب المصلحة إعانةٌ على الإتيان بحلول مستدامة.

سارة كَتْسانس
sara.katsanis@northwestern.edu @GxJustice
بوفيسورة بحث مساعدة، في طب الأطفال، بكلية الطب في فِنْبرغ، من جامعة نورثوسترْن، ومستشفى آن وروبرت لوري للأَطفال في شيكاغو

ديانا مادن *dimadden@luriechildrens.org*
مُنسِّقةٌ بحوث السلوك، في مستشفى آن وروبرت لوري للأطفال في شيكاغو

كُورتني سِگرْت *csiegert@txstate.edu*
مُرشّحَةٌ لنَيْل درجة الدكتوراه، بكلية علم الإنسان، في جامعة تِكْسَس

إدوَردو كانالس
ecsouthtexashumanrights@gmail.com
مُؤسِّسٌ ومدير، في مركز سَوْث تِكْسَس لحقوق الإنسان

كَيْت سبَرْدلي *mks@txstate.edu @kate_spradley*
بروفيسورةٌ، بكلية علم الإنسان، في جامعة تِكْسَس

كلُّ ما ورد من آراء في هذه المقالة هي آراء مؤلِّفيها وليست آراء الجهات التي ينتمون إليها أو يعملون فيها ولا آراء المموِّلين. وقد دَعَمَ هذا العملَ منحةٌ أرقامها R01HG009923 من المعهد الوطني لبحوث المجموع المُورِّثي البشري (الجينوم البشري).

١. صحيحٌ أن مقاطعة بروكس لا تقع على الحدود، ولكنّها تتناول كثيراً من وفيات المهاجرين بسبب وجود بقعة تفتيش تابعة للجمارك ودوريات الحدود الأمريكية.

٢. Spradley M K and Gocha TP (2020) 'Migrant deaths along the Texas/Mexico border: a collaborative approach to forensic identification of human remains', *Forensic Science and Humanitarian Action: Interacting with the Dead and the Living*
(وفيات المهاجرين على طول الحدود بين تِكْسَس والمكسيك: طريقة تعاونيّة تُقَارِبُ تعرُّفَ هويّة الجثامين في الطب الشرعيّ)
https://doi.org/10.1002/9781119482062.ch34

٣. Budowle B, Bus M M, Josserand M A and Peters D L (2020) 'A standalone humanitarian DNA identification database system to increase identification of human remains of foreign nationals', *International Journal of Legal Medicine* 134(6)
(نظام قاعدة معطيات قائمٌ برأسه لتعرُّف الدنا في المعونة الإنسانية بغيةَ زيادة تعرُّف جثامين المواطنين الأجانب)
https://link.springer.com/article/10.1007/s00414-020-02396-9

والمَتروكُون خَلْفاً؟

مَرْتا سَنْشز دِيُونيز وكَيْت دِيردَن

لاختفاء الناس وهم في رحلات الهجرة آثارٌ عميقة في أسرهم ومجتمعهم.

أُسَرُ المفقودين في رحلة الهجرة بين أمرين: إمَّا لا تعلم كيف تطلب الدعم الحكومي وإما يعروها الشكُّ في فِعْل ذلك، وتكاد الدُّول لا تعمل شيئاً لمعالجة هذه المشكلة. والظاهر أنه يقلُّ الفهم والتقدير للعقبات التي تعترض الأُسَر في البحث عن إجابات في مَصير أعزّائهم المفقودين، ولتأثير مثل هذه الحال في حُسْن أحوالهم وسُبُل معاشهم.

في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ٢٠١٨، أيَّدت ١٥٢ دولةً الاتفاقَ العالمي للهجرة وقرَّرت «إنقاذَ النفوس وبذلَ جهد دولي مُنسَّق في شأن المهاجرين المفقودين»، و«تيسيرَ الاتِّصال بالأُسَر المتضرِّرة» و «إنشاءَ قنوات تنسيق عابرة للأوطان وتَعْيين مواضع اتِّصال للأُسَر التي تبحث عن المهاجرين المفقودين».[1] ومع ذلك، تَجِدُ الأُسَر قيوداً بنيوية مُتعدِّدة، من أحوالها الخاصّة إلى انتفاء الأُطر المؤسَّسية والسِّياسية المناسبة التي تُراعي حَرَكيَّات (ديناميَّات) الوفيات وحالات الاختفاء في رحلات الهجرة. وتَنْجُمُ القيود أيضاً عن التفاعلات المُعقَّدة التي تصوغها طبقة المهاجرين وحال هجرتهم وجنسهم، في حين أن الجهد المبذول لتتبُّع الأقارب قد ازداد تعقُّداً بَذْلُه بجائحة داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩).

اختفى شقيق ليلى فجأةً من حياة أسرته ومجتمعه. انقطع الاتِّصال به بين عشيَّة أو ضُحاها. «هَتَفَ إلينا من الساحل وقال إنه سينام هناك ويذهبُ في اليوم الثاني». فما اتَّصلَ بعد ذلك قطّ.

وفي سنة ٢٠٢٠، أجرت المنظمة الدولية للهجرة بحثاً في إثيوبيا وإسبانيا والمملكة المتحدة لتعرف كيف يمكن تحسين دَعْم الذين فقدوا أقاربهم المهاجرين في بحثهم عنهم وتدبّرهم آثار الفقدان.[2] على أن الدراسة لا تمثل ما لقِيَتهِ كلّ الأُسَر المهاجرة. ومع ذلك، ففيها أفكار عميقة في كيفية تأثُّر الناس بفَقْد عزيزٍ في رحلات الهجرة.

تجارب الأُسَر

بين طريقة مقاربة الحكومات ومعارفها وحاجات الأُسَر فجوة واضحة. إذ تجِدُ الأُسَر في جميع البلدان شعوراً بالحَيْرة فلا تعلم الموضع الذي تبتدئ فيه بحثها حين تُـدرك أن هناك نقصاً في البروتوكولات أو الكيانات التي يمكن أن تدعم بحثها. وإذا اتصلت الأُسَر بالسلطات، تقول لها السلطات في العادة إنها ليس لها سلطة قضائية على مسائل المهاجرين المفقودين، وتزعم أن الاختفاء لم يحدث على أرضها.

وأيضاً فهناك تصور واضح بأن السلطات تعامل قضايا المهاجرين المفقودين أوَّل ما تعاملها معاملةَ قضية من قضايا مكافحة التَّهريب والاتِّجار بالناس أو مراقبة الهجرة. ويُضغَط على الأُسَر لتذكر تفاصيل مُيسِّري التَّهريب الداخلين في الأمر، وكثيراً ما يقال لها إنها ما كان ينبغي لها أوَّلَ شيءٍ أن تدعَ أقربائها يخوضون في رحلة الهجرة. ويرى الذين هم أنفسهم من المهاجرين، وبخاصة الذين حال هجرتهم غير مستقرّ، أن الذهاب إلى أيّ سلطة (أو حتى أي منظَّمة يرون أنها قد تشارك السلطات في المعلومات) من شأنه أن يُعرِّض إقامتهم في البلد للخطر. ثمَّ إنَّ المناصرين المجتمعيِّن الذين يتصلون بالسلطات نيابة عن الأُسَر يُسألُونَ عن صلتهم بالأُسَر ويُتَّهمون بالارتباط بجماعات تهريب المُهاجِرين أو بالمشاركة في تيسير تهريب المهاجرين.

لذلك تعتمد الأُسَر في الأكثر على القنوات غير الرسمية، والاتصال بالأصدقاء وأفراد الأُسرة في مختلف البلدان، والاتِّصال بالذين سافروا مع أقاربهم، مثل المهاجرين الآخرين ومُيسِّري التَّهريب. مثال ذلك أنَّ في إثيوبيا كان مُيسِّرو التَّهريب –الذين هم أنفسهم يكثر أن يكونوا أفراداً في المجتمع المحلي– راغبين وقادرين في كثير من الأحيان على الوصول إلى جهات الاتصال والمعلومات التي يمكن أن تُحدِّد أو تُعين على تحديد النواحي التي انتهى إليها المفقود.

ويعتمد كثير من الأُسَر على فِرَق مجتمعية وجمعيات للمهاجرين واللاجئين وعلى مناصرين لهم، كثيراً ما يكونون هم أنفسهم مهاجرون، ويُتقنون لغات الأُسَر، وعندهم فهمٌ عميق للسياقات المختصّة بالأُسَر في مجتمعاتها المحليّة.

وتلقَّت ليلى دعماً في إسبانيا من شبكة من مناصري المهاجرين، يعينون الأُسَر على بحثها. فكلمنا أميرة، وهي تُعين ليلى على البحث عن شقيقها، فقالت لنا: «إذا اتَّصلت بي أسرةٌ أو فردٌ من الفِرَق، نبتدئ البحث عن المعلومات بمعونة شَبكَة من المعارف غير رسمية وغير نظامية ... نبحث عنهم في المستشفيات، ثم في المُعتقلات والسُّجُون ... ثم في المشرحة أخيراً...».

وتستعمل الأُسَر وسائل التواصل الاجتماعي في البحث، فتنشر وصفاً قصيراً للمفقود وصُوَراً، وتستعين بفِرَق التحرِّي لأخذ معلومات عن المهاجرين المفقودين أو الموتى. ولكن يفتقر كثير منها في منازلها إلى الشَّابكَة (الإنترنت) أو الحواسيب، ولا سبيل لها إلى إجراء البحث الشَّابكي إلا من عند المنظَّمات المجتمعيَّة. ولقد تفاقم أمرُ قِلّة

هذا أحد المشاركين في بحثنا وهو يُرينا آخر صورة عنده لأخيه الكبير الذي فُقِد.

بلوغ التِّقانة، وهو أمر مُشكِلٌ أصلاً، في جائحة داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، إذ أُغلِقَ كثيرٌ من مواضع البلوغ إليها، مثل مقاهي الشَّابكة أو المراكز المجتمعيَّة أو المكتبات.

غير وُجوه ضعف وصعوبة

كثيراً ما يكون الدخول في البحث مُكلفاً، والافتقار إلى الموارد المالية يُنشئ مُعوِّقاً زائداً. ويمكن أن يؤدي رفع التقارير، والاجتماع بالسلطات، والسفر إلى آخر المواضع التي شُوهد فيها الشخص، ومحاولة اقتفاء آثاره، إلى كلفة ثقيلة، هذا سوى الاحتيال أو الابتزاز في مقابل أخذ المعلومات. ثم إنَّ للأُسَر في بلدان عبور المهاجرين ومقصدهم، مثل إسبانيا والمملكة المتحدة، وظائف غير مستقرة ومنخفضة الأجر وأحوال سُكنَى رديئة، فيقلِّل ذلك كثيراً قدرتها على ابتداء البحث. وفي الأمكنة التي يجيء منها المهاجرون، مثل إثيوبيا، يكثر أن تُترَك الأُسَر بلا دعم اقتصادي كان يُتوقَّع أن يدعمهم به أفراد أسرهم المفقودون إن نجحت رحلتهم. وأيضاً يعترض كثيراً منهم مسؤولية سداد الديون الكبيرة التي تكبدها أعزّاؤهم ليسدِّدوا نفقات رحلتهم. وهذا إنما يؤثِّر بخاصة في النساء والأقارب الكبار السن الباقين.

ومن وجوه الضعف أيضاً الحرمان القانوني من الحقوق، وهو أمر يصوغ قرارات الأُسَر. وكثيراً ما يُؤدِّي الخوف من ابتداء بحث قبل بلوغ حالة الهجرة المناسبة إلى إرجاء البحث، فإلى ضياع وقتٍ ثمين من جَمْع المعلومات أو الأدلة أو كليهما. وأيضاً فقد تقلِّل قيود سِمة الدُّخول (التأشيرة) خيارات البحث.

ذلك، ويُقدِّم بحث المنظمة الدولية للهجرة بين يديه دليلاً يُبيّن كيف يمكن أن يقود الاختفاء إلى تفاقم واشتداد ضروب طويلة الأمد من انتفاء المساواة الجنسانيَّة. فلما كان معظم المُهاجرين المفقودين رجالاً، كَثُرَ أن تكون الزوجات والأخوات والأمهات هُنَّ اللاتي يَسُقْنَ البحث، ويتحملنَ قدراً غير موافق لأحوالهنَّ من المسؤولية الاجتماعية والمالية. ويُتوقَّع من النساء في الوقت نفسه الاستمرار في بحثهنَّ عن المفقود مع رعايتهنَّ أطفالهنَّ وأفراد الأسرة المُسنِّين.

الخاتمة

صحيحٌ أن بعض آثار السياسة العامة لبحوث المنظمة الدولية للهجرة مُحدَّدة السِّياق، ولكنها تُعبِّرُ عمّا سبق من الاستنتاجات

والتوصيات التي أتى بها مشروع المهاجرين المفقودين ومنظّمات أخرى، مثل لجنة الصليب الأحمر الدولية.[٣]

وينبغي في كلِّ ما يُبذَل من جهد لإعانة الفاقدين أفراداً مهاجرين من أُسَرهم أن يُقَرَّ بخبرة الأُسَر ومعارفها وحُسْن حالها وأن توضع في مركز الهمّ. وهذا إنما يعني قضاء حاجاتها، بدلاً من التركيز على الجوانب الأمنية والجنائية الملابسة لاختفاء الشخص. وينبغي أن يكون تعريف الأسرة ليّناً في الحالات التي يدخل فيها فقد مهاجر، هذا مع مراعاة التبعية الانفعالية، وأن يُوافِقَ السياقات الثقافية وغيرها.

ثم إنَّ الفِرَق المجتمعية والمناصرون في القاعدة الشعبية والمنظمات غير الحكومية ومنظمات المجتمع المدني الرئيسة والمنظمات الأخرى التي تدعم أُسَر المهاجرين المفقودين، كلّ هذه ذات أهمية حاسمة إذ انتفت القوانين والسياسات وعوامل الصَّوْن المناسبة التي تعين الناس على الاقتراب من السلطات وتلقّي الدعم منها. فيمكن أن تؤلَّفَ فِرَق عمل من هؤلاء الفاعلين وأُسَر المهاجرين المفقودين في كل دولة للإعانة على تبادل المعلومات بين الأُسَر والهيئات الحكومية المتّصلة بالأمر. ونعم، هذا التعاون يمكن أن يبتدأ به على صعيد القُطْر، ولكن ينبغي أن يكون القصد هو تأليف شبكات مع الفاعلين الآخرين على الصعيد الإقليمي وخارجَه، لتبادل سُنَن العمل الفضلى وللإعانة على حلّ قضايا معينة من قضايا المفقودين.

إنَّ مسألة المهاجرين المفقودين لا تعالجها السِّياسَات العامَّة أو القوانين معالجةً تصلح بها. ولعلَّ من المنطلقات عند كل دولة أن تَضَعَ بروتوكولاً من شأنه أن يُمكِّن من اتِّباع طريقة مقاربة موحَّدة لتنفيذ الأحكام القانونية الوطنية والدولية القائمة، التي تحمي حقوق أُسَر المهاجرين المفقودين. وينبغي أن يتضمن هذا البروتوكول تعليمات لجَمْع المعطيات وحفظها والتشارك فيها بفعَّاليَّة، وللتعاون بين القطاعات في قضايا المفقودين. فيتنزَّل البروتوكول منزلةَ دليلٍ للأُسَر، وأيضاً للفِرَق المجتمعية والمنظّمات والهيئات الحكومية التي تحاول إعانتها، على كيفية بحثها عن أعزّائها وحصول الدَّعم لها.

مَرْتا سَنْشز دِيُونيز ***msanchez@iom.int*** ***@msdionis***
موظَّفةٌ في مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

كَيْت دِيردَن ***kdearden@iom.int***
موظَّفةٌ في مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

١. www.iom.int/global-compact-migration

٢. مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة www.missingmigrants.iom.int وفِرقته البحثية مؤلَّفة من غابريلّا سَنْشز، من المعهد الدَمَركي للدراسات الدولية، وكارلُس أرْس، من جامعة قرطبة، وتِكَلَيْن أيالو مِنْجِسْت، من جامعة أديس أبابا، وصموئيل أوكيري، من جامعة إبرسْتُل.

٣. مثال ذلك ما ورد في:
Five Point Action Plan in IOM's *Fatal Journeys* Volume 2 (2016) (خطّة العمل ذات الخمس نُقَط)
https://publications.iom.int/fr/system/files/fataljourneys_vol2.pdf
وفي مسوَّدة «مبادئ تفاعل أصحاب المصلحة وأُسَر المفقودين» التي يُعدّها اليومَ مشروع المفقودين بعناية لجنة للصليب الأحمر الدولية.
www.icrc.org/en/draft-principles-stakeholder-interaction-families-missing-migrants

البحث عن الحقيقة والعدل والالتئام النفسانيّ في زمن الجائحة

دَانَاي أَنْگَلي

قد زادت الجائحة المُتحدِّيات التي تتحدَّى الأسرَ المهاجرةَ الفاقدةَ وهي في حُزْنها على موت عزيزٍ لها أو اختفائه، ولكن الأمر لا يخلو من طُرُقٍ لمساندتها.

من حقِّ الأسر الفاقدة أن تبلغ الحقيقة والعدالة والالتئام النفسانيّ. وهذه الحقوق هي من الأسس التي قرَّرَها قانونُ حقوق الإنسان الدوليُّ وأوجبَها، فأُدخِلَت تحت الحق في الكرامة، والحق في العيش، والحق في أن يكونَ للمرء أسرة، والحق في حرمة الحياة الخاصة.[١] فلا أقلَّ من أن تضمن الدول للأسر المهاجرة الفاقدة أن تُبلَّغَ مصيرَ مفقوديها أو أمواتها والنواحي التي انتهوا إليها، فإن هي علمت ذلك طالبت بنقل جثامينهم إلى أوطانهم، حتى تُوَارَى في الثَّرَى (جاء هذا في إعلان مَيْتَلِيني سنة ٢٠١٨[٢]).

على أنّ استجابات الأوطان لجائحة الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) كان لها آثار أضرّت بأخذ الأُسَر المهاجرة الفاقدة الحقوقَ المذكورة. فأكثُر ذرائع الحَضْر التي اتُّخذت لمَنْع الحُمَة (الفيروس) من أن تنتشر لم تراعِ حاجات الأسر المهاجرة الفاقدة خاصّةً، وزادت في المعوِّقات القانونية والعملية. وقد أخذنا أمثلةً من تجارب مهاجرينَ في ثمانية بلدان (هي اليونان وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمكسيك وجنوب إفريقيا والولايات المتحدة وزمبابوي) في زمن الجائحة، لنبيِّن أنّ من

الطُّرقِ طُرُقاً عمليةً وواقعيةً إن سلكتها الدول -مع أدائها واجباتها الدولية- أمكنها مساندة الأسر المهاجرة الفاقدة مَن غير إضعافٍ لاستجابات الصحّة العامّة.[٣]

فهم سبب الموت

ثم حين يرد خبرُ موتِ عزيز، سواء كان مثبتاً أو مظنوناً، تثار حولَه أسئلةٌ فيمرّ الزمن ولا يجاب عنها، وتنعقد عليه شكوك فلا تقطع، فيَثقُل ذلك على من بقي من الأسرة. حتى أقرَّ قانونُ حقوق الإنسان الدولي بأنَّ ما تصبر عليه الأسر من ألم النفس والكُرْبة قد يبلغ إلى حدّ المعاملة المُهينَة التي لا إنسانية فيها. ولذا وجب على الدول أن تستثبت في الوَفَيَات المُريبة، وأن تحاسب المسؤولين عنها، وأن لا تقطع الأخبار في ذلك عن الأَسَر.

هذا، وكان من غموض طبيعة الحُمَة (الفيروس) الجديدة وانتشار نَظَريَّات المؤامَرة أن اشتدَّت الحَيْرة بين جماعات المهاجرين. وأوَّل الأسباب أنَّ المعطيات الرسمية التي تُبيِّن معدلَ انتقال داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) ومعدل الوَفَيَات به فيما بين المهاجرين لا تكاد توجد. فلا ينشر كثيرٌ من الدول، ومنها معظم الدول الأوربية والولايات المتحدة، ما عنده من إحصاءات داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) مُفصَّلةً بحسب جنسية المصابين، ولا يفرد لأحوال المهاجرين التقارير.

وتتفاقم الحَيْرة، وليس سبب تفاقمها واحداً هو اختلاف الطرق التي تُحَقَّقُ بها الوفيات بداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩)، وإنما لذلك سببٌ آخر وهو قَدْرُ المعلومات التي يُخبَرُها أقرب الأقارب. فسبب الوفاة، في بعض البلدان (مثل ألمانيا)، يُجعَل سرّاً مطويّاً في شهادة الوفاة التي تُسلَّم إلى مكتب الإحصاء، ولكنها لا تُجعَلُ سهلة المُتَناوَل لأقرب الأقارب بسبب القوانين التي تحمي المعطيات الشخصية. أمّا في نيويُرك، فقد كان نصيب شهادات الوفاة التي تقول إنَّ سببَ وفاة أصحابها هو داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) أنْ تَلَقَّتْها أَسَرٌ كثيرةٌ بسوء الظنّ، ولا سيما إذا كان المُتوفّى معافىً من قبل وكان السبيل إلى السجلّات الطبية أو إلى مزيد المعلومات عن سبب الوفاة مقطوعاً. وأما الأَسَر التي في خارج البلد الذي تُوُفِّيَ فيه المُتوفّى، فقد يكون استعلام أحوال الوفاة عليها أصعب؛ وذلك بسبب القيود التي على السفر وعلى تعيين صاحب الحقّ في الوصول إلى ما له صلة بالأمر من الأعمال الكتابية من تقارير ومراسلات واستئمارات.

وقد اعترضَ المهاجرينَ -وبخاصة الذين لا يحملون وثائق رسمية- مصاعب ما انفكّت تشتدُّ في وصولهم إلى الرعاية الصحية لأسباب عدّة منذ تفشّت الجائحة. فلم يُعلَم عدد ما لم يُعالَج من حالات المصابين بداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) وغيرها من الحالات الطبية، ولم يُعلَم عدد مَن لم يُشخَّص من الوفيات التي أدركها الموت خارج المستشفيات. فإن أُطلقت معطياتٌ رسمية واضحة صريحة عن معدل انتقال الداء ومعدل الوفيات فيما بين المهاجرين كان ذلك مُعيناً على قطع الشكّ والنَّظر، ومُسَانداً للأَسَر التي تطلب الحقيقة والعدل والمحاسبة.

وهذه المكسيك مثلاً تنشر السلطات فيها كلَّ يوم معطيات تامّةً مباحةً عن داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) مَّن مصابين ومستشفين ووفيات. ثم إن المكسيك لا تقصر معطياتها على تتبُّع المتغيِّرات كالسِّنّ والجِّنس والموضع ووجوه الاعتلال المُشتَرَك (comorbidities)، وإنما تورد إلى ذلك معلومات عن الجنسية وصفة الهجرة والبلد المُغادَر. ويُضَافُ إلى هذا، أنّ المكسيك أطلقت تقارير في علم الأوبئة كلَّ أسبوع أدارتها حول داء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) بين المهاجرين، ومن ذلك مَجموعُ حالات الإصابة المُثبَتَة والمظنونة والبلدان الأصليّة والمُستشفين والوفيات. وصحيح أنَّ الإحصاءات الرسمية لا تُفسِّر ما بلغ إليه عدد الوفيات (والمكسيك إحدى أقلّ البلدان معدّلاً في الاختبار)، ولكنّ الحكومة هناك اتَّخذت مسلكاً مهمّاً إلى تمام إباحة المعطيات الرسمية للناس وجعلها في نسقٍ مفتوحٍ يَحتملها من الشابكة مَن شاء.

فينبغي أن يَسْهُلَ طَلَبُ شهادات الوفاة وتحصيلُ مزيد المعلومات عن أحوال الوفاة، وينبغي في ذلك مراعاة ما تجده الأسر الفاقدة المقيمة في الخارج من صعوبة زائدة. ويمكن لمنظمات المجتمع المدني ورابطات المهاجرين وفرق الدعم أن تعين الأَسَر الفاقدة على معرفة سبيلها في الإجراءات الإدارية؛ فمن الواجب أن تظل هذه الجهات الفاعلة عاملةً سهلة المأخذ في أثناء الجائحة.

هذا وتوسيع المدارك أمرٌ محتاج إليه، لا لحَصْر انتشار الحُمَة (الفيروس) فحسب، بل وللإخبار بمعلومات شاملة سهلة المتناول عن السبيل إلى الرعاية الصحيةً، وعمّا يحتمله أمرُ مَن أُثبِتَتْ بالتَّشخيص إصابتُه، وعن الأسباب الموجبة لأن يكون لتدبير الحَصْر أثرٌ مُباشرٌ في حيث يتجمَّع المهاجرون. ثم إن إشراك اللاجئين والمهاجرين والمنظمات الشعبية وغيرها من فرق الدعم في نشر هذه المعلومات طريقةٌ ناجعةٌ في التغلُّب على ما رَسَخَ في النفس من سوء الظنّ بالسلطات.

المُوَاراةُ في الثَّرَى

يُقرُّ القانون الدولي بحقِّ الإنسان في أن يدفن مَن يُتوفَّى من أقاربه ويكرمه. على أنَّ ضمان احترام ما يُفضَّل في الجنائز والشعائر قد صَعُبَ في أثناء الجائحة خاصةً بعد أن قُيِّدَ الحضور والقيام بشأن الجثث. وأيضاً فقد تفاقم بالجائحة الإلزامُ الزمنيّ والمالي؛ فلما كانت المشارح ما تزال تضيق بالاكتظاظ، أُسرِعَ في الجنائز، فقُيِّدَ خيار الأسر المعوزة التي تحتاج إلى مزيد وقت لجمع المال، وحصرت عن نقل الجثامين إلى مواضعَ أُخَر. ثم قُيِّدَ السفر بين البلدان بشروط فزادت المعوِّقات. ويكثر تعقُّد الأمر حين لا تُعرَف هويّة الجثمان أو تشكُّ الأسرة في صحّتها.

وينبغي أن تتناول بروتوكولات الطبِّ الشرعيّ صراحةً طُرُقَ جَمْع المعطيات وحفظها قبلَ الوفاة وبعدها لِما له بتعرُّف الهويّة في المستقبل صلة. ومن الأمثلة المهمَّة على ذلك ما تأخذ فيه المكسيك من بروتوكولات الطبِّ الشرعيّ لداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) في القيام بشأن الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها. فتصف هذه البروتوكولات ما ينبغي من كيفيّة القيام بشأن الجثث وجَمْع المعطيات وخَزْنها في زمن الجائحة. وأيضاً فهذه البروتوكولات تَمنع حَرْقَ الجثامين التي لا يُعرَف أصحابها. وإن احتيجَ إلى القيام بشأن كثرة مجتمعة من الجثث، وجب أن تدفن كلُّ جثَّة مصابة بداء الحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) لا يُطالب بها أحدٌ –سواء عُرِفَ أصحابها أم لم يُعرَفوا– في قبر على حدتها، ووجب على مكتب الوكيل وخدمات الطب الشرعيّ تسجيل موضع الدَّفن.

ثُمَّ يمكن أن تُدخَل المعونة على نفقات الجنازة تحت المعونة المالية التي تُعطيها الدول لتخفف آثار الجائحة. وقد خطا برنامج الإعانة على الدفن بمدينة نيويُرك في هذا النَّحو خطوةً مهمةً؛ ففتح السبيل للأسر المهاجرة أن تستعين به ولو لم تحمل وثائق رسمية.

ويعدُّ إنشاءُ سمة دُخُول وطنيَّة لإجراء الجنازة أو تعرُّف المُتوفَّى أو كليهما وسيلةً فعَّالةً وعمليةً في مساندة الأُسَر المهاجرة الفاقدة العائشة في الخارج. وهذه ألمانيا مثلاً تُجوِّز سمة دخول الأسرة فيها –وهي سمة استمرَّت في أثناء الجائحة– لأفراد الأسرة، ومنهم أفراد الأسرة المُمتدَّة، أنْ يزوروا ألمانيا زيارةً مُؤَقَّتةً ليحضروا الجنائز.

وينبغي أن يُظهَرَ اللِّين في بروتوكولات الخدمات في المستشفيات والجنائز فتستوعب شعائر الجنازة ما استُطيع. ومع أن ألمانيا لا تجوِّز لذوي القربى نقلَ الجثمان إلى وطنه، فهي تجوِّز لهم في بعض الأحوال أو الأمكنة أن يشيِّعوا الجنازة في غرفةٍ من المستشفى. وأما في زمبابوي، فيتيسَّر بثُّ الجنائز بثّاً شابكيّاً مُباشراً للأسَر (وغير الأسر من أفراد المجتمع المحلّي) العاجزة عن الحضور بنفسها.

نَقْلُ الجثمان إلى وطن صاحبه

لا يتُّم للأسرة الفاقدة الالتئامُ النفسانيّ إلا بإعادة قريبها المُتوفَّى إلى وطنه. على أنَّ إعادة رفات الناس إلى أوطانها لم تزل من قبل الجائحة أمراً مُعقَّداً وغالي الثَّمن. وزاد غَلاءُ ثمن هذه الإجراءات ووُجُوهُ البيرُقراطيَّة فيها منذ حدوث الجائحة، إذ زاد كثيرٌ من الدول في القُيُود لتجنُّب العَدوَى. هذا مع ما سبَّبه تَعليقُ الخدمات القنصلية في كثير من البلدان وقُيُودُ السفر من اشتداد صعوبة الأمر على الأسر العائشة في الخارج. فليس نادراً أن تمتنع الأسر المهاجرة الفاقدة عن طَلَب نقل الجثمان إلى الوطن أو أن تلتمس إلى تحقيق ذلك مسلكاً أعوج. ومثال ذلك في اليونان أنَّ كثيراً من الأسر المهاجرة تكتفي بإعادة العظام، فهناك يُجوَّز لأقرب الأقارب أخذ العظام بعد أن يمرَّ على دفن صاحبها ما بين ثلاث سنين وخمس سنين. وأما في نيويُرك، فقد تختار الأسر المكسيكية حَرْقَ جثَّة قريبها على خلاف معتقدها؛ ذلك أنَّ إعادة رفاته إلى الوطن أسهل من إعادة جثّته. وبعدُ، فكل هذا يثقل على من بقي من الأسرة. لذا تُلِحُّ الحاجة إلى تحسين اللوائح الوطنية والتنسيق الدولي لتُيَسَّرَ إجراءاتُ إعادة الجثامين إلى أوطان أصحابها تيسيراً أفعَل.

فلا ينبغي أن تُترَكَ الأسر المهاجرة الفاقدة في الحداد وحدَها. وليست المعونة المناسبة واجباً خُلُقيّاً فحسب، إنما هي إلى ذلك التزامٌ قانونيٌّ تُعضُدُهُ معايير في حقوق الإنسان ثابتة.

دَانَايِ أَنجِلي *Danai.angeli@bilkent.edu.tr*
بروفيسورةٌ مساعدة، في جامعة بِلْكَنْت، ومستشارةٌ في مشروع آخِر الحقوق (Last Rights)

١. Last Rights (2019) Extended Legal Statement and Commentary (آخر الحقوق)
bit.ly/Last-Rights-2019-legal-statement

٢. هو إعلان مَيْتَلِيني في إكرام كلّ المفقودين والمُتوفَّين –وأسرهم– بسبب رحلات الهجرة، أُقرَّ في ١١ أيار/مايو ٢٠١٨.
http://lastrights.net/LR_resources/html/LR_mytilini.html
اقرأ نصّه بالعربية من هنا:
https://docs.google.com/document/d/1LcoUSaLW4-jcDCCaPztKHT4UCegFDbFjedcXA4W0Pvs/view

٣. Last Rights (2021) Every Body Counts: Death, Covid-19 and Migration. Understanding the Consequences of Pandemic Measures on Migrant Families
(لا يُغفَلَنَّ أحَد: الموت والحُمَة التاجية (كوفيد ١٩) والهجرة: فَهْم عواقب ما اتُّخذ لتدبير الجائحة على الأُسَر المهاجرة)
bit.ly/Last-Rights-2021-EveryBodyCounts

المهاجرون المفقودون وأسرهم: دعوة إلى زيادة التنسيق الدولي

سِلْفِي ڤَن لامرَيْه وفلوريان فُن كُونِش

تقوية التزام التَّنسيق والتَّعاون ضرورة إذا أُريد للفاعلين أن يكونوا أَفعَلَ في تحديد مكان المهاجرين المفقودين وإعانة أَسرهم. ومن المبادرات الجديدة ما يفسح سبيلاً للمُضيِّ قُدُماً.

البحث عن المهاجرين المفقودين عملٌ عابر للأوطان، بل وعابر للقارات، يستدعي التعاون بين طائفة عريضة من الفاعلين.[١] وقد كان يفتقر إلى إطار عمل حكومي دولي عالمي في مثل هذا التعاون، لكن هذا تغيَّر مع إدراج الغرض الثامن (بحضٍّ من اللجنة الدولية للصليب الأحمر) في الاتفاق العالمي للهجرة. وبذلك، التزمت أكثر من ١٥٠ دولة ببذل جهد مُنسَّق في شأن المهاجرين المفقودين، ومن السبل إلى ذلك توحيد جَمْع المعلومات وتبادلها وإنشاء تَنسيق عابر لأوطان في تعرُّف الهوية والاتِّصال بالأُسَر.

على أنَّ نقلَ وجوه الالتزام السياسيّ إلى أفعال يقتضي معلومات حتَّى تُحدَّد المشكلة وتُحلَّل. وهذا متحدٍّ سيء السمعة إذ يصعب الحصول على ما يعتدُّ به من عدد المهاجرين المفقودين، لأسباب منها طبيعة السريَّة في الهجرة في كثير من الأحيان. هذا ويكثر أن تَلوِيَ التصورات عُنُقَ المسألة، وهذا ظاهر التركيز في كلٍّ من التقارير الإعلامية والاهتمام الرأي العام بسياقات البحر المتوسط أو أمريكا الوسطى، فيُهمَلُ من ثمَّ المدى الواسع لتدفقات الهجرة داخلَ إفريقيا أو آسيا أو الشرق الأوسط. ولذلك كانت المبادرات، من مثل مشروع المهاجرين المفقودين التابع للمنظمة الدولية للهجرة أو المرصد الإفريقي للهجرة والتنمية الذي أنشأه الاتحاد الإفريقي بأخرة، بالغةً في الأهمية لإنشاء خط قاعديّ للسياسة العامة وإتاحة التحليل الذي تشتدُّ الحاجة إليه.

ومع هذا يُحتَاجُ إلى أطر ملموسة لتَنسيق جهد الفاعلين المعنيِّين على طول طرق الهجرة لَلوقاية[٢] من الفقد ولحلِّ قضايا المهاجرين المفقودين، ومن السبل إلى ذلك جَمْع المعلومات من مصادر مختلفة وتجميعُها والتشارك فيها ومقابلتها بعضها ببعض. ثم إنَّ فحص سُنَن العمل المتَّبعة اليومَ وتقديم الإرشاد في كيفية تحقيق ما تقدَّم ذكره غرضٌ يسعى إليه مشروع المفقودين التابع للجنة الدولية للصليب الأحمر منذ أطلَقَتْه سنة ٢٠١٨,[٣]

استجماعُ أصحاب المَصلَحة

أنشَأت اللجنة الدَّولية للصليب الأحمر، بناءً على خبرتها الطويلة في هذا الميدان، مشروع المفقودين لتَجميع مجتمع عالمي من أصحاب المصلحة لأجل أن يشترِكوا في وَضْع إرشادات لتحسين الاستجابة.[٤] وفي مناقشات أُديرَت في ورشة للخبراء سنة ٢٠١٩[٥]، أثبتَ نحو ٦٠ مزاولاً يمثلون دولاً ومنظَّمات وأُسَر المهاجرين المفقودين أنَّ بعض العقبات الرئيسة هي: انتفاء سنن عمل ومعايير راسخة في ميدان جَمْع المعلومات، ومُتحدِّيات حماية المعلومات الشخصية الحسَّاسَة، وضَعْف سُنَن عمل المتَّبعة في الطب الشرعي. وأيضاً فقد ذكر المشاركون وأكَّدوا مُتحدِّيات مُعيَّنة تعترض أُسَر المفقودين، مثل صعوبة الحصول إلى المعلومات من بلد آخر، وانتفاء الثقة بسلطات الدولة، والمعوِّقات الديوانيَّة (البيروقراطية) والقانونية واللغوية. وبالنظر إلى الموارد والخبرات التي قدمها الفاعلون من غير الدول وإلى أهمية إشراك الأُسَر في البحث، حصل اتفاق عامّ على أن أنموذج أصحاب المصلحة المُتعدِّدين للتنسيق قريبٌ أن يُحقِّقَ النتائج المرجوَّة.

ولكي تُحوَّل هذه النتائج إلى عمل، اقترح المشاركون أن يُنشِئ مشروع المفقودين ثلاث مخرجات مُحدَّدات. فأوَّلها، أنَّا قد عملنا على مُسوَّدة جملة معطيات للتَّوفيق بين المعلومات المتَّصلة بالبحث عن المهاجرين المفقودين.[٦] وبدل أن نستبدل بسُنَن العمل المتَّبعة غيرَها بنَيْنا عليها، فجمعنا بين استئمارات الإنترنول واستئمارات تستعملها حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر، فخرجت وثيقة تحتوي على أسئلة موحَّدة تستوعب معلومات مثل التفاصيل الشخصية للمهاجر المفقود، ومميِّزاته الجسمانيَّة والأحوال الملابسة لاختفائه. وثاني المُخرَجات نشر مؤلَّف اسمه (مبادئ تفاعل أصحاب المصلحة وأُسَر المهاجرين المفقودين).[٧] وهو مؤلَّف يُعالج ما تقدَّم ذكره من تحدِّيات تعترض الأُسَر، ويُقدِّم بين يَدَيه الإرشادَ للفاعلين في كيفية معاملتها، وورد فيه تَوكيدُ مركزيَّة شأنِ الأُسَر في كلِّ بحثٍ عن مفقود.

وأما الوثيقة الثالثة فنقول إنَّها أكثر الوثائق الثلاث تعقيداً، وهي جملةٌ من (المبادئ التوجيهية في التَّنسيق

موظّفة من لجنة الصّليب الأحمر الدوليّة وهي تَأخُذُ طلبَ بحثٍ عن مفقود من امرأةٍ صوماليّة، في جزيرة لِيسُ باليونان.

وآليات تبادل المعلومات للبحث عن المهاجرين المفقودين).[٨] وتتألّف هذه الآليات -الموضوعة لبيان مصير المهاجرين المفقودين والنواحي التي انتهوا إليها، سواء كانوا أحياء أو أموات- من شبكة سهلية التكيُّف من أنواع مختلفة من أصحاب المصلحة المتعاونين على تبادل المعلومات وتحليلها في مسالك الهجرة، الذين يمكن أن تختلف شؤونهم وأهميَّتهم النسبية على حسب السياق. وتُحدِّد وثيقتنا العناصر الرَّئيسةَ لهذه الآلية: فهم مشترك للأدوار ووجده المسؤوليَّة، وطريقة مقاربة مُنسَّقة لتدبير المعلومات قد تشمل أدوات تقبل التشغيل البينيّ، ومسارات مُحدَّدة بيِّنة لتبادل المعلومات، واتفاقيات قانونية تقوم عليها كلّ العناصر المتقدّمة الذكر. وأيضاً تَصف مسوَّدة المبادئ التوجيهية الخطوات الأوليةَ التي يلزم اتِّخاذها في الصعيد الوطني، مثل التَّوفيقِ ومركزيَّة المعطيات التي يجمعها فاعلونِ شتَّى. وإذ قد كان سياق الهجرة حساساً، فقد أكّدَت في الوثيقة الحاجة إلى شِدَّة حماية المعطيات الشخصية.[٩]

وقد بُنِيَت وثيقة الإرشاد على جملة من المبادئ التوجيهية التي يعتمدها اليومَ المؤتمَر الإقليمي للهجرة في الأمريكيَّتَين، وذلك لتستقيم الوثيقة على التزام المشروع بالتوصيات الأساسيَّة، ما أمكن، في سُنَن العمل المتَّبعة اليومَ. وهذا إنما هو أول إطار عمل حكومي إقليمي يُحدِّدُ أساليب ملموسة للتعاون في مسألة المهاجرين المفقودين. ويُماثل ذلك أنَّ المبادئ التوجيهية تُبيِّن توصيات مُحدَّدة مشيرةً إلى سُنَن العمل المُتَّبعة.

ما المُحتاجُ إليه بعدُ؟

ثم إنَّ المناقشات التي دارت بيننا وبين الخبراء والمزاولين لا تدع لنا أدنى حيّزٍ للشكّ في أن بالجهد المبذول لبلوغ الغرض الثامن حاجةٌ إلى التَّعزيز والتَّنسيق. وصحيح أنَّ بعض التقرير ترد من بعض البلدان بالإجراءات المُتَّخذة هناك في الصعيد الوطنيّ -مثل تعزيز أنظمة الطب الشرعي الوطنية-، ولكن هذا الجهد يلزم منه انتفاء الكفاية إن بُذل بلا عمل دولي مُنسَّق. فزيَادةُ العَزْم والتنسيقَ في عمل الحكومات حاجة لا تزال تُلِحُّ.

ولمَّا انتفت الإجراءات الحاسمة عند الحكومات، كثَّف المجتمع المدني وغيره من الفاعلين غير الحكوميِّين العملَ لملء الفراغ في نواحٍ من العالم

كثيرة. على أنَّ عملهم كثيراً ما يكون ضيِّقَ النطاق مُفتقِراً إلى الموارد والدعم من السلطات المَعنيَّة. فإنَّا مقتنعون أن شأنَ أقوى الفاعلين الدوليِّين مثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر ضروريٌّ في إعانة الدول على أن تستوفي من التزمَتهُ، وهذا مُتمٌّ لما تقدَّم ذكره من بذل الجهد. فشأنٌ كهذا إنما يحتاج إلى أن يُجاوِز الدعوة إلى اجتماع أو المشورة التقنية فيَبلُغَ الدعَم الملموس –مثل ما لع علاقة بتدبير المعطيات والمعلومات– ليُمكِّنَ التنسيقَ بين الدول وغيرها. مثال ذلك: أنَّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر تعمل اليومَ على إنشاء منصة رقمية تفتح السبيل للسلطات والفاعلين الآخرين أن يتبادلوا ويدبّروا المعطيات والمعلومات المتَّصلة بأمور المفقودين، وجعل كلٍّ ذلك آمناً في الصعيد الوطني والعابر للأوطان.

ثم إنَّ إنشاء منهجيات وأعمالاً للتَّحقيق وتعرُّف الهوية تُستعمَل فيها هذه المعلومات استعمالاً فعَّالاً، وتُكيَّفُ بطائفة عريضة من السياقات والموارد الحاضرة– ما يزال مُتحدِّياً شديداً.[10] على أنَّ بذلَ الجهد والاستثمارات الطويلة الأمد ليُضمَنَ تحقيق التنسيق وتبادل المعلومات على طول مسالك الهجرة ضرورةٌ، إذا أردنا إجابة الأُسَر التي تبحث عن عزيزٍ لها مفقود.

سلْفِي قَن لامرَيْه *svanlammeren@icrc.org*
نَصيحةٌ، في مشروع المفقودين، من اللجنة الدولية للصليب الأحمر

فلوريان فُن كُونش *fvonkoenig@icrc.org*
نَائبُ رئيسٍ، في مشروع المفقودين، من اللجنة الدولية للصليب الأحمر

١. لا تعريفَ قانونياً دولياً لمصطلح «المهاجرين المفقودين». وتعرِّف اللجنة الدولية للصليب الأحمر المفقودينَ بأنهم أفراد لا يعرف أقاربهم المواضع التي انتهوا إليها، أو بأنهم الذين يُبلَّغُ فقدهم، بناءً على معلومات يُعتَدُّ بها، نتيجةَ نزاعٍ مسلح أو غير ذلك من حالات العنف أو كارثة أو هجرة.

٢. من شاء الاطلاع على توصيات السياسات العامَّة في وقاية المهاجرين من أن يُفقَدوا فلْيَنْظر:
ICRC (2017) *Missing Migrants and their Families*, Recommendation 1
bit.ly/ICRC-missing-migrants-recommendations-2017

٣. www.icrc.org/en/publication/4375-missing-persons-project

٤. يجمع مشروع المفقودين بمنصَّة افتراضية بين الخبراء وممثلي الأُسَر وأصحاب المصلحة الآخرين حتَّى تُثَارَ المناقشة ويُبنَى توافق الآراء في سُنَن العمل الحُسْنى وتُعزَّز المعايير التقنيَّة القائمة وتُنشَأ وتُطوَّر معايير جديدة عند الحاجة إليها. فإن شئت الانضمام إلى جماعة المزاولين العالميَّة اتَّصل بأحد المؤلِّفَين.

٥. اشترَكَ في تنظيمه اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومشروع المهاجرين المفقودين التابع للمنظمة الدولية للهجرة والفرقة الأرجنتينيَّة لأناسَة الطبِّ الشرعي. انظر:
ICRC (2020) *Clarifying the fate and whereabouts of missing migrants. Exchanging information along migratory routes*
(بيان مصير المهاجرين المفقودين والنواحي التي انتهوا إليها: تبادل المعلومات في مسالك الهجرة)
bit.ly/ICRC-clarifying-fate-2019

٦. باب التشاور في جملة المعطيات مفتوح للنَّاس حتَّى ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٢١:
www.icrc.org/en/document/draft-minimum-standard-dataset-search-missing-migrants
اقرأها بالعربية: www.icrc.org/ar/document/
مسودة-مجموعة-البيانات-المعيارية-الدنيا-للبحث-عن-المهاجرين-المفقودين

٧. باب التشاور في مسوَّدة الوثيقة مفتوح للنَّاس حتَّى ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٢١:
www.icrc.org/en/draft-principles-stakeholder-interaction-families-missing-migrants

٨. باب التشاور في مسوَّدة الوثيقة مفتوح للنَّاس حتَّى ٣١ أيار/مايو ٢٠٢١:
www.icrc.org/en/document/guidelines-coordination-missing-migrants

٩. انظر:
ICRC (2020) *Handbook on Data Protection in Humanitarian Action*, 2nd Edition
(دليل حماية المعطيات في العمل الإنسانيّ)
bit.ly/ICRC-Handbook-data-protection-2nd-edition

١٠. إن شئت مثالاً على سُبُل الأخذ بعملٍ كهذا، فانظر:
ICRC (2020) *The Missing and Deceased Migrants and their Families Program in South Africa and Zimbabwe*
(برنامج المهاجرين المفقودين والموتى وأُسَرهم في جنوب إفريقيا وزِمْبابوي)
bit.ly/ICRC-Southern-Africa-2020

المجلس الاستشاري الدولي لنشرة الهجرة القسرية
يشارك أعضاء المجلس الاستشاري الدولي في نشرة الهجرة القسرية بصفتهم الشخصية ولا يمثلون بالضرورة المؤسسات والمنظمات التي ينتمون إليها.

Lina Abirafeh
Lebanese American University
Nina M Birkeland
Norwegian Refugee Council
Jeff Crisp
Independent consultant
Matthew Gibney
Refugee Studies Centre
Rachel Hastie
Oxfam
Lucy W Kiama
HIAS Kenya
Khalid Koser
GCERF
Erin Mooney
UN Protection Capacity/ProCap
Kathrine Starup
Danish Refugee Council
Marcel van Maastrigt
UNHCR
Marcia Vera Espinoza
Queen Mary University of London
Richard Williams
Independent consultant

الفقدان والأمل والعمل

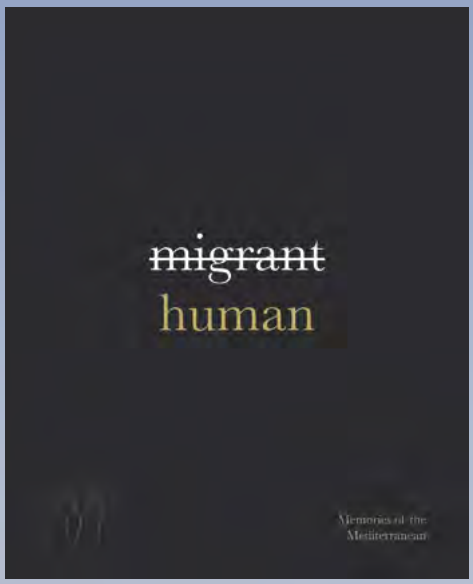

المُلصَق من تصميم: مُنتِمُون (طالب في جامعة مشِغَن)

كثيرٌ من المهاجرين الذين يحاولون قَطْعَ البحر المتوسِّط لا ينجحون، فمنهم مَن يموت فيه ومنهم مَن يختفي. ومع كل مهاجر يُفقَدُ أسرةٌ تتوق التئامَ النَّفس.

«لا يمرُّ علينا حدثٌ أو عطلةٌ لا نستحضره فيهما. حتَّى إنَّ ظِلَّه لا يغيب عن عينايَ وأنا في الشوارع أسير».

لاتَيْر بورتوس مُنظَّمةُ مُنَاصَرةٍ في مدينة تونس، تشتغل بمعالجة محنة المهاجرين المفقودين والظُّلم الواقع على أُسَرهم. وأساس عملها المُناصَرة القانونية وحملات توسيع المدارك حتَّى تُغيِّر السياسات العامّة فيُفتَحَ السبيل إلى تعرُّف الجُثَث التي يُعثَر عليها أو تُستَرْجَع.

وأيضاً فقد عملت منظَّمة لاتَير مع طلاب جامعة مشِغَن على تصوير روايات أُسَر المهاجرين المفقودين، والسَعي إلى إدخال مسألة المهاجرين المفقودين في حيّز المسائل المقتضية للمعونة الإنسانية، والسعي إلى المطالبة بتغيير السياسات العامّة. فزُرْ معرض المنظَّمة في الشَّابكَة من هنا: https://missingmigrants.org.

عماد سلطاني (*association_laterrepourtout@yahoo.com*)، من منظَّمة لاتَيْر بورتوس بمدينة تونس، وأوديسَا غُنْزَالس بنْسُن (*odessagb@umich.edu*)، وڤديم بسپروزڤني (*vbesproz@umich.edu*)، مع المؤلِّفة المشارِكة إلينا غُودِن، والمؤلِّفان المشاركان أنطونيو سِسلْيَانُو وبدَر البَدر، من جامعة مِشِغَن

إن شئتَ الاستزادة في أخبار المهاجرين المفقودين فاقرأ هذا العدد من نشرة الهجرة القسرية.

www.fmreview.org/ar/issue66

لا يكون تَوْزيعُ النشرة إلا بالمجّان

لاجئون في ساحل جزيرة لِسْبُس يُعَبِّدَ بلوغهم إيّاه بزورق منفوخ. مفوضيّة اللاجئين/أيفُور بريكيت